مَنشور الهِدَايَة

في كشف حال مَن ادعى العِلم وَالولاَيـة

تـأليف

شَيخ الإسلام عبد الكَريم الفكون

المتوفى سَنة 1073 / 1662

تقـديم وَتحقِيق وَتعـليق

الدكـتور أبو القـاسِم سَعد الله

جَامِعَة الجزائر





مَنشور الهداية

في كشف حال من ادعى العلم والولاية

تأليف

شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون

المتوفى سنة 1073 / 1662

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور أبو القاسم سعد الله

جامعة الجزائر



الطبعة الأولى

1408 — 1987

دار الغرب الإسلامي

ص.ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

شكر واعتراف

إن هذا العمل مدين بالشكر والامتنان لعدد من الفضلاء الذين سهّلوا علي إخراجه إلى النور. فالشيخان المهدي البوعبدلي وعبد المجيد بن حبة وافقا على استعمال نسختيهما في التحقيق. والأستاذ محمود بوعياد أطلعني على نسخة المكتبة الوطنية التي هي نفسها نسخة الشيخ البوعبدلي. والشيخ محمد الطاهر التليلي قرأ معي المخطوطة وأجاب على الكثير من الأسئلة. وقد قابلت معي زوجتي النسخة المصورة بالمرقونة، كما تفضّل الأستاذ محمد الطيب عقاب برقن المخطوط رقناً متقناً.

ويجب ألا ننسى أولئك الذين كلّفوا أنفسهم البحث معي عن نسخة أخرى من المخطوطة، ورغم أن جهودهم لم تثمر حتى الآن، فأملنا جميعاً أن نتعاون على تحقيق ذلك الهدف، وأخص بالذكر هنا الدكتور عمار طالبي، والشيخ عبد القادر العثماني، والأستاذ أحمد بن السائح، والأستاذ علي أمقران السحنوني. وهناك من أعانني في البحث عن مواقع وأصول بعض القبائل الواردة في المخطوط، وتطول القائمة لو أوردت جميع أسمائهم هنا.

فلهم جميعاً شكري وامتناني، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

(المحقق)

تقـــدِيم

أ ـ المؤلـف:

مؤلف (منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية) هو عبد الكريم الفكـون بن محمد بن عبـد الكريم الفكـون التميمي القسنطيني المتـوفى سنة 1073 (1662). فهو إذن ابن عائلة وابن مدينة وابن عصر. إنه ابن عائلة الفكون ذات التاريخ العريق، إذ تذكر أنها من قبيلة تميم العربية[1]، ونعرف أن منها شعراء بارعين، وعلماء، ومتصوفة، وقضاة، بل منها من نال الشهادة أثناء الغزو الأسباني لتونس سنة 1535. ويعتبر مؤلف (منشور الهداية) من أبرز أفراد العائلة علماً وعملاً وسمعة. ففي عهده بلغت عائلة الفكون أوج قوتها المادية والمعنوية، إذ أصبحت تتمتع بأموال طائلة وأملاك واسعة ومداخيل رسمية ودينية. كما أصبحت تتمتع بنفوذ روحي بلغ درجة قصوى عندما كان الهارب إليها ولو كان مرتكباً لأعظم الأخطاء، ولو كان من أكابر الناس والحكام، لا تلحقه إذاية بل يجد الحماية والملجأ الأمين. كما تمتعت العائلة في عهده ثم من بعده، بقيادة ركب الحج الجزائري إلى الحجاز، مع ما في ذلك من المكانة في الجزائر وفي البلدان الإسلامية التي يمر بها بين الشعوب والحكام على السواء.

ثم إن الفكون ابن مدينة هي قسنطينة. فأجداده الأقدمون الذين قد يعودون إلى

---

(1) عن تفاصيل حياة عائلة الفكون أنظر كتابنا (شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، داعية السلفية) دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986. والغريب أن الفكون لم يذكر هذه النسبة مع اسم أجداده وآبائه حين ترجم لهم في كتابه الذي نحققه.

القرن الخامس الهجري، مدفونون بها، ولهم فيها زاوية تحمل اسمهم لاستقبال الضيف من الفقراء والغرباء. ولهم مدرسة باسمهم لتعليم العلم لطالبيه من طلبة الجزائر وغيرها. وقسنطينة كانت عاصمة إقليمية كبيرة في مختلف العهود، خصوصاً العهد الحفصي والعثماني. وقد كان أعيانها في العهد الأول يتجهون نحو تونس ويتلقون العلم في جامعها الأعظم (الزيتونة) ويستلمون المناصب الإدارية والمخزنية من أمرائها. بالإضافة إلى أن بضائع تونس والشرق كانت تجد لها سوقاً رائجة في قسنطينة. وكان علماء تونس بدورهم يتولون بها الوظائف المختلفة ويتصاهرون مع عائلاتها، ويحملون إليها الكتب والأفكار. وفي العهد العثماني استمرت قسنطينة على مكانتها كعاصمة لأكبر إقليم في الجزائر وأغناه وأكثره ثقافة وتحضراً. وإذا كانت قد شهدت فتناً وتنافساً بين العائلات وحتى بعض الحروب بين جيشها وجيش تونس فذلك كله يدل على المكانة التي كانت لها في نظر المعاصرين. وقد شارك الفكون في كل قضايا عصره التي عرفتها مدينة قسنطينة وكان له رأي فيها، كما يدل على ذلك كتابه الذي بين أيدينا.

أما كونه ابن عصره فنحن نعرف أن الفكون قد ولد سنة 988 (1580). وهو تاريخ له دلالته بالنسبة لمن عرف أحوال المغرب العربي (والعالم الإسلامي عموماً) في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. فالصراع السياسي الواسع كان بين الإسلام الذي تمثله الدولة العثمانية والمسيحية التي تمثلها الدولة الإسبانية. وكان مسرحه هو البحر الأبيض وشواطئه الشمالية والجنوبية. وقد لعبت الجزائر في ذلك الصراع المرير دوراً طليعياً تمثل في عمليات الجهاد البحري التي يصفها الأروبيون بالقرصنة. والمعروف أن قوة الأسطول الجزائري قد بلغت قمتها في القرن السابع عشر حين خرج ذلك الأسطول إلى المحيط الأطلسي أيضاً وهدد شواطىء أروبا الغربية (بما في ذلك إيرلندا) وحتى إيسلندا ونيوفوندلند. ومع هذا التوسع العسكري والسياسي جاءت الغنائم والثروات. وحين توفي الفكون سنة 1073 (1662) كان وضع الأسطول ما يزال على ما هو من القوة والثروة. والغريب أن (منشور الهداية) لا يتعرض - من قريب أو من بعيد - إلى ذلك الوضع العسكري والسياسي على المستوى الدولي. والإشارة الوحيدة إلى ما يمكن أن نسميه حادثاً دولياً، هو الصلح بين الجزائر

وتونس سنة 1037، ثم زيارة المولى علي الذي أخبر عنه أنه جاء من السلطنة الأحمدية (أسطانبول). بينما ركّز الكتاب على الأوضاع «الداخلية»، خصوصاً في إقليم قسنطينة، فأطال الحديث عن الثورات والفتن، وتنافس العلماء على الوظائف المخزنية، وشيوع الدروشة والحضرة والخرافات والمتاجرة بالدين، كما تحدث عن المصاهرات والمراسلات وتدخل السلطة في أمور الناس، سواء سلطة الجزائر العاصمة أو سلطة قسنطينة المحلية.

ترى لماذا فعل الفكون ذلك؟ إننا لا يمكن أن نتهمه بقصر النظر أو عدم الاطلاع أو حتى عدم الاهتمام، فالرجل كان على ثقافة واسعة، وكان ذكياً لا تخفى عليه أمور السياسة والسلطة. وكان كثير الأسفار والمراسلات والاطلاع على أحوال المسلمين وحكامهم. إن التفسير الذي يمكن أن نجده لموقفه المذكور لا يخرج - في نظرنا - عن أحد أمرين: إما أن رؤيته لدور رجل العلم والدين رؤية خاصة بحيث يؤمن بعدم التدخل في الشؤون السياسية (الدنيوية) والمحافظة على مكانة رجل العلم والدين أمام رجل الحكم والسياسة. ونحن نتبين ذلك من الإشادة بموقف جده بإصراره على قتل اليهودي الذي تعرّض للرسول ﷺ رغم معارضة القضاة والحاكم والجنود الخ. كما نلمحه في استنكاره الدائم لتصرفات العلماء الذين باعوا أنفسهم - في نظره - للحكام، فأهانوا العلم والدين معاً. وقد يكون هذا التفسير قائماً على مبادىء الطريقة الزروقية (طريقة الشيخ أحمد زروق) الصوفية التي ينتمي إليها الفكون، وهي طريقة تؤمن بـ «ملازمة السمع والطاعة لأمراء المسلمين وعامتهم وخاصتهم من أهل الله، فلا يخالف عليهم بقول ولا بفعل بل إيمان وتسليم...»[1].

أما الوجه الثاني من التفسير الذي بدا لنا لموقفه من عدم التعرض للحياة السياسية العامة، فقد يكون راجعاً إلى كونه قد ألّف الكتاب للنصح العام، كما قال. وضرورة التخلص من الشعوذة والخرافة التي حلّت بعقائد المسلمين، ومن ثمة تصبح دعوته دعوة إصلاحية - سلفية يعتبرها هو ضرورة للخروج بالمسلمين مما هم فيه من الانحطاط العقلي الذي لا يتلاءم مع مبادىء دينهم ولا ما عليه العالم عندئذ من صراع

(1) انظر «أصل الطريق للشيخ زروق» في كتاب (النبوغ المغربي) لعبد الله كنون، 290/2. ط. بيروت 1961.

شديد بين القوتين الأعظم: العثمانية (الإسلامية) والإسبانية (المسيحية). فإذا صح هذا التفسير فإن دعوته الداخلية تصبح مكملة لعنصر القوة الخارجية الذي كان يقوم به الأسطول.

* * *

من مختلف الوثائق المتوفرة نعرف أن عبد الكريم الفكون قد تثقّف ثقافة محلية- عصامية. لقد كان بعض أجداده قرأ في تونس وتولى فيها التدريس والخطابة والإمامة ولكن ذلك كان أيام تبعية قسنطينة للحفصيين، أما هو فلا نعرف أنه ذهب إلى أي وجهة من أجل العلم غير قسنطينة. ذلك أنه في عهده قلّت الرحلات العلمية بين المدينتين: قسنطينة وتونس، وتوطّد الانفصال السياسي بينهما وتقلّصت إلى حد كبير المبادلات التجارية والزيارات وغيرها. ولا نعرف أن الفكون قد رحل إلى الشرق طلباً للعلم في صغره، أما في كبره فقد كان يتوجه إلى المشرق كأمير لركب الحج لا كطالب علم. حقيقة أننا نجده يذكر أنه فكر في الهجرة إلى الحجاز وهو يافع إذ كان متبرماً بأحوال بلاده وأهلها، ولكنه عدل عن ذلك ورضي بالإقامة في وطنه مستنداً إلى حديث شريف جعله يعتقد أن أهون الشر عدم الهجرة، إذ قد يكون البلد الذي يهاجر إليه أكثر شراً من البلد الذي هاجر منه[1].

تثقف إذن ثقافة محلية ـ عصامية. كما ذكرنا. وفي (منشور الهداية) معلومات وافية عن ثقافته. فهو يذكر شيوخه الأوائل، بما فيهم والده، ويذكر ما قرأ عليهم. ويتحدث عن تردده على الكتّاب وحفظه للقرآن الكريم، ويسمي شيخه الذي حفظ عليه القرآن الكريم. وهناك معلومات عن شيوخه في الفقه والفرائض والكلام والنحو. وقد أفاض في الحديث عن شيخيه في هذا العلم (النحو) بالذات، وهما محمد التواتي المغربي، ومحمد بن راشد الزواوي. ويبدو أن الشيخ إبراهيم الفلاري التونسي قد دفعه (أثناء زيارة له لقسنطينة) للزيادة من المعرفة في علم النحو، عندما تحداه، على صغر سنّه، فطلب منه ما لا يطلب من أمثاله من الإعراب. وبهذه المناسبة سجل الفكون هذه المقولة التي تلقي أضواء على طموحه واعتزازه بنفسه:

---

(1) ساق هذه الحكاية في (منشور الهداية).

«كنت ذا نفس أبية، ومع صغر سنّي لا أرضى أن أكون خليّ المعرفة مما عرفه غيري». وهو يشير بذلك إلى تحدي الفلاري له رغم صغر سنه.

وبعد أن نال حظاً من المعرفة على شيوخ عصره، عكف على القراءة وحده في مكتبة العائلة الغنية، يساعده على ذلك ذهن وقّاد وطموح عريض طالما أشار إليهما في معرض الحديث عن معاصريه وشيوخه بشيء من الإعجاب بنفسه وتفوقه حتى على بعض شيوخه في حل المسائل العويصة، والتجاء بعض علماء عصره، حتى الخصوم منهم إليه في السؤال والإذعان لرأيه. وبالإضافة إلى ذلك جلس الفكون للتدريس في الجامع الكبير بقسنطينة وبزاوية العائلة. فكان يستقبل الطلبة من قسنطينة ومن غيرها من نواحي القطر، خصوصاً من منطقة زواوة، ومدينة الجزائر، وما خولها غرباً، وكذلك نواحي الزيبان وعنابة. وقد تعرضنا في الكتاب الذي ألفناه عنه إلى أسماء تلاميذه، وبعض الإجازات التي منحها لبعضهم، رغم تحفظه في ذلك، ومعظم المواد التي كان يدرسها لطلابه، وجاء ذكرها عرضاً في كتابه، هي في النحو والتفسير والفقه من ابن الحاجب، وعلم الكلام والرسالة وصحيح البخاري.

وبالإضافة إلى التدريس وإخراج التلاميذ، ساهم الفكون في حركة التأليف. فنجده ترك مجموعة من التآليف لا يفوقه فيها كثرةً إلا معاصره أحمد المقري صاحب (نفح الطيب). وتنوعت تآليف الفكون فشملت الأدب والنحو والاجتماع والدين. ومن أبرزها (منشور الهداية) الذي سنتحدث عنه. وقد وصف الفكون أسباب ميله إلى النحو دون غيره من العلوم. ومن ذلك نعرف أن بعض هذه الأسباب يرجع إلى تأثير معنوي - صوفي. مثل الرؤيا التي رواها عن جده من أنه ناوله في المنام ورقة فيها (كان فعل ماض...) ففهم الفكون من ذلك أن جده كان ينصحه بدراسة النحو. ومنها ما يرجع إلى تأثير شيوخه عليه ومنهم التواتي والزواوي والفلاري المذكورين، ولكل واحد منهم معه قصة في ذلك فصّلها في (منشور الهداية). أمّا تعاطيه الشعر فالظاهر أنه كان يمارسه سليقة، وكان يعارض به ما يرد عليه منه في رسائل المراسلين أمثال المقري وتاج العارفين والسوسي، الخ. ومنه ما كان ينظمه للتنفيس عن كرب من كرب الدنيا، مثل (سلاح الذليل)، ومنه ما نظمه في المديح النبوي تحت ضغط

المرض الذي عانى منه، طلباً للشفاء من الله متوسلاً إليه بالنبي الكريم.

وكل من بلغ مبلغ الفكون من الجاه والعلم والوظيفة يقصده الناس بالمراسلات والعلاقات. وهناك معلومات عديدة حول هذه المراسلات والعلاقات بينه وبين معاصريه، بعضهم صرّح به هو في كتابه الذي بين أيدينا، مثل مراسلاته مع سعيد قدورة، مفتي مدينة الجزائر في وقته، ومع بعض علماء المغرب، ومع بلغيث القشاش، وتاج العارفين العثماني، وإبراهيم الغرياني، الخ. ومنها ما نجده في وثائق أخرى مثل ما جاء في (نفح الطيب) للمقري وفي (كنز الرواة) لعيسى الثعالبي، وبعض وثائق تاج العارفين الموجودة في تونس اليوم. ولا شك أن هناك مراسلات أخرى لا نعرفها من الوثائق المتوفرة، وإنما هي ضائعة أو ما زالت في حوزة من لا يرغب في الكشف عنها.

إن شهرة الفكون لم تأت فقط من التدريس والتأليف، ولكن جاءت أيضاً من توليه وظائف أخرى هامة. وطالما كان والده على قيد الحياة كان الفكون يعيش في ظله رغم تقدم السن به، ولكن عندما توفي والده سنة (1045 / 1635) تولّى الفكون كل وظائف أبيه من تدريس وإمامة وخطابة بالجامع الكبير، ثم أضاف إليها وظيفة قيادة ركب الحج. ومن الواضح أن الوظيفة الأخيرة قد جعلت منه أيضاً شخصية دينية ـ سياسية مرموقة ليس فقط في الجزائر ولكن في العالم الإسلامي أيضاً، خصوصاً في تلك البلدان التي كان ركب الحج يمر بها مثل تونس ومصر وطرابلس والحجاز والقدس. وقد ترك لنا عيسى الثعالبي وأبو سالم العياشي وصفاً حياً لاستقبال بعض مسؤولي هذه البلدان للفكون كأمير لركب الحج وموقفه هو من ذلك. وقد جلبت إليه وظيفة ركب الحج أموالاً طائلة أيضاً في بلاده، بالإضافة إلى الجاه العريض.

* * *

إن العقيدة التي يظهر بها الفكون أمامنا هي عقيدة المسلم السني المتمسك بأهداب الشرع والجماعة. فهو سلفي محافظ، منكر للبدعة والخروج عن الجماعة واتخاذ أساليب ملتوية من التصوف لم تكن معروفة عند أوائل المسلمين، ومن أجل

ذلك نجده ثائراً أشد الثورة على الذين لم يسيروا في هذا الطريق. فهو ضد المعتزلة لاجتهاداتهم العقلية، وهو ضد الخوارج لعدم ارتباطهم بالجماعة، وهو ضد الشيعة لنفس الموقف، ولكنه يظهر معتدلاً جداً مع هؤلاء جميعاً بالقياس إلى موقفه من أهل البدعة. إن ثورته هنا لا تعرف حدوداً إلا حدود الشرع، فهو يذكر أسماء المنحرفين وتصرفاتهم الخارجة عن اتباع الشرع، وأساليبهم في الوصول إلى أهدافهم الدنيوية العاجلة. وقد رأى أن الضحية لذلك كله هو الدين الذي أصبح عنده غريباً. فرفع معوله القوي وأخذ يهوي به على المنحرفين في الدين: فلم يترك في قلمه قطرة حبر إلا أهرقها من أجل ذلك الهدف، ولم يترك كلمة ردْع ونُصْح إلا صدع بها، ولم يترك وسيلة تشنيع وتعرية إلا لجأ إليها، بل إنه التجأ في ذلك أيضاً إلى الله يطلبه تسليط أقسى العذاب على هؤلاء في الدنيا قبل الآخرة. وقد جمع في ذلك بين منحرفة العلماء ومنحرفة المتصوفة. ومن الطائفة الأولى أحمد الغربي، ومحمد بن نعمون، ومن الطائفة الثانية قاسم بن أم هانيء وأحمد أبو عكاز الخ.

ولكن القارىء يلاحظ أن الفكون كان كثير التمركز على شخصه وعائلته. فقد جعل نفسه وعائلته مقياساً في الحب والبغض. فالذين يحبون عائلته ويلتجئون إليها قوم خيرون. والذين لهم فيها رأي أو مستقلون عنها قوم لا خير فيهم. أما علمه هو فلا نزاع فيه، فهو يتحدث عن الذين عارضوه ثم جثوا أمامه مذعنين، وعمن استفتوه وطلبوا دروسه واعترفوا بفضله، وعمن تحدثوا عنه بالخير ولو مع بعد الدار. وقد اتهم أحمد المقري بالنفاق والمراوغة عندما لم يجب الإجابة الصريحة وأحس منه أنه يعرِّض به في أحد أجوبته، فرد عليه (الفكون) رداً قاسياً، يبدو أن المقري نفسه لم يطّلع عليه، وقد يكون توفي قبل ذلك. والغريب أن الفكون لجأ إلى أسلوب المقري نفسه أيضاً في نزاعه معه فكَالَ له الصاعَ صاعين حتى لا يظن به الناس العجز عن مجاراته، وتطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ فهو يرى أن القدرة على المبارزة ومقارعة الحجة بالحجة، ولو بنفس الأسلوب الذي استنكره، نعمة من النعم التي يجب التحدث بها. وهذا الموقف من الزهو والشفوف نجده أيضاً قد اتبعه مع السوسي وابن محجوبة، الخ. أما الذين رضي عنهم فيصفهم بالاعتراف له، والمحبة فيه أو في عائلته، ونحو ذلك.

ورغم ما يظهر من العقلانية عند الفكون، فإننا نجده لا يرفض التصوف ولا يعترض على الكرامات والحكايات الخفيفة التي قد لا تدل على اتباع الشرع. إن منشور الهداية مليء أيضاً بأخبار الأولياء والمتصوفة الذين يرى فيهم الفكون البركة والصلاح. وفيه أخبار عن منامات رآها هو أو رآها من يصدقه فيها، وهو يبني على تلك الرؤى أحكاماً ونتائج قد لا تكون مقبولة منه، وهو الداعية إلى نبذ البدع والتمسك بتعاليم الدين واتباع السنة. ولا نريد أن نذكر من ذلك الكثير. فقد صدّق ما روته له جدته عن كرامة تراها لجده، وصدق أيضاً من قال له أنه رأى في المنام أن اسم الرسول ﷺ في الجنة هو عبد الكريم، ولم يعلق على استخدام عبد الله بن غرارة الجن والروحانيات. ولعل رأيه في خوارق العادات ومعيار الشرع في ذلك جدير بالذكر هنا لأنه يلخص موقفه من هذه القضية (ص 145) فهو يقول: «والطريق الحق والقسطاس المستقيم في كل مَن أُشير إليه بإشارة الولاية أو ظهرت على يديه الخوارق، أن تعتبره بمعيار الشرع: فمن رأيته على الجادة قولاً وفعلاً واعتقاداً، عارفاً بربه وبما جاء عنه على لسان نبيه ﷺ، مُجَانِباً للحرام وتناوله، تاركاً للشبهات محافظاً على دينه... مباعداً للصوص ومخالطتهم... فهذا إذا ظهرت عليه لوامح الخوارق... فيعتقد في صاحب ذلك، وأما من خالف هذه الأوصاف... فالزندقة أقرب إليه من الإسلام...»[1].

ب ـ الكتاب (منشور الهداية):

من عدة دلائل نعرف أن الفكون قد ألّف (منشور الهداية) على فترات، في شكل مذكرات. ومهما كان الأمر فإنه قد انتهى منه بعد سنة 1045 (1635) وهي السنة التي توفي فيها والده، إذ ذكر أن والده توفي بالمويلح أثناء منصرفه من الحج. ثم أنه ألّف كتاباً آخر في علم الصرف هو (فتح اللطيف) سنة 1048، وذكر فيه أنه ألّف (منشور الهداية)، وأن هذا الكتاب قد جلب إليه نقمة البعض ورمقته العيون بالبغض من أجله. ومن هذين التاريخين نعرف أن الفكون قد انتهى من هذا الكتاب بين 1045 و 1048. وما دام لم يذكر فيه الأحداث الخطيرة التي عرفتها الجزائر، خصوصاً

(1) (منشور الهداية)، ص 145.

قسنطينة والزيبان سنة 1047 فإننا نرجح أن يكون قد انتهى منه حوالي سنة 1046.

ومن الدلائل على أنه جعله نوعاً من المذكرات وأنه كتبه على فترات ما نجده فيه من التكرار والاستطراد والإشارات إلى تواريخ متقادمة وأحياناً متباعدة. أما التكرار والاستطراد فيلاحظه القارىء بسهولة من تناوله مواضيع متداخلة في الموضوع الواحد، ثم الانقطاع ثم العودة مستعملاً تعبير «ولنرجع» إلى ما نحن بصدده، ونحو ذلك، ولذلك فإن الشخص الواحد يتحدث عنه في أماكن شتى من الكتاب حسبما تقتضي المناسبة، مثال ذلك ترجمة الشيخ علي بن حمود. كما أنه يذكر ثورات وفتناً وأحداثاً وقعت في أزمنة متفرقة وأحياناً يذكر شخصاً مرفوقاً بعبارة «حفظه الله» وبعد حين يذكر إلى جانب اسمه عبارة «رحمه الله». وقد يطيل في الحديث عن شخص ويصفه بشتى الأوصاف على أنه حي يرزق وأنه متول لوظائف، وأنه على خلاف شديد معه، ثم بعد ذلك يخبر عنه أنه قد توفي وانتهى أمره.

وقد حاولنا أن نجد تاريخ البداية لتأليف الكتاب، فلم نستطع أن نتوصل إلى تاريخ محدد. ويبدو لنا من كل التحريات أن الفكون قد أخذ في تسجيل مذكراته خلال العشرينات من القرن الحادي عشر (العشرية الثانية من القرن السادس عشر). والدليل على ذلك أنه أرّخ لمرض خطير حلّ به وألزمه الفراش سنة 1025 (1616). وبعد أن ذكر أن المرض دام معه ثلاث سنوات لا ينام معه إلا سِنَةً، قال إنه خلال سنة 1028 - 1029 أخذ يخف عنه تدريجياً معبراً عن ذلك بألفاظ تدل على استمرارية المرض زمن الكتابة قائلاً: «بقدر ما أتحمل... وأرجو من الله الشفاء منه كله». ومن جهة أخرى أشار إلى زيارة السيد المولى علي لقسنطينة قادماً ـ كما قال ـ من السلطنة الأحمدية. ولما رجعنا إلى ولاية السلطان أحمد العثماني وجدناها تقع بين 1013 - 1027 (1604 - 1617)، وبذلك تكون الزيارة المذكورة قد حدثت خلال هذه المدة، ولكننا لا نعرف السنة بالضبط.

ثم إن الفكون قد استعار من مراسلته مع أحمد المقري أبياتاً ضمنها (منشور الهداية). والمراسلة وقعت بينهما سنة 1038. والمعروف أن أحمد المقري توفي سنة 1041. وأخيراً نذكر أن الفكون قد تحدّث عن زيارة الشيخ إبراهيم الفلاري

التونسي لقسنطينة دون تحديد زمن لها، ولكن أشار إلى أنها وقعت أثناء صغره هو عندما لم يكد يختم القرآن حفظاً، وقد قدّرنا أن ذلك كان حوالي سنة 1002 أي عندما كان عمره حوالي أربع عشرة سنة. غير أنه يستعمل عبارة تدل على أن الفلاري كان ذا صيت وسمعة كبيرة في تونس وقت كتابة الكتاب، والمعروف أن الفلاري قد توفي سنة 1039، فالفكون كان يتحدث إذن عن الفلاري قبل هذا التاريخ بفترة ربما تكون طويلة.

ولعل عبارة الفكون في كتابه تساعد على الفهم الذي ذهبنا إليه. فهو يسمي (منشور الهداية) أحياناً تأليفاً، وأحياناً تقييداً، وأحياناً ديواناً. وحياة الناس الذين تعرّض لهم يسميها تارة ترجمة وتارة فهرسة وتارة سيرة. ثم إنه لا يلتزم بطريقة معينة في تراجمه. فبالإضافة إلى الاستطراد الذي أشرنا إليه، فإنه كان يطيل ترجمة البعض حتى تتجاوز الترجمة الواحدة عدة صفحات، وأحياناً يكتفي ببضعة أسطر في الصفحة الواحدة. وقد يناقش قضية كلامية أو صوفية طارحاً الأسئلة ومجيباً عنها دون أن يكون في ذلك علاقة بالترجمة التي يتناولها. وكثير من التراجم التي تعرّض إليها تشمل جيلين وأحياناً ثلاثة. فهو يذكر فلاناً وبعد انقطاع بتراجم أخرى يذكر ابنه، وبعد انقطاع آخر يذكر حفيده، وهكذا الأمر مثلاً بالنسبة لعائلات بأكملها: الغربي، ابن باديس، العطار، نعمون، الخ. فالكتاب من هذه الناحية يعطي صورة عن توارث العلم أو التصوف في الأسرة الواحدة. وليس ذلك مقصوراً على قسنطينة ولكن بالنسبة للأقاليم والأرياف الأخرى أيضاً.

إن الكتاب يحتوي على معلومات هامة حول الحياة الاجتماعية في عاصمة الإقليم (قسنطينة): علاقات العائلات بعضها ببعض، وعلاقة هذه العائلات بالسلطة المحلية والوطنية، والمناصب المفتوحة أمام العلماء، والوظائف المخزنية ونحوها. وهو بهذا الصدد يذكر الفتن التي شهدتها المدينة وامتحانات السلطة للعلماء وأرباب الوظائف. ويعلن المؤلف ثورته على من يسميهم «الحضر» لنفاقهم وتنافسهم وجهلهم واعتمادهم على الشرف وحده، وغير ذلك مما يراه نوعاً من الأخلاقيات المنحطة. والكتاب أيضاً متوازن في المعلومات بالنسبة للأرياف. ففيه إشارات إلى ثورات في الأوراس وجهات نقاوس، وإلى من يسميهم الحرابة والمتلصصة في جهات سطيف

وبجاية وعنابة وزواوة ونواحي الغرب. وقد ذكر من ذلك بعض القبائل والأعراش مثل: غمريان، وريغة، والعبابسة، وأولاد عيسى، وجندل، وخمير، والسبعة، والعلمة، وأورار الخ. وشملت هذه المعلومات كذلك حياة الدراويش (الفقراء) وأدعياء التصوف، والمشعوذين وتنافسهم وتحاربهم، وتحالفهم مع قادة تلك القبائل والأعراش لتبادل المصالح. وفي ذلك إشارات هامة للصلات بين المدينة والريف، والأولياء والنساء، وشيوع العقائد المنحرفة. وفي الكتاب حديث عن بعض علماء المغرب وعلماء تونس وعلماء المشرق في الجزائر، طلباً للجاه والوظيف، أو سعياً وراء الصلح بين البلدين، أو لأغراض سياسية أخرى غير مرئية. وقد أكثر الفكون من الأخذ عن أحمد زروق، وعبد الرحمٰن الأخضري، بالإضافة إلى اعتماده في عدة مواضيع على الطرطوشي، والغزالي، وابن العربي، الخ.

وقد وضع الفكون خطة واضحة لكتابه، ولكنه ـ كما لاحظنا ـ لم يلتزم بها حرفياً لوجود الاستطراد والتكرار. فقد قسمه إلى مقدمة، وثلاثة فصول وخاتمة. فجعل الفصل الأول في العلماء والصلحاء الذين لقيهم أو سمع عنهم من الثقاة وكانوا في نظره من المقتدى بهم. أما الفصل الثاني فقد خصصه للمتشبهين بالعلماء، وأما الثالث فقد تحدث فيه عن المبتدعة الذين أطال في الحديث عنهم. ولم تكن الخاتمة عادية، بل كانت عبارة عن فصل رابع تحدث فيه عمن يسميهم بإخوان العصر، أي أولئك الذين عايشهم وعاصرهم من العلماء والصلحاء. وعنوان الكتاب من وضع المؤلف نفسه إذ ذكره بنفسه في المقدمة بقوله: «وسميته منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية»، كما أشار إليه أيضاً في كتابه (فتح اللطيف) بنفس العنوان.

* * *

ج ـ المخطوط:

يقع مخطوط (منشور الهداية) في 294صفحة. مقاس: 14,5 في 7,4. وهو مكتوب بخط جيد عموماً. وهو مرقم ترقيماً متسلسلاً إلّا عند الصفحات التي سنذكرها. وأرقام الصفحات مكتوبة بالأرقام الهندية[1]. والنسخة التي اطلعنا عليها

(1) لكن في نسخة الشيخ عبد المجيد حبة يظهر ترقيمان: عربي وهندي، وبينهما اختلاف مثلاً 164 بالهندي تقابلها ص 166 بالعربي.

واستعملناها بكثرة هي نسخة مصورة كانت في حوزة الشيخ المهدي البوعبدلي. وهذه النسخة تنقصها بعض الصفحات أكملها الشيخ البوعبدلي بخط يده في ظهر الصفحات المصورة، والصفحات المكتوبة بخطه هي: 39، 158، 159، 164، 165. بالإضافة إلى صفحة العنوان. أما الصفحات البيضاء أو المحذوفة فهي مفصّلة كالتالي:

صفحات بيضاء غير مرقمة	صفحات بيضاء مرقمة وموجودة	صفحات بيضاء مرقمة ولكن محذوفة
بين صفحات	صفحة 206	بين صفحات
27 - 26	250	205 - 203
202 - 201	272	249 - 248
262 - 261	إضافة إلى ص 202 بها	271 - 270
263 - 262	خمسة أسطر فقط	

وأثناء بحثنا عن نسخة أخرى من مخطوط (منشور الهداية) اطلعنا على نسخة الشيخ عبد المجيد بن حبة. وعند المقارنة بينها وبين نسخة الشيخ البوعبدلي وجدتهما سواء في كل شيء حتى في النقص والبياض والخط والترتيب والترقيم، ما عدا ما يأتي: إن الصفحات التي كتبها الشيخ البوعبدلي بيده موجودة في نسخة الشيخ حبة بنفس الخط الذي كتبت به المخطوطة كلها. ولذلك صورت أنا تلك الصفحات من نسخة الشيخ حبة، وهي: 39، 158، 159، 164، 165. كما صورت منها أيضاً صفحة العنوان، لأن الشيخ البوعبدلي اكتفى بنقلها بخطه. وقد لاحظت أن هناك بعض الصفحات في نسخة الشيخ حبة موجودة في غير مكانها، وهي: 109، 110، 111، 112، 117، 118، 119، 120، كما فيها صفحات مكررة وهي: 103، 104، 105، 106، 107، 108.

وبعد أن سألت عن أصل نسختي الشيخين (البوعبدلي وحبة) تبين أنه واحد، وهو نسخة المرحوم أمير، الذي كان مديراً للشؤون الدينية بباتنة. فكل من الشيخين المذكورين صوّر نسخته عن نسخة المرحوم أمير. وقد أكّد لي الشيخ حبة عن طريق

الأخ السائح، أن نسخته مصورة عن «الأصل»، الذي يملكه الشيخ أمير، وأن نسخة الشيخ البوعبدلي مصورة أيضاً عن نفس ذلك «الأصل». ولكن يبقى سؤال يدور وهو من أين ومتى نسخت نسخة الشيخ أمير؟ ومن نسخها؟

ومما يقوي ذلك التساؤل عندي هو تعدد نسخ الكتاب، كما سنلاحظ، وكون نسخة الشيخ أمير (التي هي أصل نسختي الشيخين البوعبدلي وحبة) حديثة العهد، فيما يبدو، وبدون تاريخ ولا ناسخ.

ومن تتبعنا لتاريخ (منشور الهداية) في المصادر المختلفة، يمكننا أن نقول إنه كان كتاباً متداولاً بين الناس ولكنه لم يطبع. ومما يجعله متداولاً تعرضه، كما ذكرنا، لعائلات عريقة، وأحداث هامة، وحالات غريبة من البدع والخرافات، ونحو ذلك. وقد ذكر مؤلفه نفسه أنه أصبح معروفاً في حياته حتى إن خصومه رمقوه بسببه بغضاً. وتحدث عنه بعض تلاميذه كالعياشي والثعالبي دون ذكر ما يفيد الاطلاع عليه. وكانت أسرة الفكون أولى الناس بتملك نسخة أو نسخ من الكتاب، خصوصاً وقد بقيت فيهم مشيخة الإسلام إلى بداية العهد الفرنسي وكانت عندهم مكتبة عظيمة.

ويمكننا الآن ذكر مَنْ نقل عن (منشور الهداية) أو اطلع عليه أو امتلكه فيما يلي:

1 ـ أشار الكاتب الفرنسي (فايسات) في تاريخ بايات قسنطينة الذي ألّفه في القرن الماضي، أنه علم بالكتاب، وعرف أهميته لموضوعه، فحاول الحصول عليه، وبذل جهداً مضنياً، ولكنه لم يستطع الاطلاع، كما قال، إلاّ على بضع أوراق منه، فاكتفى بالتأسف والتحسر[1].

2 ـ كذلك أشار إليه الكاتب الفرنسي الآخر (شيربونو) الذي كتب أيضاً عن قسنطينة في العهد العثماني، وسماه (سنان الهداية في حال من ادعى الولاية). ولا نعرف ما إذا كان قد اطلع عليه واستفاد منه أو سمع به فقط. ذلك أن عبارته في ذلك

(1) فايسات (روكاي) سنة 1868، ص 263.

غير واضحة، وقد اكتفى بالقول بأن الكتاب يتناول «طرق الصلاح أو تاريخ المرابطين في شمال إفريقية»[1].

3 - نقل أبو القاسم الحفناوي عن (منشور الهداية) في كتابه (تعريف الخلف برجال السلف) الذي طبع في الجزائر 1906، 1907. خصوصاً التراجم التالية: بركات القسنطيني، أحمد المسبّح، عبد اللطيف المسبّح. ولكن الحفناوي أحال في ذلك أحياناً على خط الشيخ حمدان الونيسي (تعريف الخلف 83/2، 108، 232).

4 - وهكذا نلاحظ أن مؤلف (تعريف الخلف) تلقى معلومات لتراجمه من الشيخ حمدان الونيسي، فهل كان الونيسي يملك نسخة من (منشور الهداية)؟ لقد أكّد لنا ذلك الشيخ عبد الرحمٰن الجيلالي، إذ قال إن الحفناوي لم يكن يملك نسخة من (منشور الهداية) ولكنه تلقى منه معلومات قدمها له الشيخ حمدان الونيسي.

5 - وقد شككت في أن تكون مكتبة ومعهد الزاوية العثمانية بطولقة تحتوي على نسخة من (منشور الهداية)، فبادرت بالكتابة إلى الشيخ عبد القادر العثماني أسأله النجدة فأجابني برسالة تاريخها 8أبريل 1986 قائلاً: «إني كنت أبحث عنه فيما في المكتبة من مجاميع... ولا زلت أبحث، هذا مع تأكدي مسبقاً أنه لم يكن مستقلاً بسفر. ولذا توجهت إلى المجاميع... أرسلت إليك هذه الرسالة السلبية مع أسفي الشديد لعدم تمكني من تلبية رغبتك الغالية النافعة...».

6 - في حوالي نفس الشهر (أبريل 1986) حادثت الدكتور عمار طالبي، مدير الجامعة الإسلامية بقسنطينة في موضوع كتاب (منشور الهداية) وأبديت له رغبتي في الحصول على نسخة منه لأقارن بها وأصحح ما عندي، واتفقنا على أن يتصل هو بالعائلة (عائلة الفكون) بقسنطينة لعله يجد لديها نسخة منه، وأبديت له استعدادي للقدوم بنفسي إلى قسنطينة والمقارنة في عين المكان، إذا كانت المساعي إيجابية. وبعد وعد أطمعني وجعلني أؤجل العمل في نسختي شهوراً، تبين أن ذلك الوعد كان مبنياً على سراب. فكان من رأي الدكتور طالبي عدم انتظار نسخة تعتبر في حكم المغيبات.

(1) انظر (المجلة الآسيوية) سنة 1858، ص 597 - 599.

7 ـ بالإضافة إلى أولئك سألت وكاتبت عدداً آخر ممن توسمت فيهم العناية بالمخطوطات فلم أحظ عندهم بطائل، وأخص بالذكر الشيخ محمد الشاذلي النيفر (تونس) والشيخ عمر البوعناني، والأستاذ علي أمقران السحنوني.

وهكذا كانت حصيلتي من كل الجهد الذي بذلته نسخة مصورة من (منشور الهداية) هي نسخة الشيخ البوعبدلي ونسخة أخرى مصورة أيضاً هي نسخة الشيخ حبة. فجعلت الأولى أساسية وأضفت إليها الصفحات التي وجدتها في الأولى بخط الشيخ البوعبدلي نفسه، كما سبق الذكر. وقد وافقني الشيخ البوعبدلي على تحقيق نسخته ونشرها، وذلك في رسالة بعثها إلي بتاريخ 7 مارس 1985 تحت رقم 1210 من بطيوة ومما جاء فيها «.. هذا وإنني ممنون لكم حيث عزمتم على تحقيق ونشر (منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية) لعبد الكريم الفكون الذي يعد في طليعة نوادر ذخائر المكتبة العربية، وبودي أن تكونوا قدوة حسنة لبقية كتاب بلادنا حتى يعطوا الأولوية والأسبقية لما تبقى من تراثنا المهدد بالضياع، بشرط النزاهة وأداء الأمانة. وإنني مستعد لإعانتكم في مهمتكم بقدر المستطاع...».

أما الشيخ عبد المجيد بن حبة فقد أرسل إلي نسخته بالبريد بتاريخ 1985/4/10، من بسكرة، بواسطة صديق الإثنين الأستاذ أحمد بن السائح، وأباح إلي الاستفادة منها. وتصويرها إذا شئت، وقد قمت ـ كما ذكرت ـ بإجراء المقارنة مع النسخة الأخرى وتصوير الناقص منها.

بقي علي أن أذكر عن حالة المخطوط نقاطاً أخرى لا بد منها:

1 ـ أن يداً أخرى قد مرت على متن المخطوط (قبل تصويره) فصححت بعض الكلمات التي فاتت الناسخ في الهامش ووضعت إلى جانب الكلمات غير المفهومة حرف (ظ) الذي فسرناه بكلمة: انظر.

2 ـ أن الناسخ كان يكتب النسخة عن طريق الإملاء. وقد فهمنا نحن ذلك من وجود كلمات وحروف كتبت سماعاً لا مشاهدةً، مثل (أَهْوَالَه) التي كتبت (أَهْوَى لَهُ)، وزيادة بدل زيارة، المودع بدل الموضع..

3 ـ رغم وحدة الخط فإن الكلمة الواحدة كتبت متغايرة، مثل: الرشا والرشى،

الحظوة والحضوة، الحظوظ والحضوض، وأتى وأتا، الأعلى والأعلا.

4 ـ تغلب اللهجة المحلية على قلم الناسخ: فالذال كثيراً ما تكتب دالاً: الانذال تصبح الاندال، والحذق، الحدق. ولا ندري أي تأثير جعل الناسخ كثيراً ما يجعل من الشين سيناً، مثل: استد بدل اشتد (وهذا موجود بكثرة).

5 ـ أن المؤلف فيما يبدو (وليس الناسخ) قد سها أحياناً، فذكر مثلاً أن الشيخ التواتي قد غادر قسنطينة فاراً منها إلى باجة حوالي 1023، ثم ذكر في موضع آخر أنه توفي سنة 1031 بالطاعون الذي حدث تلك السنة، ثم ذكر في موضع ثالث أنه قرأ عليه سنة 1031 (ص 32).

6 ـ أن في الصفحات المفقودة معلومات أشار المؤلف إلى بعضها فيما هو موجود، مثل إشارته إلى أنه تحدث عن علي بن مبارك شيخ القليعة (قرب الجزائر) لكن لا وجود لذلك في المتن الموجود (ص 213).

د ـ طريقة التحقيق:

ليس غريباً أن يقول أحد المحققين إنه قرأ المخطوط الذي يحققه عدة مرات، قد تصل إلى العشر. ذلك أنني شخصياً قرأت (منشور الهداية) ربما أكثر من ذلك. فقد قرأته يوم أن كنت أحضر مشاريع ثقافية أخرى فأفادني هو كثيراً، ووصل بي الأمر إلى تلخيصه في بطاقات كنت أحملها معي أنّى ذهبت للبحث. ولم أكن إذ ذاك قد فكرت في تحقيقه. ثم اقتنعت بفائدة تحقيقه فعزمت على ذلك رغم أنني لم أكن من المحققين بالمعنى الفني للكلمة، وإنما عزَّ علي مخطوط كهذا على جانب كبير من الأهمية يظل طيلة أربعة قرون حبيس المكتبات الخاصة.

قرأته إذن عدة مرات مستفيداً ومحققاً ومراجعاً لعمل الراقن ومقارناً ومصححاً، قرأته وحدي وقرأته مع غيري، خصوصاً مع الشيخ محمد الطاهر التليلي الذي قرأته معه من أوله إلى آخره للدراية والاستفادة، كما قرأته مرة أخرى مع زوجتي مقابلاً له على نسخة الراقن. ومن خلال تلك القراءات الكثيرة استوعبت مادته وعلقت عليه بما وسعني الجهد والمعرفة، ورتبت محتواه بما يساعد على فهمه. وهكذا خرجت من كل ذلك بما يلي:

1 ـ احتفظت بالعناوين التي كانت جانبية ووضعتها بين معقوفتين وسط المتن والصفحة، وحافظت على ما فيها من تلقيب ودعاء الخ. وقد أرفقنا كل عنوان برقم متسلسل.

2 ـ استخرجت محتويات الكتاب وجعلتها في شكل عناوين فرعية، لأن المؤلف، كما لاحظنا، يذكر أخباراً استطرادية ضمن الخبر الرئيسي الواحد، فوجب فصل كل مادة على حدة، كلما أمكن ذلك.

3 ـ بلغت التراجم المذكورة في المخطوط، كما هو، خمساً وسبعين ترجمة. ولكن عندما تضاف إليها التراجم الموجودة ضمنياً أو التي تذكر استطراداً فإن عدد التراجم قد يصل إلى التسعين أو يزيد.

4 ـ جميع الهوامش مِنْ عملنا، ما عدا المشار إليه في موضعه. ولم يكن في المخطوط أصلاً أي هامش، ما عدا كلمات يُنبه عليها أحياناً في يمين أو يسار الورقة.

5 ـ إذا تدخلنا في النص بشكل من الأشكال ننبه على ذلك بعبارة: كذا في الأصل، أو كانت في الأصل كذا، أو ننبه على الزيادة بوضعها داخل قوسين، ونحو ذلك من الإشارات.

6 ـ في أحيان كثيرة ترك المؤلف (أو الناسخ) بياضاً بعد كلمة (وتوفي...) فأكملنا التاريخ إذا علمناه من مصادر أخرى، وتركناه بياضاً عندما لم نعلم، ومثل ذلك أماكن أخرى في المتن أبقاها الكاتب بياضاً.

7 ـ قسمنا المتن إلى فقرات يقتضيها المعنى، ونبهنا على الانتقال من صفحة إلى أخرى في أصل المخطوط وذلك بإثبات رقم الصفحة مرفقاً بالخط المائل هكذا (/).

8 ـ وضعنا للكتاب الفهارس الضرورية، كما زودناه ببعض مصادر التحقيق.

* * *

إننا نطمح إلى العثور على نسخة أخرى من (منشور الهداية). وعندئذ يمكننا المقارنة بين ما حققناه وما لم نطلع عليه. وإنَّ شُحَّ بعض الناس بما عندهم من

مخطوطات قد يؤخر نشر مخطوط ما، ولكنه لا يستطيع أن يمنعه من الظهور إلى الأبد. ونعتقد أن من أسباب التستر على (منشور الهداية) كونه يعبر عن ثورة عارمة ضد البدع والتدجيل بالدين، وكونه يمس بعض العائلات التي ترى نفسها فوق النقد.

وإننا نرجو أن نكون، بإقدامنا على نشره، رغم كل المثبطات، قد أدينا خدمة للمؤلف الذي أعلن أنه أراد به النصح العام للمسلمين، وأنه به أصبح مجاهداً من المجاهدين، لا ينتظر غير ثواب الله في الآخرة. كما نرجو أن نكون قد أدينا بنشره واجباً نحو الجيل الحاضر والمستقبل المتعطش إلى معرفة تراثه وأصالته. وسيعرف القراء أن عبد الكريم الفكون، رغم ملاحظاتنا عنه، كان سابقاً لعصره في الثورة على تردي أحوال المسلمين حكاماً ومحكومين، علماء ومتصوفة، مما أدّى في نظره إلى الانحراف بالدين عن مساره الحقيقي، كما أدى إلى التخلف الذي أصاب المجتمع الإسلامي. ولو وجد الفكون حكاماً مخلصين، وعلماء متنورين، وشعباً واعياً، لأحدث حركة اجتماعية وسياسية وعقلية ذات أبعاد، ولسبقت حركتُه ما عرفه العالم الإسلامي من حركات إصلاحية وسلفية في آخر القرن الثامن عشر وآخر القرن التاسع عشر الميلاديين.

وقد يدل نشر كتابه اليوم، بعد حوالي أربعة قرون من تحريره، أن دعوة الفكون لم تكن صيحة في واد، ولا نفخة في رماد. ذلك أن الفكرة الصالحة تعبق وتنتشر ولو بعد سنين، والبذرة الطيبة تخصب وتنبت ولو بعد حين.

أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر

ابن عكنون (الجزائر)
3 يناير 1987.

منشور الهداية في كشف حال من ادعى
العلم والولاية تأليف العبد
الفقير إلى الله تعالى الشيخ الأوحد
الصالح العالم النحوي سيدي
عبد الكريم الفكون غفر
الله له ورحمه ونفعنا
ببركاته وبركات أمثاله
آمين آمين آمين

صفحة العنوان من كتاب (منشور الهداية)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الحمد لله الذي فتح بصائر أوليائه بأنوار أسرار آياته
ونشر عليهم ألوية القبول لما سبقت لهم سابقة الاصطفاء
وأقامهم بين عباده لا يدع من جلب عليه الشيطان
بخيل الغواية وكلهم متفرد بمرتبات الحسن
والديانة مع العجز عن تصور تمام مقاماته وأبلغ في كتبه
[illegible] علمية كيف بمن جاء عنه جلت قدرته بل
به من [illegible] [illegible] سبقت [illegible]
ونشر لهم الكهف [illegible] بشمائل [illegible]
أهل الحقيقة والدراية و[illegible] [illegible]
[illegible] من جعلهم شمسا [illegible] بنوره أهل
[illegible] والعلانية [illegible] سبيل [illegible]
[illegible] ومختار ومجتبى [illegible] أعينا [illegible]
وقلوبا [illegible] أن [illegible] العلية و[illegible]
[illegible] وعلى آله وأصحابه الذين [illegible]

ومنوا

الورقة الأولى من كتاب (منشور الهداية)

وقد بقي بتمدن بلادهم والبربر فبقوا الظاهرين

وفي البلاجين وتابع التابعين لهم باحسان الى يوم

الدين مع الانساب فلما رايت الزمان باهله تغير

وسفاين النجاة من امواج البدع تتلاطم وسحائب

الجهل قد تكاثفت واسواق العلم قد كسدت وبضائع

الجاهل قد نفقت والعالم في منزلة يرعى من اجل

خسيسة وطلب امثال هذه بغية فراصح واعلا

الى زرقة راسه كالحية وروائح التسلب

والنقد من المنزل عليه باحيرة الا انهم ابتغ الكتاب

الطالب متكبر متكرر من نيابة كتاب

وعجائب كانت فرصة للشباب الدرعية

فمن صار الى الامة بالمهلة حيث مسمية فها

دواوين تلاشت امامها منذ زمان واعطارها

لتبسوا بذلك امام اهل العصر انهم من اهلها

فلما افتروا الى ان يجاهلهم ولا خافوا جهالة الموت

فلما ان نهاهم من الحلم من سبقت رحمته

غضبه باستبرار وفاتهم واستهونوا وما

استبحر له كل من دار والمولى يمهل لهم رجح اسباب

المعنى كيف ما اجتروا على شرار اخذتهم عزابه وابدتهم

وطغيانهم وانحسروا ابدانهم نصيبا واهل اوليتهم

الصفحة الأخيرة من كتاب (منشور الهداية)

الحمد لله وصلى الله
(على محمد وآله وسلّم تسليماً)[1]

منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية

تأليف
العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الولي
الصالح العالم النحرير سيدي عبد الكريم الفكون

غفر الله له ورحمه ونفعنا ببركاته وبركات
أمثاله آمين آمين آمين[2]

(1) هذه هي الصفحة الأولى من المخطوطة، وما بين القوسين زيادة منّا.

(2) في أسفل الصفحة كتب بخط دقيق فيه محو ولا يكاد يقرأ في الصورة. وقد استطعنا استخراج المعلومات التالية منه: «الحمد لله (؟) في نوبة... الورى لربه محمد بن عبد (؟) بن بدر الدين بن محمد بن عبد الكريم مؤلفه بن محمد بن عبد الكريم بن يحيى بن محمد الفكون، كان الله له في الحركات والسكون، آمين».

مقـدّمة الكتاب

/ بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وسلّم / 1

الحمد للّه الذي فتح بصائر أوليائه بأنوار الهداية، ونشر عليهم ألوية القبول لما سبقت لهم سابقة العناية، وأقامهم بين عباده لردع من جَلَب عليه الشيطان بخَيْل الغِواية، وكلفهم قمعه بمُرْهفات الألْسُن والأسنَّة[1] مع العجز عن سواهما ممّا هو أبلغ في كَبْتِه وقطع دابره غاية، كي يرجع على عقبه ممّا تسربل به من مسح المعاصي لا إلى نهاية، وتلك سيرته سبحانه وتعالى مَا أَظْهَر بِدْعياً إلا طمس وجوده بشهاب حُجَج أهل المعرفة والدراية، وأطفأ حرارة أنفاسه بريـاح براهين مَنْ جعلهم شمساً يستضيءُ[2] بنورها أهل الغباوة والعماية.

والصلاة على سيدنا محمد مصطفاه ومختاره ومجتباه، هَدَى به أعيناً عمياء وقلوباً غُلْفاً وآذاناً صمّاء، فأوضح الطريقة ونصح الخليقة، وعلى آله وأصحابه الذين انتهجوا منهجه/ وقفوا محجّته، فأشادوا الدين وقمعوا الضالين، وعلى التابعين وتابع / 2 التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

دوافع تأليف الكتاب:

أمّا بعد، فلمّا رأيت الزمان بأهله تعثّر، وسفائنَ النجاة[3] من أمواج البدع تتكسر، وسحائبَ الجهل قد أظلّتْ، وأسواقَ العلم قد كسدتْ، فصار الجاهل

---

(1) تقرأ في الأصل كأنها (الأبنة).

(2) كانت (يستضاء) وصححت في الهامش (يستضيء).

(3) في الأصل (النجات).

رئيساً، والعالمُ في منزلة يُدْعى مِن أجلها خسيساً، وصاحبُ أهل الطريقة[1] قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروايح السلْب والطرد من المولى عليه فائحة، إلّا أنهم ـ أعني الطائفتين[2] ـ تمسكوا من دنياهم بمناصب شرعية، وحالات كانت قِدْماً للسادة الصوفية، فموّهوا على العامة بأسماء ذهبت مسمّياتها، وأوصاف تلاشت أهلها منذ زمان وأعصارها، لبّسوا بانتحالهم لها على أهل العصر أنهم من أهلها، فما راقبوا المولى أن يعاجلهم، ولا خافوا فجأة الموت فما بَعْدَها أن تصادمهم، لولا حِلْم مَنْ سبقت رحمتُه غضبَه، فاغتروا وما نظروا، واستهونوا وما استبصروا. كل ذلك والمولى يمهل لهم، ويجري أسباب المُنَى كيف ما أحبّوا على نحو إرادتهم، فزادوا به تمرداً وطغياناً، وأظهروا به أنّ لهم نصيباً وافراً، ولعمري/ لقد نالوا به حرماناً وخسراناً. / 3

وربما صارت الطائفة البِدْعية مَقْطَعاً للحقوق، وقَسَماً يُقْسَم بهم في البِرّ والعقوق، والطائفة الأخرى[3] سطّرت أناملهم في قراطيس السجلات ما يُوهم مَنْ لم يرهم ممّن يأتي في غابر الزمن أنهم من حزب العلماء بل ومن مشايخهم الأعلين.

كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء أن يُنْسَبَ جماعةُ الجهلة المعاندين الضالين المضلين، لهم أو يذكروا في معرضهم، وغيرةً على جناب السادة الأولياء الصوفية أن تكون أراذل العامّة وأنذال[4] الحمقى المغرورين أن يَتَسَمَّوا بأسمائهم أو يظن بهم اللحوق بآثارهم، ولم آل في التنفير من كلتا الطائفتين والتحذير منهم في كل زمان وأوان، وبين كل صالح من الإخوان، إلى أن أحسست لسان القول قد انطلق بنسبة ما لا يليق ذكره من أفواههم، فشرح الله صدري في أن أعتكف على تقييد يُبْدي عوارَهم، ويفضح أسرارهم، ويكون وسيلة إلى الله في الدنيا والأخرى، لأني غرت على دائرة الكمال من أهل حضرته، وذببت[5] جهدي باللسان والبنان على أهل صفوته، فلا جرم وإنْ كنتُ متلوثاً بالخطايا والأوزار، وممّن أحمل

---

(1) يقصد بهم أهل التصوف المنحرف.
(2) يعني الجاهلين من العلماء والضالين من المتصوفة.
(3) أي العلماء الجهلاء، أو أدعياء العلم.
(4) في الأصل (أندال)، وكثيراً ما يكتب الناسخ الذال دالاً على طريقة بعض أهل الشرق الجزائري.
(5) في الأصل (دببت).

عدةً من القبائح آناء/ الليل والنهار، أن أرجو[1] من الله المغفرة. / 4

فهذا الجهاد الذي هو أحدُّ من السيف في نحور أعداء الله، وناهيك بهم أعداء، نسخوا شرع سيدنا ومولانا محمد ﷺ، بآرائهم المسطرة بأقلامهم في سجلاتهم، وأحلّوا الرشى[2] بأفعالهم، والتمدح بها والعكوف على طلبها والاعتناء بأخذها في أنديتهم[3]، فهي عندهم من أرفع المكاسب وأسنى المطالب.

والطائفة الأخرى[4] أعلنوا بأنّ سابق الأقدار منوطة بإرادتهم، وتأثيرات الأكوان صادرة عن اختياراتهم، فزادت بهم العامّة شغباً إلى شغبهم، وتشويشاً دخل القلوب فما أعظمه وأصعبه! واتخذت أتباعهم[5] ألقاباً لهم باسم الشيخوخة، والتحذير من أن يغاضوا أو يغتاضوا، فصارت العامّة تجانبهم ولا تحط بساحتهم، وأمّا النكير عليهم فأربابه في قعر حفير وربما زاد في إفصاح[6] أحوالهم والحمل على بثّها وإبدائها، ما أحدثوه من أنّ من مات منهم بنوا عليه وشيّدوا بناءات، وجعلوا عليهم قباباً من العود وألواحاً منقوشة بأسمائهم وما اختاروا لهم من الألقاب التي لا تصلح لهم، وهي من أوصاف سادتنا العلماء العاملين والصلحاء الفاضلين الكاملين، وصيّروا ذلك لغابر الدهر بحيث إنهم لبّسوا على العامّة في الحياة[7]/ وعلى من سيكون بعد الممات. / 5

ترتيب الكتاب:

فعظم الباعث على النصح بهذا التقييد، والفارق لكل ذي رأي سديد، ورتبته على ثلاثة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: في من لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن قَبْل زمنهم ممن نقلت إلينا أحوالهم وصفاتهم تواتراً، أردنا التنبيه عليهم، وذكر ما كانوا

---

(1) في الأصل (أرجوا)، وهكذا في بقية المخطوط، وكذلك مثيلاتها، كيسخوا، ويعفوا الخ.
(2) جمع رشوة.
(3) يعني في اجتماعاتهم، وأحياناً يقصد بالأندية الأماكن، كما سيأتي.
(4) يقصد بهم أدعياء التصوف.
(5) لعله يقصد المريدين.
(6) أي وضوح.
(7) في الأصل (الحيات)، وكذلك في جميع المخطوط.

عليه، وزمانهم، وتواريخ وفاتهم[1].

الفصل الثاني: في المتشبهين بالعلماء، وهم الذين قصدنا بهذا التقييد إيضاح أحوالهم[2].

والفصل الثالث: في المبتدعة الدجاجلة الكذابين على طريق الصوفية المرضية.

والخاتمة: في إخوان العصر[3] وما هم عليه.

وسميته (منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية).

وأرجو[4] من المولى الكريم أن ينفعني به وأن يتقبّل عملي، وأن يكون في ميزان حسناتي في سكرات الموت فما بعدها برزخاً ومحشراً ومواطنهما، إنه جوّاد كريم برّ رحيم.

---

(1) سوف لا يتقيد بذلك، كما سنرى، إذ إن كثيراً من أماكن التواريخ تركت بيضاء.
(2) ركّز المؤلف فعلاً على الفصلين الثاني والثالث.
(3) أي المعاصرين له.
(4) في الأصل (أرجوا).

الفصل الأوّل

في من لقيناه من العلماء والصلحاء

1 - [التعريف بالشيخ أبي حفصٍ عمر الوزان]

الشيخ عمر الوزان:

فلنبدأ من أهله بشيخ الزمان، وياقوتة العصر والأوان، العالم العارف بالله الرباني أبي حفص عمر الوزان[1]، نفعنا الله به وبأمثاله، كان بحراً لا يجارى في العلوم فقهاً وأصولاً ونحواً وحديثاً، وله في طريق القوم[2] اليد الطولى، ويقال إنه دعوة[3] الشيخ الصالح القطب الغوث أبي العباس أحمد زروق[4]. وذلك/ أن الشيخ 6 / المذكور أبا العبّاس، رضي الله عنه، كان متردد السفر من المغرب إلى قسنطينة، ويأتي معه قفل تجار[5]، وكان والد الشيخ أبي حفص بالباب[6] على الخارج

(1) عن عمر الوزان انظر كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي)، الجزء الأول، الطبعة الثانية، الجزائر 1985، ص 387.

(2) يقصد بهم أهل التصوف.

(3) ومن ثمة فهو من أتباعه، كما أن المؤلف متأثر به.

(4) عن أحمد زروق، انظر (البستان) لابن مريم، ص 45 - 50، ولد سنة 846 بفاس وتوفي سنة 899 ناحية مسراته بليبيا.

(5) أي قافلة من التجار.

(6) أي مستخلص ضرائب او مكوس على باب قسنطينة، وهي عادة سنّها الحكام (الأمراء).

والداخل، وكان يحسن إلى الشيخ أبي العباس ويبره ويسقط عنه ما يترتب على دخول الباب من عادة الأمراء، ويضيف[1] الشيخ أبا العباس ويكرمه.

تردد أحمد زروق على قسنطينة:

وكان[2] على هذه الحالة مدة إلى أن قدم في بعض الأيام على عادته، فلم يجد والد أبي حفص بالباب كعادته فسأل عنه فأخبر أنه ولد له ولد اشتغل بوليمته، فاتفق أن مشى الشيخ أبو العباس إلى دار والد أبي حفص وطلب على الولد، أعني سيدي أبا حفص، فكان يقال إن الشيخ الزروق أخذته حالة[3] إلى أن جعل الصبي، أعني أبا حفص على كفّه، وجعل يمشي به من طرف البيت إلى الطرف الآخر، وهو يقول: اللهمّ تقبله مني على أيّ حالة كان، هكذا[4] تنقل هذه الكرامة. وربما نقلت[5] عن الشيخ الوزّان، رضي الله عنه، ما يؤيدها، فكان يقول: أنا دعوة الزروق، رضي الله عنهما ونفعنا بهما وبأمثالهما.

الوزان من التصوف إلى الحديث:

وكان الشيخ أبو حفص الوزّان ممّن تشدّ له الرحال في طلب العلم، وممّن يفتى بأقواله وأفعاله، ويُتحدّث أنّ الشيخ في مبادىء أمره/ كان معنياً بطريق الصوفية والعكوف على قراءة كتب الوعظ. وكان ذات يوم يقرأ على عادته بالجامع الأعظم الأقدم[6] من بلدة قسنطينة بين خزانتَيْ الكتب اللتين بباب البهو من أبواب الجامع المذكور، فخرج عليه شخص فناداه: يا عمر عليك بالأحاديث النبوية تنورك ظاهراً وباطناً! فترك الشيخ ذلك واشتغل بالأحاديث. فكان يقال إنه يحفظ البخاري بأسانيده إلى أن مات ولده، فيقال إنه تكسرت عليه الأسانيد أو بعضها، والله أعلم.

ويقال إن الشخص المذكور الذي خرج للشيخ سيدي عمر هو الخَضِر عليه

---

(1) أي يستضيفه في داره.
(2) يعني الشيخ زروق، ويكتبه المؤلف أحياناً (الزروق).
(3) أي حالة صوفية.
(4) في الأصل (هاكذا).
(5) بصيغة المبني للمجهول، لأن المؤلف لم يلق الشيخ الوزان.
(6) هو الجامع الذي كان المؤلف يقيم بالقرب منه، وتولى هو وأبوه وجده الوظائف فيه، وسيعيد ذكره. وقد بني هذا الجامع سنة 430 هجرية.

السلام، وسمعنا غير مرّة أنه تكرّر رؤياه للخضر عليه السلام، ومن ذلك أنه كان يقرأ على شيخٍ له بأسفل حارة الطبَّالة من المدينة المذكورة (وهي الآن المعروفة بما تحت مسجد سيدي أبي عبد الله الشريف بباب الجابية)، فكان في يوم مطر شديد والشيخ واقف ينتظر خروج شيخه، فخرجت له خادم من دار الشيخ فقالت له: إن الشيخ لا يخرج هذه الساعة، أو كلاماً نحو هذا، فرجع الشيخ فيما يقال متألم الخاطر فتراءى له شخص من إحدى روايغ الحارة فقال له يا عمر:

سيُغْني اللهُ عن بقراتِ زيدٍ ويأتي اللهُ باللبن الغزير

فضاءت شمس/ الشيخ سيدي عمر على الجدرات والأرض وعمّ نورُها الآفاق، رحمه الله ونفع به. 8 /

ومن كراماته، رضي الله عنه، ما يتحدث بها أنه خرج ذات يوم في قيلولة شديدة على باب البلد في غير عادة خروجه، فاتبعه رجل من الطلبة يقفو[1] أثره ولم يعلم به الشيخ، والشيخ، رضي الله عنه[2]، ماش نحو الكدية[3]، فخرج عليه رجل وتكلم معه ملياً ثم انصرف فلحق بالشيخ الرجل الذي يقفو أثره، فسأله عن الرجل الذي كان يحادثه، فقال له الشيخ: أرأيته؟ فقال له: نعم، فقال له: هو القطب[4].

وللشيخ كرامات كثيرة لسنا بصددها وإنما أتينا بما ذكر، تبركاً به، ولعلّ الله أن يفتح علينا بما فتح به عليه وعلى كل أحبابه، وإن أنْسَأ الله الأجل أُفرِدها بتقييد.

وتوفي الشيخ المذكور في سنة خمس وستين وتسعمائة[5]، ودفن بمدرسة ابن آفوناس، وهي التي على يمين المارِّ لباب الوادي من المدينة المذكورة، وقبره يسار الداخل لبيت صلاتها ممّا يلي القبلة في الشباك.

محمد بن آفوناس:

وأمام شباكه شباك الشيخ ابن آفوناس ـ رحمه الله ـ وقبره به وهو أبو عبد الله

(1) في الأصل (يقفوا).
(2) عبارة (الشيخ رضي الله عنه) مكررة في الأصل.
(3) الكدية كانت ضاحية من قسنطينة القديمة، وهي الآن جزء من المدينة. وموقعها مرتفع.
(4) لعله يقصد بالقطب الشيخ أحمد زروق.
(5) 965 هـ / 1557 م. ويقصد بعبارة (لبيت صلاتها) المدرسة المذكورة.

محمد، كان فقيهاً عالماً، صاهر الشيخَ المذكور فزوّجه ابنته، وقبرها بالمدرسة
9 / المذكورة. وكان ذا مال ورباع، وكان مشهوراً في زمنه بالعلم/ والولاية، وكانت له وجاهة عند الأمراء، توفي في حياة[1] الشيخ سيدي عمر[2] ـ رحمه الله ـ وله[3] مع جدي أبي زكرياء يحيى حكاية، ذكرها في حاشيته على المدونة، سنذكرها عند ذكره.

2 ـ [التعريف بالشيخ أبي عبد الله محمد العطار رحمه الله]

محمد العطار:

وممن سمعنا بذكره الشيخ أبو عبد الله محمد العطّار، كان معاصراً للشيخ المذكور[4]، متفنناً عارفاً بالمعقول والمنقول، وكان من مدرسي المدينة المذكورة[5]، المتقنين، وكان ذا مال وتجارة خرج بسببها مرّة لبلد تونس دار الإمارة إذ ذاك[6]، فجلس في حلقة إمام جامعها الأعظم[7] ومفتيها، فجلس في ناحية لا يؤبه به إلى أن وقع بينه وبين طلبته بحث في بعض العقليات، فأجاب الشيخ العطار عن المسألة بتلطف، فالتفت له الشيخ الإمام ورحب به وأكرمه وأتحفه بالجلوس معه في الحلقة، وقال له: مثلك إنما يجلس هنا أو كلاماً هذا معناه، وبرّه غاية المبرّة.

ويحكى أن بعض الأسئلة وردت على الشيخ الوزان فأطال في رد جوابها، وأظنها من المغرب من ناحية فاس أو غيره، فاستعجل ربُّها الجوابَ فردها عليه دون جواب، فأتى بها إلى الشيخ العطار وذكروا أنه واقف بباب الزيت أحد أبواب الجامع الأعظم[8] آخذاً بحلقة بابه فتأمّله، وقال له: هل أريته للشيخ الوزان؟ فقال له السائل: يا سيدي بقي عنده أياماً وردّه. فيقال إنه أجابه عن/ المسألتين ساعتَه وأعطاه إياه، فأراه للشيخ الوزان فأعجبه وأثنى عليه.
10 /

(1) في الأصل (حيات).
(2) يعني عمر الوزان.
(3) أي لابن آفوناس.
(4) كلمة (المذكور) قد تعني عمر الوزان، وقد تعني ابن آفوناس، والأول أقرب بدليل ما يأتي.
(5) يعني قسنطينة.
(6) أي أثناء العهد الحفصي.
(7) يقصد به جامع الزيتونة.
(8) يقصد به هنا جامع قسنطينة الكبير.

وصف المؤلف لأهل زمانه:

لله درّهم ما أنصفهم وما أعرفهم بالفضل لأهله، إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه، فأين ذاك من زمن لا يعرفون[1] منكراً، وإن عرفوه لا ينكرونه بل يدبون[2] على المواظبة[3] عليه، وإن وجدوا مآثر حسنة لأهلها لم يألوا جهداً في إطماسها وإخمادها، وإن قدر الله بإظهارها عنّفوا ناقلها واستهزأوا به وردوها عليه من كل وجه، وربّما أوّلوها على مقتضى تأويلاتهم الفاسدة وأخرجوها عن قالبها إلى قوالب ما طُبِعوا عليه من الحرمان، لا جمع الله شملهم ولا أكثر في الدنيا مثلهم! وما أنصف قصيدتي[4] المنبئة بأوصافهم فيهم، وضمّنّاها تأليفنا (محدد السنان في إخوان الدخان)[5] مع الإشارة إلى بعض ما هم عليه من الأوصاف القبيحة، فمن أراده فليطالعه.

ومن إنصاف الشيخ العطار وانقياده للحق والعمل به ما يحكى أنه كان له خصام في بعض أجنّة[6] المدينة مع الصلابة[7] وقاضي الجماعة إذ ذاك الغربي[8]، وطال نزاعهم وترافعهم إلى الحكام كل منهم يدلي بحجّته ويقابله خصمه بضدها، وكثر استفتاؤهم من علماء العصر إلى أن لجأوا إلى تحكيم العالم الرباني الصالح الشيخ الوزّان فاجتمعوا لديه وحضر الخاص والعام في/ مجلسهم، فعندما ذكر قاضي الجماعة أُشْهِدكم أني حكّمتُ الشيخ[9] طار قلب الشيخ العطار فَرَقاً خيفةً من أن يكون أَشْهَدَ بالحكم عليه فتنقطع حجّته، ويقال إن تلك كانت سبب علة موته. / 11

وهذا ـ رحمه الله ـ من وقوفه على جادّة الطريق ومعرفته بحقّ الشرع وحرمته

(1) كذا، وهو يعني أهل زمانه.
(2) كذا، ولعله يعني بها يعملون على...
(3) في الأصل (المواضبة).
(4) في الأصل (قصدتي).
(5) درسنا هذا الكتاب في كتابنا (شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون)، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986.
(6) أي البساتين.
(7) كذا، وقد صححت في هامش الأصل (ابن قلابة).
(8) سيأتي الحديث عنه، ويعني به أبا الفضل الغربي.
(9) أي الوزان.

وعدم التلاعب بأوامره مع ما لديه من حجج ظهرت له أنه على يقين في كون الحقّ حقّه لا لصاحبه، فخشي أن يكون الحكم عليه مع وجود تمسّكاته[1] فتنقطع مادة نزاعه ويبقى رهيناً أسفاً على فوات ما لديه من دلائل صحّة ما يدلي به ولا يتأوّل على مثل من له علم ونباهة وفضل معرفة إلاّ هذا، ولا تصغ لتأويل الجهلة ما يقطعون به أيام البطالة ويجعلونه من المزاح اللائق بهم في أنديتهم، وربما يجعلونه سلّماً لاستصغار جانب أهل الفضل والعلم والله تعالى يقول: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾[2]. وتوفي الشيخ العطار في عام ثلاثة وأربعين وتسعمائة[3].

3 - [التعريف بسيدي أحمد الغربي، رحمه الله]

أحمد الغربي وابنه أبو الفضل:

وممن سمعنا به قاضي الجماعة الغربي المذكور واسمه (   )[4]، ووالده[5] الشيخ العالم سيدي أبو العبّاس أحمد الغربي، وفي النسبة أنهم من بلد ميلة[6] وهو، أعني الشيخ أبا العباس، شارح رسالة سيدنا عمر بن الخطاب[7] فشرحها بشرح لم يسبق إلى مثله في وصفه ضمّنه جملة من الأحكام التي قلّ/ أن توجد في مثله وجملة من التاريخ ومسائل اعتقادية وصوفية وحكايات مستطرفة، وكل ذلك منبي على تبحره في العلم وقيامه بوظيفته[8]، وله مشيخة جمّة[9] من مشاهير[10] العلماء العاملين، كما

---

(1) كذا، وهو يعني براهينه وأدلته.
(2) بقراءة فتح اسم الجلالة وضم العلماء.
(3) 943 هـ / 1536 م.
(4) ما بين القوسين بياض في الأصل قدره كلمتان، ولم يذكر الاسم، لكن ذكره فيما بعد أنه أبو الفضل الغربي المدعو بكنيته.
(5) كذا، بدل الحديث عن الابن ركز الفكون الحديث على الأب.
(6) تبعد عن قسنطينة حوالى 32 ميلاً. ويقول الحسن الوزان (القرن 16 م) إن سكانها كانوا حوالى 3000 كانون. انظر (وصف إفريقية) 60/2.
(7) هي رسالة القضاء وعنوان كتاب أحمد الغربي (فتح الملك الوهاب بشرح رسالة عمر بن الخطاب).
(8) في الأصل (بوضيفته).
(9) يعني له أساتذة كثيرون.
(10) في الأصل (مشاهر).

هو في فهرسته، وله حاشية على المقترح[1] وأخرى على الارشاد[2] ، وله مسائل في الفوائت رتّبها أحسن ترتيب وأخرى في التعليقات دالة على ما هو عليه من التحقيق وحسن الترتيب. وتوفي ولده القاضي (   )[3].

4 - [التعريف بالشيخ أبي زكريا يحيى بن محمد الفكون، رحمه الله]

يحيى الفكون:

وممن يذكر في المدينة المذكورة الجد أبو زكرياء يحيى بن محمد الفكون جدّ والدي. كان ـ رحمه الله وغفر له ـ من العلماء المتقنين، وكان ممّن له اليد الطولى في الفقهيات وممّن يعرف المدوّنة[4]، وكان من المعتنين بها، وله حاشية عليها بديعة في معناها، ضمنها نوازل ووقائع قلّ أن توجد في المطوّلات، وهي مسودة بخطه ـ رحمه الله ـ ولم تخرج منها نسخة إلا ما يذكر أن نسخة منها أخذها الوادي[5]، وكان من فقهاء البلدة لم توجد للآن، وكان الجد ممّن تصدّر للإفتاء في زمن مشيخة أكابر وهو أسنّ من الشيخ الوزّان إلاّ أنه عاصره.

خبر القاضي ابن عبد الرفيع:

ويُحْكى أنه لمّا ظهر تأليف الشيخ البرزلي[6] بقسنطينة ولم يوجد إلاّ عند الجدّ أبي زكرياء سيدي يحيى وكان قاضي الجماعة إذ ذاك ابن عبدالرفيع حفيد الشيخ أبي إسحاق[7] فجاء إلى الشيخ سيدي / عمر[8]، وطلب منه أن يتوسّطه إلى الجد في إعارة / 13

(1) هو كتاب (مقترح الطلاب) في الجدل والمناظرة، لأبي المظفر محمد بن محمد بن سعد البروي المتوفى سنة 568 هـ في بغداد. انظر: وفيات ابن القنفذ، ص 286.

(2) (الإرشاد) كتاب لأبي المعالي عبد الملك بن محمد المعروف بإمام الحرمين الجويني المتوفى سنة 478 هـ، وهو كتاب في أصول الدين والاعتقاد.

(3) ما بين القوسين بياض بالأصل قدره نصف سطر، وسيذكر أنه هو أبو الفضل الغربي.

(4) هو الكتاب المشهور في الفقه المالكي، وقد رواه سحنون عن ابن القاسم عن مالك بن أنس.

(5) لا نعرف شيئاً عن الشيخ الوادي الآن سوى ما ذكره فايسات (روكاي) 290/11 من أنه كان حياً سنة 926 هـ/ 1520 م.

(6) هو أبو القاسم بن أحمد، من تلاميذ ابن عرفة، وله مؤلفات، منها (الحاوي في الفتاوي) وقد توفي بتونس سنة 844 هـ.

(7) أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن علي بن عبد الرفيع الرقعي، تولى قضاء الجماعة والخطابة بجامع الزيتونة بتونس وتوفي بها سنة 733 هـ.

(8) يعني عمر الوزان.

سفر منه للنظر، فأعاره الجدّ له فبقي مدة يسيرة عنده، ذكر النقلة أنها ثمانية أيام، فردّه للشيخ سيدي عمر وطلب على الثاني من الجدّ أيضاً فأعاره فبقي المدّة المذكورة وردّه، ولم يزل ذلك دأبه إلى أن أكمل أربعة الأسفار بالإعارة والرد فبعد ذلك ظهرت نسخة أخرى في البلد بخط القاضي ابن عبد الرفيع[1]، فاتصل الخبر بالجدّ فارسل إلى الشيخ الوزان فجاءه وذكر له أن الواقع لا يليق لأن أصل العارية للمطالعة لا للاستنساخ فاعتذر له الشيخ الوزان بأنه لا شعور عنده بذلك ولا في ظنه إلا المطالعة فقط، فسمع القاضي ابن عبد الرفيع فأرسل إلى الجد بما استنسخه وطلبه في التحليل أو القبول فردّ الجد عليه نسخته التي نسخ منها أعطاها إياه وطيّب له ذلك ـ رحمهم الله ـ ما أصوب طريقهم وما أنصفهم، ويقال إن مدة ما نسخ حاوي البرزلي فيه شهر، والله أعلم بصحة الواقع.

عودة إلى ابن آفوناس:

وممّن كان محبّاً في الجدّ أبي زكرياء يحيى ومواخياً له أبو عبد الله محمد بن آفوناس المذكور، ووقع له آخر الأمر تغيير على الجدّ بسبب حقّ وجب عليه صدع به الجد ولم تأخذه فيه لومة لائم، وذلك ما حكاه في حاشيته على المدوّنة.

خبر عن الشيخ العواد:

ومن مشيخة الجدّ فيما يذكر الشيخُ العواد[2]، وكان قاضي الجماعة بقسنطينة / وأصله من حاضرة تونس، نقلته/ السلطنة[3] لقسنطينة لقضائها، وكان ممّن يشار إليه في العلم وممّن يرجع إلى قوله.

عودة إلى يحيى الفكون والشيخ الزلديوي:

وانتقل الجدّ لتونس لواقعة بل وقائع، فاستعظم سكناه ببلد يخرج إليها الأمر دون ما يخرج منها فصاهر الشيخ الزلديوي[4]، واستخلفه في إمامة جامعها الأعظم

---

(1) يفهم من هذا أن القاضي ابن عبد الرفيع الحفيد كان متولياً القضاء بقسنطينة عندئذ.

(2) لا نعرف شيئاً عن هذا الشيخ الآن.

(3) يعني دار الإمارة الحفصية بتونس.

(4) يقصد حسين الزنديوي وليس (الزلديوي)، كان حياً سنة 940، الحلل السندسية 649/3، ويذكر المؤلف أنه توفي قتيلاً سنة 941.

جامع الزيتونة، ثم استقلّ بالإمامة وتزوج بها حفيدة الشيخ البُرزلي وولد له منها بنت.

وتوفي مجاهداً في وقعة تونس الكائنة في عام أحد وأربعين قتيلاً. ويقال إنّ النصارى دخلت عليه بجامع الزيتونة وهو يروي البخاري، ويقال إن السلطان حسن[2] مرّ به قتيلاً هو والشيخ الزلديوي، فربّما تفوّه لهما بما لا يليق بمنصبهما لما كانا ينكران عليه سيرته، ثم لزم مواراتهما، وحضر دفنهما ـ رحمهما الله تعالى ونفع بهما.

5 ـ [التعريف بسيدي قاسم الفكون، رحمه الله]

قاسم الفكون:

وممن سمعنا به ورأينا بعض تقاييده ولدهُ العمُّ قاسم كان قاضياً بمدينة قسنطينة[3] في زمن الشيخ الوزان، وكان تولى إمامة جامع البلاط بتونس حين انتقل والده إليها به، ومن شيوخه الشيخ مغوش[4]، الذي طبق حفظه الأرض وهو أشهر من أن يذكر، ومن شيوخه أيضاً الشيخ العارف الوزّان، نفع الله به.

وذكر سيدي يحيىٰ بن سليمان[5] في بعض تقاييده أن العم قاسم سئل عن الفرق بين/ الشيخين، أعني الشيخ مغوش والشيخ الوزان، فقال لهم العمّ: الشيخ مغوش[6] عالم إلّا أنه يستشكل المسائل، والشيخ الوزان لا يستشكل شيئاً. / 15

وكان العم قاسم ممّن فاق عصره في علم المعقول، وكان ممّن تصدّى للتفسير زمن مشيخة عصره، وناهيك بهم مشيخة فيهم الشيخ الوزان، وحضره وأثنى عليه. ورأيت من تقاييده بعض كراريس على توضيح ابن هشام[7] دل على معرفته معتمداً فيه

(1) سنة 941 (1534) تذكر مصادر التاريخ أن الأسبان استولوا على تونس سنة 942.

(2) هو الحسن بن أبي عبد الله الحفصي، حكم من 932 إلى 942، وقد تعاون مع الجيش الأسباني الذي كان يقوده شارل الخامس (شارلكان).

(3) سيمر بنا أن قاسم الفكون قد تولى القضاء باقتراح من الوزان بعد اعتذاره هو عنه.

(4) مغوش: هو محمد بن محمد التونسي قيل إن خير الدين نفاه بعد احتلاله لتونس، فهاجر إلى الأستانة فالتقى بمفتيها الأستاذ أبو السعود المفسر الشهير ونال حظوة وشهرة بها وقد توفي بالقاهرة سنة 947 هـ (عن المؤنس ص 163) ـ تعليق للشيخ البوعبدلي ـ.

(5) هو يحيىٰ الأوراسي الذي سيأتي ذكره.

(6) في الأصل (مغوس).

(7) هو (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك) في النحو، لجمال الدين ابن هشام الأنصاري المتوفى سنة 761.

على الرضي[1] والركن وشارح اللب، محشوّاً بالتعاليق الرائقة جمعها من عدة علوم وتصانيف شتّى. وتوفي في عام خمسة وستين وتسعمائة[2].

6 - [التعريف بسيدي محمد الكمّاد]

محمد الكمّاد:

وممن سمعنا به ورأينا بعض فتاويه الشيخ أبو عبد الله محمد الكماد[3] قاضي الجماعة بقسنطينة في ابتداء أمره، ثم في آخره تنوب على قضاة[4] العجم حين كانت لهم الدولة، وكان معاصراً للعم[5]، وبينهم شنآن عظيم، وكان فصيحاً خطيباً صيتاً ذا سمت وزي حسن ورائق خطٍ وكان كثير النثر، الشعر وصنعته، وهو من تلامذة الشيخ الوزان - رحمه الله - وله به نسبة قرابة كما يقال، وتوفي ( )[6].

7 - [التعريف بسيدي علي بن يحيى الياوراري]

علي بن يحيى الياوراري:

وممن سمعنا به الفقيه أبو الحسن علي بن يحيى الياوراري النسب[7] أحد

---

(1) هو محمد بن الحسن الرضي الأستراباذي المتوفى سنة 686، وله كتب في النحو منها شرحه على الكافية لابن الحاجب.

(2) 965 هـ/ 1557 م.

(3) عائلة الكماد عريقة في قسنطينة وتولّت وظائف دينية وقضائية، وهي قريبة من عائلة الوزان. وليس لدينا الآن معلومات عن محمد الكماد هذا.

(4) أي ناب لهم في القضاء، بمعنى أصبح في مرتبة باش عدل ونحوه. وفي الأصل (قضات). وقد فهمنا أنه يقصد بالعجم الأتراك، ولكن عبارة «حين كانت لهم الدولة» عبارة محيرة، لأن الأتراك كانت لهم الدولة والسلطة في عهد المؤلف بشكل أكثر.

(5) يقصد به قاسم الفكون الذي تولى القضاء كما عرفنا. ويذكر بعد ذلك (بينهم) بدل (بينهما).

(6) بياض بالأصل قرابة كلمتين.

(7) الياوراري يبدو أنه نسبة إلى قبيلة بني ياورار (أورار) بين جيجل وبجاية. وقد ورد ذكرها في قصيدة حسن ابن الفكون اليائية الشهيرة:

وكم أورثتْ ظِباء بني وُرارٍ ... أُوارَ الشوق بالريق الشهيّ

ومنها سليمان الأوراري الذي تولى الفتوى في الجزائر في القرن العاشر وورد ذكره في (أشعار جزائرية) الذي نقوم بتحقيقه.

تلامذة الشيخ الوزان ومن مقرىء المختصر، أعني مختصر الشيخ خليل، وكانت له به عناية وبحث/ فيه عاكفاً على درسه وتدريسه. / 16

8 ـ [التعريف بسيدي أحمد بن تكفه، رحمه الله]

أحمد بن تكفه:

الفقيه الورع سيدي أحمد بن تَكْفَهْ، كذا في لفظ الناس، كان بزواوة وانتقل إلى قسنطينة وسكن بها ودرس بها، وكانت له معرفة بابن الحاجب[1] ودراية، محتفظاً على أمر دينه، وربما نالت منه العامّة بسبب ما فعله وأمر به من وزن أمعاء الضأن وفؤاده، فلم يأتهم قوله على منهج عادتهم ولا أسلوب طريقتهم، وأوذي ـ رحمه الله ـ ويقال إنه خرج فارّاً من بعض خواصّها، والله أعلم. وتوفي ( )[2].

9 ـ [التعريف بسيدي محمد بن حسن، رحمه الله]

محمد بن حسن:

وممن سمعنا به الشيخ الصالح الزاهد سيدي محمد بن حسن ـ نفع الله به ـ كان فقيهاً متكلماً، كان يقرىء المقترح شارح الإرشاد ويدرس في الفقهيات، وهو من تلامذة الشيخ الوزان ـ رحمه الله ـ وكان الأغلب عليه الصلاح[3]، وممّن له بله في طريقة الدنيا. فمن ذلك ما حُكِي أنه أخذ ذات مرّة سمناً وجعله في ورقة ثم وضعه في قلنسوة برنسه حتى يأتي بيته، فطال أمده فدخل بيته، فكُلِّم فيه، فقال لهم أخرجوه من البرنس فوجدوه قد ذهب وذاب ـ رحمه الله وغفر له ـ وتوفي ( )[4]، ودفن بمسجد سيدي أبي العباس قرب رحبة الجِمال وبمقربة من زاوية الشيخ الوزان.

---

(1) أي كتاب ابن الحاجب في الفقه.
(2) بياض بالأصل قدر كلمة.
(3) يقصد أنه لم يكن من العلماء الفقهاء.
(4) بياض بالأصل قدر ثلاث كلمات.

10 ـ [التعريف بسيدي عبد اللطيف المسبح، رحمه الله آمين]

عبد اللطيف المسبّح:

ومن سمعنا به الفقيه الفرضي أبو محمد عبد اللطيف المسبح المرداسي نسباً، كذا في خطه، كان مفتياً بها[1]/ مرجوعاً إليه في وثائق أهلها، وكان الحساب أغلب / 17 عليه من غيره، مدرساً في الفقه صاحب تفنن فيما يُحتاج إليه من الوثائق، وله شرح على مختصر الشيخ الصالح سيدي عبد الرحمن بن صْغَيَّر[2]، طالعناه زمن الشبيبة، فرأينا عماده على جمع الكتاب[3] والنقل منها فحسب لا يلم بلفظ المصنف[4] ولا يلوي إليه ولا ما يستخرج من أبحاث لفظه ومفهوماته ومآخذه، وهو[5] الموجب لشرحنا عليه المسمّى بـ(الدرر في شرح المختصر) نبَّهنا على فوائد فيه لم توجد في المطولات، ونكت حسان قلَّ أن تُلْفَى في غيره، وتنبيهات أخذناها من فحوى خطابه، وفروع كمَّلنا بها ما لم يفصح به كلامُه ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، وربما نبهنا على ما طغى به قلم شارحه[6] المذكور أو هفى فيه ـ غفر الله لنا ولهم ولجميع المسلمين.

ويُذكر أن لأبي محمد المذكور شرحاً [7] على درة الشيخ أبي زيد سيدي عبد الرحمن في الحساب لم أظفر به، نعم رأيت له تكملة لشرح الشيخ المذكور منظومته[8] في الفرائض، مات ـ والله أعلم ـ قبل إكماله، فتمّمه أبو محمد المذكور مقتصراً على العمل فيه دون التبيين لكلامه، وليس الخبر كالعيان، وتوفي[9].

---

(1) الغالب أن الضمير يرجع إلى قسنطينة.

(2) هو عبد الرحمن الأخضري صاحب (السلم المرونق) وغيره. انظر عنه كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) الجزء الثاني. وسيذكره المؤلف عدة مرات بعد هذا.

(3) كذا، ولعله يقصد الكتب بدليل ما بعده.

(4) المصنف هو الأخضري.

(5) أي ذلك النقد لطريقة المسبح هو الذي جعل الفكون يقوم بشرح جديد لمختصر الأخضري.

(6) يعني المسبح.

(7) في الأصل (شرح).

(8) في الأصل (منضومته).

(9) لم يذكر وفاته ولم يترك بياضاً. وفي تعريف الخلف 232/2 أن وفاة المسبُح كانت سنة 980. وترجمته فيه مكررة. انظر أيضاً 427/2.

11 ـ [التعريف بسيدي حميدة المسبح، رحمه الله، آمين]

أحمد المسبّح:

ومن سمعنا به أخوه الفقيه المدرس أبو العبّاس أحمد المدعو حميدة، كان من المفتين بالبلدة المذكورة ومن ذوي بيتاتها[1]، وممن له معرفة/ ونباهة وصدق وممّن له الشورى في النّوازل، ويقال إن اعتماد أخيه[2] عليه في بعض المهمّات إلاّ أن أخاه المذكور أشهر ذكراً لأجل مخالطته الأمراء، وتوفي[3]. / 18

12 ـ [التعريف بسيدي بركات المسبح، رحمه الله]

بركات المسبح:

ومن سمعنا به أخوهما الفقيه النجيب المشارك أبو محمّد بركات، هو أصغر منهما سنّاً وأكبر معرفة ودراية، كان مشتغلاً بالقراءة والإقراء والعكوف على الدرس والتدريس حريصاً على الانتفاع، فربّما يقال إنه لا يكتفي بما يقرأ في الدروس حتى يأتي إلى الجدّ عبد الكريم بن يحيى المتقدم الذكر فيقرأ عليه ويمسكه في أي موطن جاء، وربّما كان بدكانةِ سقيفته ـ رحمهم الله وغفر لهم. وكان الإخوة الثلاثة ممّن لهم محبّة خالصة في جانب جدّي المذكور وإخوته، وكانوا يقفون عند أقواله معتقدين في آرائه لا يخرجون عن فتواه في نازلة مّا. وتوفي ـ رحمه الله ـ في زمن الطاعون الكائن سنة اثنين وثمانين وتسعمائة[4].

13 ـ [التعريف بسيدي عبد الكريم الفكون، رحمه الله]

عبد الكريم الفكون (الجد):

ومن سمعنا به الجد الصالح أبو محمّد عبد الكريم الفكون المذكور أبو والدي

---

(1) كذا يكتبها بدل بيوتاتها، ويعني بالبلدة قسنطينة.
(2) يقصد عبد اللطيف المسبح، ولا ندري لِمَ قلّلَ الفكون من علم وشأن هذا العالم.
(3) لم يذكر تاريخ الوفاة ولم يترك بياضاً، ولكن في تعريف الخلف 83/2 أن الوفاة كانت سنة 981.
(4) 982 هـ/ 1574 م، انظر أيضاً عنه تعريف الخلف 108/2.

ـ رحمه الله وغفر له ونفع به ـ كان مشتغلاً بما يعنيه ديناً ودنيا معتكفاً على الإقراء والتدريس، وكان إماماً بالجامع الأعظم وخطيبه. وممن يرجع إلى قوله في النوازل والأحكام وكانت الولاية أغلب عليه، مواظباً[1] على الأذكار/ وقيام الليل إلى أن مات. ومن تلامذة الشيخ الوزان إلاّ أنه أصغرهم، وتولى الإمامة[2] في زمنه وهو الملزم له إياها بتكليف منه بعد امتناعه منها، وتصدّر للتدريس في زمن الشيخ الوزان.

فتنة قسنطينة سنة 975:

وكان ممّن لا تأخذه في الله لومة لائم، امتحن زمان الفتنة الواقعة بالبلد سنة خمس وسبعين[3]، حين وجهه أهل البلد لَمّا قاموا على واليها[4] إذ ذاك، فوجهوه[5] لمحروسة الجزائر دار سلطنتها، وصحبه أبو محمد عبد اللطيف المسبح المذكور وغيره، فلما انصرفوا خلعوا[6] البيعة، وصادفهم خبر ذلك بعد استقرارهم بدار السلطنة المذكورة. وبعد أن قضوا مآربهم وما بعثوا من أجله وفرح بهم الأمير[7] فرحاً كبيراً وأحلّهم دار الكرامة وأنزلهم منزلة قربى، فأتاهم الخبر بما أحدثه أهل البلدة بعدهم من نهب الدور وخلع ربقة البيعة من أعناقهم، ففروا من دار السلطنة قاصدين زواوة[8]، فبعث في أثرهم فسجنهم، ثم تَبَصَّر فلم ير لهم وجهاً يوجب ذلك، فأطلق سبيلهم بعد اعتذار منهم عن فرارهم المذكور.

وكان الجدّ ـ رحمه الله ـ له دراية بعلم البيان، وكان ممن يقرىء سعد الدين المطول[9]، وله تقييد جمع فيه الآي القرآنية التي استُشْهِدَ بها فيه، وكان خطيباً بليغاً أحدث خُطباً على غير أسلوب المتقدمين غالبها/ الأحاديث النبوية لغزارة حفظه وكثرة

---

(1) في الأصل (مواضباً).

(2) يقصد إمامة الجامع الكبير بقسنطينة.

(3) 975 هـ/ 1567 م.

(4) هو

(5) أي جده.

(6) المعنى فلما انصرف الوفد نحو الجزائر خلع أهل قسنطينة البيعة من العثمانيين.

(7) هو محمد بن صالح رايس الذي تولى بين 974 - 976.

(8) أي المنطقة الجبلية بين وادي يسر وبجاية.

(9) المطول كتاب في البلاغة، وهو الشرح المطول لسعد الدين التفتزاني، المتوفى سنة 793 شرح به على تلخيص الخطيب القزويني المتوفى سنة 739.

اطلاعه عليها، وكان حافظاً للمسائل والأحاديث، وممن يحفظ التلخيص أو قارب. وحدثني تلميذه الشيخ سيدي سليمان[2]، بل وجماعة غيره أنه في مجلس تدريسه تبرق ثناياه ويلعج منها لاعج نور.

فتنة أخرى نواحي قسنطينة:

وخرج مرة لنواحي البلدة بقصد حاجة عرضت لمن كلّف عليه الخروج[3] هو وصاحبه أبو محمد عبد اللطيف المسبح المذكور وجدّي للأم مِزْوَار الشرفا إذ ذاك وقائد جيش البلد، فمسكهم الأعراب المتغلبة على البلد في بعض ما لهم تحت يد السلطنة[4]، وبقوا مدة. فكان لا يأكل طعامهم، وأمرهم بإخلاء بيت صغير له للخلوة به، فلازم العكوف فيه، فكان الأعراب يقولون ما بال سيدي عبد الكريم مختلياً بنفسه؟ فيجيبهم صاحبه المذكور[5] ويقول لهم: هو مشغول بكم. فما خرجوا من عندهم إلا واستأصلهم العباسيُّ[6] فلم يترك لهم حافراً ولا بيتاً ولا ماشية، وكانوا يقولون: إنهم يجعلون طرفاً من برنس أو كساء يدخلون تحته جماعة[7]، وكانوا يرون أنه من بركة دعائه عليهم فيتحدثون بها سلفاً عن خلف.

وكان ـ رضي الله عنه ـ ممّن أَعلَم بوفاته قبل موته، فكان في مرض موته يقول لهم: ليلة الجمعة الاحتضار، فيما أخبرتني به جدتي عنه، وأخبرني والدي أنه قال له: يوم الثلاثاء/ أَحْضِر الدواةَ[8] والقرطاسَ، لتكتب لي ما لي وما عليّ، وأخبره بوفاته ليلة الجمعة، فأتاه بدواءة وقرطاس، ليكتب ما له وما عليه، وهو تراه بحال صحّة لا تجد مخايل موت عليه، وأوصى أن يُهَيأَ له جامةٌ من ماء الورد، ويقول لهم: إن للموت سكرات، فإذا رأيتم توارد الغَشْيِ رُشُّوا علي من ذلك. / 21

(1) كتاب التلخيص في البلاغة للخطيب القزويني المذكور قبله.
(2) هو سليمان القشي الذي سيأتي ذكره.
(3) يقصد بذلك أمير البلد أو الباي للتدخل لدى الأعراب المذكورين بعده.
(4) هذه إشارة واضحة إلى أن جده (والعلماء عموماً) كانوا يقومون بمهمات سياسية بإيعاز من السلطة.
(5) يعني عبد اللطيف المسبح.
(6) سيذكر المؤلف أن العبابسة قوم من المتلصصة والحرابة.
(7) في هامش الأصل أبدلت كلمة (جماعة) بكلمة عامة. والمؤلف يشير بالجملة إلى كرامة حدثت على يد جده، وسيذكر له أخريات.
(8) في الأصل (الدوات).

محمد شقرون بن حليمة
واحتضار الفكون (الجد):

وذكرت جدتي أن سيدي يحيىٰ بن سليمان دخل عليه فقبّل يديه وبكى وقال له: سيدي، من توصي علي أو أوصِ عليَّ محمد، يعني والدي، فقال له: محمد فيه بركة أو لا يحتاج إلى وصاية، الشك مني في أي اللفظين قال وقيل له. وذكرت جدتي أنها (كانت)[1] متسترة تستهزىء بكلامه لما رأت من حاله ومُبَايَنَتها للمحتضر أو قريبه، قالت: فلما خرج سيدي يحيى قلت له: ما هذا الكلام الذي كنت تجيب، لا شرّ عندك ولا بأس، فلما كانت الظهر جاءت الطلبة يقرأون القرآن وهو يقرأ معهم، ودخل عليه الناس أفواجاً، وحضره الفقهاء فاستخبروه على الدفن فقالوا: نرى أن تدفن عند جدك سيدي شقرون بن حليمة بآكدال، وهو من الصلحاء، فقال: ذلك غرضي إلّا أنه بعيد عن زيارة[2] الأهل، فعُرِض عليه الموضع[3] الذي به أخوه العم سيدي قاسم المذكور، فأجاب أنه ثقيل موحش، وأظن أنه فرّ من مخالطة دفنه قائلاً: إن سيدي، 2[illegible] / يعني أخاه المذكور ـ سامحه الله ـ/ كان قاضياً ولا أحب الدفن هناك، فقال له والدي: نرى أن يكون في مدرستنا، فقال له: مبارك إنْ وجدتَ هناك موضعاً فهو أولى، لأنها على فضاء، فيسّر الله بغيته وَوَجَدَ فيها محلاً لدفنه إلى أن زاد والدي فيها ما صارت به الآن متسعة.

وأخبرني والدي أنّ بعض الفقهاء راودوه على أن يجعل بعض أمتعة لبعض ولده في ذلك المحل[4]، فأبى، وقال: إنه لا يصح، فذكر له طريق حيلة إلى التوصّل، فأجابه أن هذه حيلة لا يجوز فعلها، وما زال في تلك العشية لاهجاً بكلمة التوحيد وتلاوة القرآن، ومع ذلك فالنظر فيه لا يوجب إلّا السلامة، إلى أن صلى المغرب. وكان أَمَرَ أن لا يبقى يهوديٌّ[5] بالدار ويطرد، قائلاً لدخول الملائكة، فأخرِج من كان

---

(1) ما بين القوسين كلمة زائدة.
(2) في الأصل (زيادة).
(3) في الأصل (المودع).
(4) يقصد مكان الدفن.
(5) غير واضح ما إذا كان اليهود المقصودون من الخدم أو من الزوار.

هناك. وأُخبرتُ أنه اغتسل وجدد ثياباً نظيفة[1]، حكت لي الجدة أنه قال لها لأني أتلقى بها الملائكة.

وحكى الوالد أنه نصب يديه في أوان احتضاره واستقبل القبلة كالمطلع على شيء وهو يقول: الشفاعة يا رسول الله! الشفاعة يا رسول الله! ما زال يكررها وهو كالطالب من شخص أمامه إلى أن ردّ يديه إلى وجهه ماسحاً بهما وجهه قائلاً: الحمد للّه الذي/ قبلنا أو كلمة نحوها، ثم أمر بورد من الصلاة على سيدنا ومولانا محمد (ﷺ)[2]، ثمّ بلا إله إلا الله، إلى أن حضره الغشيُ، استبصروا وتفطنوا لما كان وعدهم وسارعوا إلى ما أمرهم به من رش وجهه بماء الورد المعدّ لذلك، فَرُشَّ وجهه فأفاق قائلاً: لا إله إلاّ الله أو نحوها، ولم يزل يردد كلمة التوحيد في حال إفاقته وانتباهه حتى غلب. حُكي لي أن ذبابة نزلت على شفته فلم يستطع إزالتها إلا بالنفخ اليسير ولسانه لم يَفْتُرْ إلى أن قُبِض ـ رحمه الله ـ فكان له مشهد عظيم[3]، وحضره خلق كثير. / 23

ودفن بالمدرسة المذكورة، وهي في الأصل[4] محدثة البناء لجده سيدي محمد شقرون دفين رحبة البلد، وكان من الصلحاء وممن عمر، وعلى ظني أنه صاحب الدعوة من الخضر ـ عليه السلام ـ حتى سمعت من الوالد أنه غيره من الأسلاف، وبناءُ قبتِها وإحداثُ ما هي عليه الآن من البناء والانتصاب لوالدي بعد وفاة[5] والده المذكور.

وحَكى لي جماعة من الناس أن ممّا اشتهر تلك الليلة، أعني ليلة دفنه بين المغرب والعشاء، أنه رأى أهلُ البلد نوراً ساطعاً من ناحية قبره إلى أن اتصل بعنان السماء لا يشك الناظرون فيه. وتوفي ليلة الجمعة فاتح رجب من عام ثمانية وثمانين وتسعمائة[6]، وفي تلك السنة تزايدتُ في ذي/ القعدة من آخر تلك السنة[7]. وكنتُ / 24

(1) في الأصل (نضيفة).
(2) ما بين القوسين زائد عن الأصل.
(3) في الأصل (عضيم).
(4) عبارة (وهي في الأصل) مكررة في النص.
(5) في الأصل (وفات).
(6) 988 هـ/ 1580 م.
(7) بذلك يكون المؤلف قد ولد بعد وفاة جده بحوالي أربعة أشهر ونيف.

دعوته ـ رحمه الله ورضي عنه ـ وذلك أنه لمّا كان في آخر مرضه وكانت والدتي حاملةً بي، وكانت تعز عليه كثيراً فسألَتْه الدعاءَ، فأُخبرتُ أنه قال لها: جعل الله عمارةَ الدار منكِ[1]. وأخبرني والدي ـ حفظه الله ـ أنه ربيء بعد موته فسئل عن حال الملكين؟ فقال: لم أر إلّا شخصين جاءا فوجداني أقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فوقفا وانصرفا، أو كلاماً يقرب من هذا.

14 ـ [التعريف بأبي عبد الله سيدي محمد الفكون، رحمه الله]

محمد الفكون (والد المؤلف):

وأعقب الجدُّ والدي أبا عبد الله محمداً، تولى بعده خطبةَ الإمامة بجامعها الأعظم الأقدم، وكان فقيهاً صوفياً، وربما يُرجَع إليه في المسائل والإفتاء[2]، وكان ذا سمت وتعفف وأوراد وقيام الليل، نفعني الله بدعائه. وأعقب الجد ولداً آخر سُميَ علياً كان من البُلْهِ وصلحاء أهل زمنه، ودفن بمدرسة الجد. وتوفي والدي محمد المذكور بعد رجوعه من الحج والزيارة في أواخر محرم الحرام من عام خمسة وأربعين وألف[3]، وشككت في يوم موته وأظنه يوم الإثنين، ودفن من غد موته بالمويلح قلعة ما بين مكّة والمدينة ومصر في رجوعه[4].

عودة للحديث عن الجد:

ورأيت الجدّ ـ رضي الله عنه ـ في النوم مرتين أو أكثر. وفي إحداها كأنني بمدرسة دفنه قاصداً نحو بيت الصلاة منها/ وكأنه يخاطبني من قبره يقول: اقرأ! وناولني قرطاساً مكتوباً فيه بالأصفر، فتأمّلته فإذا فيه: قال فعل ماض، أو كلاماً هذا

(1) يفهم من هذا أن المؤلف كان الابن البكر لوالده الذي قد يكون له بنات قبله.
(2) بعد كلمة (الإفتاء) كلمة (ووصف) التي يبدو أنها زائدة.
(3) 1045 هـ ـ 1635 م.
(4) وصف العياشي قبر محمد الفكون بالمويلح فقال عن القبر «عليه بناء، وقد زرناه وتبركنا به، وأقمنا هنالك (أي بالمويلح) يومين». انظر رحلة العياشي 170/1. والمويلح يقع في الرصيف البحري الحجازي المقابل لمصر.

معناه، لطول عهدي بالرؤيا، فانتبهت ووقع ببالي أنه إذن منه في الاشتغال[1] بعلم النحو، فاشتغلت به فحصلت لي فيه ملكة، والحمد للّه، وذلك من بركته ـ رضي الله عنه ـ.

وممّا أخبرتني به جدتي زوجُه ـ رحمها الله ـ أنه كان يقوم بالليل، فقام ليلة على عادته فوسوس الشيطان إليّ ما أوجب لي القيام في طلبه، فقمتُ أطلبه، فبحثت عنه فلم أجد له أثراً، فأشرفت من عالي الدربز نحو وسط الدار والأدراج فلم أجد له أثراً إلاّ ظلام الليل، فوقفتُ مفكرةً في أمره، وكل ذلك وأنا متشوشة، وإذا به جعل الشمعة عند أُذُني تشعل، فالتفت فإذا هو بالشمعة وهو يقول لي: ما ألجأكِ إلى هذا الخروج أو كلاماً هذا معناه، فعجبت من حاله ووجود الضوء بعد خفاء أثره. ومن مشائخه[2] أبو الحسن علي المرواني وأبو عبد الله محمد الهواري.

15 ـ [التعريف بسيدي علي المرواني، رحمه الله، آمين]

علي المرواني:

وممن سمعنا به أبو الحسن علي المرواني، كان من نجباء تلامذة الشيخ الوزان، ذا ذهن ثاقب وعلوّ همّة وفطانة ونباهة، وممّن له البحث الرائق وإدراك الحقائق، وعَمِي آخر عمره وأفتى بمحضر المشيخة ودرّس، وهو من أشياخ/ الجد 26 / عبد الكريم المذكور، وكان لا يبالي بقضاة[3] عصره في طرح أحكامهم ونقضها ولو بالشاذ، ويقول معتذراً: إذا لم يُعمَل بالشاذ اليوم فليس له وقت آخر، لأن القيامة لا تحتاج إليه، أو كلاماً يقرب من هذا فيما أخبرني به غير واحد، ويقال إنه لما شوّش على العم[4] زمن قضائه سجنه عنده بمحكمته فكان لا يُخرِج حكماً إلاّ على نظره ومشورته حتى سلم من خدشه وتعرضه لأحكامه. وتوفي (   )[5].

---

(1) في الأصل (الاستغال).

(2) أي مشائخ جده عبد الكريم. وقد تحدث المؤلف عن المرواني وأهمل الحديث عن محمد الهواري. . . فهل هو دفين وهران؟

(3) في الأصل (قضات).

(4) يقصد المؤلف قاسم الفكون الذي تولى القضاء كما سبق وهو أخ جده.

(5) ما بين القوسين بياض قدره نصف سطر، ولم يذكر المؤلف تاريخ وفاة الشيخ المرواني.

16 ـ [التعريف بسيدي يحيى بن سليمان، رحمه الله، آمين]

يحيىٰ بن سليمان الأوراسي:

وممن سمعنا به ورأينا ذاته الشيخ سيدي يحيىٰ بن سليمان الأوراسي، كان مصادقاً للجد مؤاخياً له في الله، وقرأ على العم سيدي قاسم، وكان يحضر مجلس درسه الجدُّ ـ رحمه الله ـ ولا يزيد على السكوت، على ما أخبرت به من غير واحد. ويذكر أنه قرأ على الشيخ الوزان، وله منه إذْنٌ في بعض الأمور استشاره فيها، ورأيت له ـ رحمه الله ـ عدّة تقاييد في جملة مسائل فقهية ونحوية وبيانية وغيرها. كان مشاركاً في العلوم يخالط بعض سرّ الحروف، منتهياً للتصوف، له من أصحابها[1] سلسلة وخرقة، كما رأيته بخطه ـ رحمه الله ـ. وتصدّى للإفتاء بقسنطينة وأفتى بدار سلطنتها الجزائر[2] ـ حماها الله من أعدائه ـ زمان فقهائها.

وكان/ مخالطاً لدار الإمارة[3] يعتقدون فيه الصلاح ولا يقطعون دونه أمراً في كل مهمّاتهم، وكذا متلصّصة الأعراب وغيرهم لا يؤمنون[4] إلاّ به، فحسده أهل زمانه وأكثروا الوشي به إلى الأمراء، وربّما تقوّلوا عليه خلع البيعة والاستقلال بالرياسة، إلى أن فرّ من قسنطينة لجبل أوراس وأخوه أبو العبّاس أحمد معه.

ثورة بالأوراس:

فكان من أمرهما أنهم[5] استقلوا به[6] ودارت عليهم العربان وأولاد عيسى وقرفة وغيرهم من المتمنعين، وقام بهم أخوه أحمد المذكور والناس يرون أن سيدي يحيى هو القائم لشهرته واعتقاد الناس فيه، وتحملت لهم عساكر الجزائر[7] ووقعت بينهم حروب كثيرة ورجعوا عن غير ظفر منهم، وبقي كذلك مدة إلى أن قتل ـ رحمه الله ـ

---

(1) لعل المؤلف يقصد بضمير المؤنث الطريقة الصوفية، ولا نظنه يقصد به الحروف.

(2) يعني مدينة الجزائر، والمؤلف يريد أن يرشد إلى أهمية الشيخ يحيى الأوراسي الذي وصل درجة الفتوى رغم وجود فقهاء الجزائر أي علماءها.

(3) الظاهر أن المؤلف يقصد بدار الإمارة هنا سلطة الحكم في قسنطينة لا بالجزائر بدليل ما يأتي.

(4) في الأصل (لا يامنوا)، وقد يجوز قراءتها (لا يامنون) من الأمن.

(5) كذا، والصواب: أنهما استقلا... عليهما الخ...

(6) يعني جبل أوراس ويقصد بكلمة (دارت) التفت حولهما وعضدتهما.

(7) يفهم من هذا أن قوات قسنطينة لم تكف لمحاربة الثوار.

بحالة غدر من بعض الفرق فبيّتوه فغَدَروه. وكان يقال إنه علم المكر به منهم قبل نزوله إلّا أنهم دعوه للمبيت وأقسموا عليه بجاه سيدنا محمد ﷺ وكان من شأنه ـ رحمه الله ـ لا يرد متوسلاً به فكان من أمره ما قدره الله[1].

محمد النقاوسي:

وسمعت من الطالب محمد النقاوسي، وكان سمساراً للكتب بقسنطينة، أنه قال لي: اطلعت على بعض الكتب ذُكر فيها القائمون[2] من لدن من مضى إلى غابر الدهر مرفوعاً للنبي ﷺ قال: رأيته قبل قيام سيدي يحيى / أو قبل موته، الشك مني، قال: / 28 فإذا فيه أن يحيى بن سليمان الأوراسي يقوم بجبل أوراس ويمكث كذا وكذا ويموت شهيداً، فوافق الخبَرُ الوَاقِعَ ﷺ وما ينطق عن الهوى، وإن صحّ فهذه بشارة عظيمة بموته شهيداً وناهيك بها شرفاً.

أحمد الأوراسي:

وسمعت من ولده أبي العباس أحمد[3] قال: اطلع والدي على نحو ممّا ذكر، وفي الذي اطلع عليه زيادة وهي: ثم يقوم ولده من بعده. فلم تمض إلّا مدة حتى قام ولده، الناقل لذلك، من بعده إلّا أنه لم تطل أيام قيامه حتى رجع وانسلخ وتاب وسكن البلدَ، ثم خرج[4] ومكث ما يزيد على الخمسة عشر عاماً، وأيام كتبي لهذا التقييد[5] ذُكِر لي أنه قام أيضاً، والله أعلم. وتوفي[6] ـ رحمه الله ـ ( )[7].

17 ـ [التعريف بسيدي أبي الحسن الغربي، رحمه الله، آمين]

أبو الحسن وأبو الفضل الغربي:

ومِمن سمعنا به الفقيه المفتي أبو الحسن الغربي كان والده قاضي الجماعة

(1) يفهم من تعابير المؤلف في هذا المجال أنه كان يتعاطف مع ثورة الشيخ يحيى الأوراسي.

(2) في الأصل (القايمين) ويعني بهم الثائرين، أو المجاهدين حسب المعنى الذي يقصده هنا، إذ يعتبر الشيخ الأوراسي شهيد الحق.

(3) المعنى يقتضي أن أحمد هذا هو ابن الشيخ يحيى الأوراسي.

(4) من قسنطينة إلى جبال الأوراس حيث بقي المدة المذكورة (15 عاماً) غائباً عن البلد، ثم ثار من جديد.

(5) حوالي 1045 / 1637 وبذلك يظهر أن الثورة في الأوراس لم تهدأ منذ قيام الشيخ يحيى وأخيه أحمد وابنه أحمد الخ.

(6) عبارة (وتوفي) تعني الشيخ يحيى الأوراسي الذي هو مصدر الحديث.

(7) بين القوسين بياض بالأصل قدر ثلاث كلمات.

معاصراً للعم[1] إلاّ أنه أسن منه، وهو أبو الفضل المدعو بكنيته، وكان من فقهاء البلدة ومن أهل الشورى والتصدير، وصاده خَبَل في عقله آخر عمره أفضى الأمر فيه إلى أن سجن بسببه. وتوفي (   )[2].

وأمّا ولده فتصدّر للإفتاء بالمدينة المذكورة زمن الجد عبد الكريم ودرَّس بها، وذكر أنه تصدى للتفسير، وكان الغالب عليه فن الحساب والتعديل وله مخالطة/ 29 / بالمنطق. وأخبرني جمع كثير ممن يقتدى بقوله أنه لا باع له في العلم إلاّ أن شهرة أسلافه أورثته المنصب المذكور، ويُنسبون إلى الشيخ أبي العبّاس أحمد الخطيب[3]. وتوفي في سنة (   )[4].

18 ـ [التعريف بسيدي قاسم العطار، رحمه الله، آمين]

أبو القاسم العطار:

ومن سمعنا به الفقيه المفتي أبو القاسم العطّار الأوراري نسباً، هو أخو الشيخ العطار المتقدم الذكر، كان معاصراً للجد عبد الكريم ومفتياً في زمنه، وتصدّر للإقراء والتدريس ودخل الشورى في جملة من أهل عصره، وعَمِي في آخر عمره ولزم الدار إلى أن توفي. وسمعت ممن أثق به أنه من أهل عصره الذين لا باع لهم إلاّ التشبه بالمناصب، والله أعلم. وتوفي (   )[5].

19 ـ [التعريف بسيدي بركات بن سعيد، رحمه الله، آمين]

بركات بن سعيد المغراوي:

ومن سمعنا به قاضي الجماعة ومفتيها الفقيه بركات بن سعيد، نسبة لمغراوة وهو من أهل شورى البلد، وممّن له الرياسة بها كان معاصراً للجدّ أبي زكرياء يحيى

---

(1) يعني قاسم الفكون.

(2) بياض بالأصل قدره كلمتان.

(3) لا ندري إن كان المؤلف يشير إلى أحمد الخطيب المعروف بابن القنفذ صاحب الوفيات (المتوفى 810). وهذا هو الراجح.

(4) ما بين القوسين بياض بالأصل قدره نصف سطر.

(5) ما بين القوسين بياض بالأصل قدره كلمة.

وله تعلق[1] بالفقيه أبي العباس أحمد بن سعيد المغراوي، الذي نقل عنه صاحب (الدرر المكنونة)[2] جوابه عن اشكال صفتي قراءة الفاتحة بالسر والجهر، كذا سمعت النسب من حفيده أبي محمد عبد اللطيف[3]. وتوفي في شوال عام اثنين وأربعين وتسعمائة[4].

20 - [التعريف بسيدي حميدة بن باديس، رحمه الله، آمين]

أحمد بن باديس:

ومن سمعنا به القاضي الخطيب أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن باديس، وهو من بيتات/ قسنطينة وأشرافها، وممن له الرياسة والقضاء والإمامة بجامع قصبتها، / 30 وخَلَفُ سلفٍ صالحين علماء حازوا قصب السبق في الدراية والمعرفة والولاية، وناهيك بهم من دار صلاح وعلم وعمل! وكيف وصاحب السينية وشرح مختصر ابن هشام[5] ينبئك عمّا لصاحبهما من كمال المعرفة والفطنة. ويقال إنه اجتمع فيهم أربعون كلهم صاحب منصب، حازوا المناصب الشرعية ببلدهم والمخزنية[6]. وتوفي في عام تسعة وستين وتسعمائة[7].

21 - [التعريف بسيدي محمد التواتي، رحمه الله، آمين]

محمد التواتي:

ومن لقيناه وقرأنا عليه الشيخ الأستاذ النحرير النحوي آخر المتكلمين لسان حجّة المسلمين، أبو عبد الله محمّد بن مزيان التواتي لقباً، أصله من المغرب من

---

(1) يقصد بالتعلق النسب والقرابة.

(2) (الدرر المكنونة في نوازل مازونة) لأبي زكريا يحيى المازوني، وما يزال مخطوطاً.

(3) سيتحدث المؤلف عنه في الفصل الثاني.

(4) 942 هـ/1535 م.

(5) يقصد به حسن بن باديس المتوفى سنة 787 هـ. والسينية قصيدة في التصوف معروفة مطلعها:

أَلَا سِرْ إلى بغداد فهي مُنَى النفس

ولابن باديس هذا شرح في السيرة النبوية لم يكمله. انظر عنه كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي ج 1، ص 52، 73 الخ.

(6) أي مناصب العلم والسياسة.

(7) 969 هـ/1561 م.

قبيلة الرواشد[1]، وانتقل إلى جبل زواوة، فقرأ ابنَ الحاجب على قطب دائرتها في زمنه الفقيه الصالح أبي محمّد عبد الله محمد بن مصباح، وقرأ النحوَ على الفقيه النحوي أبي محمد عبد العزيز الخراز وغيره من أهل المغرب، وكانت له بالنحو دراية ومعرفة وكان يلقب بسيبويه زمنه. وانتقل لنقاوس فدرس بها.

وكانت شهرته بقسنطينة وبها انتشر علمه وأقبلت إليه الطلبة وانتفعوا به وكثر بحثه وعلت عارضته، وحصلت له مشاركة في الأصول والمنطق والبيان/ بِحَسَبِ الفتح عند مطالعة كتب أصحابها إذ لم يكن له فيها شيخ كغيرها، وله سند في قراءته عقائد الشيخ السنوسي لمؤلفها، ثم إنه أراد أن يرتحل لزواوة في أوائل القرن الحادي عشر، لقراءة السبع فاجتمع إليه خواص البلد لإمساكه وقالوا له: عندك ما يكفيك من العلم وهذا فرض كفاية واشتغالك بتعليم أولاد المسلمين ربّما يكون أرجح، وأجاب عن نفسه: بأنه فرض كفاية تعيّن عليّ طلبُه لما أحسستُ في نفسي من القابلية ورأيت غيري معرضاً عن أخذه وعدم القيام به، فَتُرِكَ، وارتحل للأستاذ الفقيه أبي محمد عبدالله أبي القاسم، وكان قرأه هو على مشيخته الفاسيين[2]. وأقام عنده سنة أو أزيد قليلاً فجاء وقد حصلت له ملكة عظيمة ومعرفة تامة بعلم القراءات.

وكان ـ رحمه الله ـ من جملة الحفاظ، قصدته يوماً لدار سكناه فخرج إلي بيده لوحٌ به ما يزيد على الخمسين بيتاً من الشاطبية الكبرى[3]. ويذكر أنه سريع لحفظه ولأكثر من ذلك العدد. وكان ـ رحمه الله ـ يثني على شيخه المذكور في علم القراءات ويقول إنه يُخلّص نفسه في العربية[4]، وكان ـ رحمه الله ـ ذا خلق حسنة وبساطة/ والغالب عليه نثر الشعر العربي لكثرة اعتنائه به، وكان في مجلس تدريسه متواتر الكلام في علم ما يقريه كأن ما ينفصل منه درر منظومة لا يتعلم[5] ولا يفصل بين

(1) فهمنا من عبارة المؤلف أن التواتي من المغرب الأقصى، ومن ثمة فالراجح أنه يشير إلى بني راشد (الراشديون) مؤسسي مدينة شفشاون بشمال المغرب أواخر عهد بني وطاس. انظر الناصري، الاستقصاء 121/4، ط. 1955.

(2) الظاهر أنه يشير بذلك إلى أن الشيخ التواتي كان قد قرأ علم القراءات على شيوخ من القرويين بفاس.

(3) هي قصيدة (حرز الأماني ووجه التهاني) في القراءات من نظم القاسم بن فِرّة الشاطبي المتوفى سنة 590 هـ. وتسمى الشاطبية الكبرى لأن لناظمها قصيدة أخرى أصغر منها.

(4) يبدو أن المعنى هو أن شيخه كان يجيد القراءات، أما قواعد اللغة العربية فكان فيها وسطاً.

(5) كذا، وهي إما يتلعثم أو يتعمل (أي يتكلف).

اللفظين ولا يتروّى إلا قليلاً، كل ذلك دليل على كثرة حفظه وعلوّ شأنه في بسط العبارة. وكان معتنياً بالنظر ليلاً ونهاراً في غير أوان التدريس. وأخبرني بعض من جاوره أنه يبيت مكباً على المطالعة، وكانت أحواله لا تراه إلا مطالعاً أو ناسخاً وقلّ ما تجده متفرغاً من ذلك.

محنة التواتي:

وامتحن بسبب بعض من لاذ به، وهي[1] سبب انتقاله من قسنطينة إلى باجة تونس فاستوطنها، وحسده أهل تونس وأعطوه الأُذُنَ الصماء وكابروا في انتقاض شأنه بكل ما أمكنهم فيما سمعت عنهم، وأبى الله إلا أن يتم نوره، فوضع الله القبول عند عامتها وأهل باديتها ونشر عليه لواء الولاية في إقليم إفريقية إلى أن توفي بها في طاعون سنة إحدى وثلاثين وألف[2].

ما قرأه المؤلف عليه:

قرأت عليه المرادي[3] سنة إحدى وثلاثين وألف[4] مراراً وعقائد السنوسي بشراحها، وابن الحاجب بمطالعة التوضيح عليه، والتذكرة للقرطبي[5] وحضرته للتفسير نحو العشرة أحزاب، وكتاب مسلم بن الحجاج بمطالعة الأُبِّي[6] وغير ذلك من التواليف، وقرأت عليه حاشية جمع التكسير على / المرادي له[7] من خطه إلّا نزراً منها. وكان ـ رحمه الله ـ يسرّ بمباحثي معه، ولي معه كلام في إعراب الأسيوطي (عدد خلقه) و (رضى نفسه) و (زنة عرشه) وغير ذلك[8]. / 33

(1) أي المحنة.
(2) 1031 هـ/1621 م.
(3) يعني شرح ألفية ابن مالك للمرادي (الحسن بن قاسم) المتوفى سنة 749، ولعله يعني الشرح المعروف بالتسهيل.
(4) كذا (وثلاثين) وهو خطأ، ولعله يقصد إحدى وعشرين وألف.
(5) تذكرة القرطبي في أمور الآخرة، وهو صاحب التفسير المعروف (تفسير القرطبي). ولعله هو الذي يشير إليه المؤلف. وقد توفي القرطبي (محمد بن أحمد بن أبي بكر) سنة 671.
(6) الأبيّ هو محمد بن خلفة بن عمر الوشتاتي شارح صحيح مسلم، وتوفي سنة 828.
(7) المفهوم من كلمة (له) أي للشيخ التواتي.
(8) سيرجع المؤلف إلى الحديث عن شيخه التواتي عند ذكره ابن راشد الزواوي الخ.

22 - [التعريف بسيدي سليمان القشي، رحمه الله، آمين]

سليمان القشي:

ومن أشياخنا في البداءة الشيخ البركة أبو الربيع سليمان بن أحمد القشي نسباً، أصله من بلدة نقاوس، وانتقل إلى قسنطينة مراهقاً بعد موت والده في طاعون سنة ثلاث وستين[1]. وبقسنطينة، قرأ القرآن وقرأ الفقه والرسالة والمختصر[2] على الجد أبي محمد عبد الكريم، ورحل إلى مصر بقصد الحجاز[3] فعاقه عائق تخلف بالجامع الأزهر، فقرأ على شيخ عصره العلاّمة البحر الفهّامة أبي النجاة[4] سالم السنهوري: المختصر والرسالة والألفية وألفية العراقي[5] أو بعضها، وأقام بها مدة ثم رجع إلى قسنطينة وصادف الجدّ المذكور حيّاً، فاشتغل بالإقراء أيضاً عليه إلى أن توفي.

وقد انتفع به خلق كثير لقرب عبارته ووسع صدره فلا تجد المبتدىء يقرأ إلا إليه لبساطة كلامه وحسن نيته وكثرة توفيره وحلو الفكاهة والمحادثة منبسطاً يداعب[6] الصغار والكبار، ملازماً للذكر كثير التلاوة. صاده في آخر أمره مرض أعجزه ومع ذلك لم يقطع التدريس ولو بالسماع عليه. قرأت عليه أوائل الرسالة/ وحضرت باقيها وقرأت شرح الصغرى[7] والقطر[8] والجرومية بشرحها جبريل[9] وبعض أوائل الألفية.

23 - [التعريف بسيدي عبد العزيز النفاتي، رحمه الله، آمين]

عبد العزيز النفاتي:

وممن قرأنا[10] عليه الحساب وبعض الفرائض أبو فارس عبد العزيز النّفّاتي،

(1) 963 هـ/1555 م، وكلمة (تسعمائة) ساقطة من النص.

(2) يعني مختصر الشيخ خليل في الفقه. ويعني بالرسالة رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

(3) يريد بقصد الحج.

(4) في الأصل (أبي النجات).

(5) ألفية العراقي في مصطلح الحديث.

(6) في الأصل (يذاعب).

(7) الصغرى إحدى عقائد السنوسي الثلاث.

(8) قطر الندى وبل الصدى لابن هشام في النحو.

(9) لم نجد معلومات وافية عن جبريل هذا سوى أنه يدعى (زين الدين جبريل)، وقد اطلعنا على شرحه على المقدمة الجرومية كما نشره المستشرق الفرنسي ج. دولفان Delphin، مطبعة أرنست لورو، وهران (الجزائر) 1886.

(10) في الأصل (قرنا).

كان كاتباً لدار إمارة قسنطينة وصاحبَ رأي ومشورة ودهاء عظيم. قرأ هو أيضاً بتونس على رئيس أهلها في العلمين والتعديل الشريف النجار[1]. ومات أبو فارس المذكور بسجن قسنطينة في مغرم لواليها القائد محمد بن فرحات، طلبه فيه فشح بإعطائه[2] إلى أن توفي به، وكان من أحبائنا للّه، رحمه الله وغفر له.

24 ـ [التعريف بسيدي محمد الفاسي، رحمه الله، آمين]

محمد الفاسي:

وممّن قرأنا عليه بعض مسائل الاصطرلاب وبعضاً[3] من الفرائض أبو عبد الله محمد الفاسي، قدم من فاس، نزيل مدرسة الجد المذكورة فتفاوضت معه فيما ذكر من المبادىء، فرأيت منه قصوراً سوى ضوابط معه حتى إنه فتحتُ عليه السنوسي شارح الحوفي[4] في ادِّعائه إقراءَه فلم أجد له معرفة في معاني الألفاظ ولا بالصناعة الكسورية، فأطبقتُ الكتاب لما تحققت من عجزه، وطالعته وحدي ففتح الله في عمل الفريضة بالطريقة الكسرية، فكان يدخل عليّ بالمدرسة فيجدني في عمل ذلك فلا يقدر أن يقول أرني أو أفدني إلا ببعض كلام/ يقتضي العلم من غير طلبه، فكنت ألوي / 35 عنه لما لم أجد له محلاً أضعه، وكان ـ غفر الله له ـ مع هذا مسرفاً على نفسه ( )[5] والإنصاف في ذكر من أخذت عنه هو الحامل على جلبه في معرض من ذكر، وإن كان ما أخذنا عنه إلاّ بعض ضوابط لافتح متون الكتب، ثم تركناه، بعد اشتهار أمره، للّه تعالى.

وهنا انتهى الكلام باختصار في أهل الفصل الأول، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

---

(1) لم نعثر له على ترجمة.

(2) من المفهوم أن المغرم كان لبيت المال وليس لشخص القائد المذكور.

(3) في الأصل (وبعض) بدون ألف.

(4) كتاب الحوفي (زمام الرائض في علم الفرائض)، وهو أبو بكر أحمد بن حوفي الأندلسي، المتوفى سنة 785.

(5) في الأصل بياض قدره خمس كلمات.

الفصل الثاني

فيمن تعاطى المنصب الشرعي لادعائه العلم

وهم كل من ادعى ما لا يصح له من خطة وتدريس وغيرهما إلاّ قليلاً، وفي الحديث كلابس ثوب زور

25 ـ [التعريف بأبي زكرياء يحيىٰ بن محمد، رحمه الله]

يحيىٰ بن محجوبة:

فمنهم، وهو أرجاهم، أبو زكرياء يحيى بن محمّد بن محجوبة، كذا يدعى باللقب المؤنث قديماً وكذا أسلافه[1]، وفي آخر أمره لقّب نفسه بالمحجوب، وهو ممن حاز في زمنه رئاسة الفتوى، وكان له صيت في بلده وتعددت محنه من دار السلطنة[2]، وكثرت سجونه. وكثيراً ما يفر من الأوامر الواردة في الانتقام منه، وأغرم مراراً، وكان قرأ على العمّ قاسم [الفكون] إلاّ أنه لم يتقن ما قرأ عليه، وكانت عنده أخت العمّ المذكور، وهي أخت للجد عبد الكريم/ . وتولى القضاء ونازع فيه القاضي الكماد[3] المذكور، وظهر عليه في آخر عمره. 36 /

وكان ممن له نباهة وصدق بالأمور الشرعية في الفتوى وطريقها دون غيرها من

(1) عائلة ابن محجوبة عائلة قديمة أصلها من نواحي سطيف، ومنها يحيى بن محجوبة القرشي السطيفي الذي ذكره الغبريني في عنوان الدراية، ص 119، وقال عنه إنه توفي سنة 677.

(2) الغالب أن المقصود بدار السلطنة مدينة الجزائر.

(3) القاضي محمد الكماد، انظر ص 44 من هذا الكتاب.

الفقهيات، وتكررت عليه النوازل، وحضر كثيراً من مجالس الشورى، وله معرفة بمواطنها، ولا يخرج إلى الشاذ في فتواه إلّا لغرض دنيوي فيما رأيته وسمعته، وربما خرج عن الجميع، ويطرز فتواه بحكايات ونقول عمن كان عاصره وتوجيهات حتى يظنها الظان أنها صواب، وله فصاحة قلم دون لسان، وبالجملة له حظ وافر عمن سواه في المعرفة والاطلاع لم تكن لمن بعده وإن كان لم يصل بها من سبق، ومع ذلك كان يأخذ الأجر على فتواه تارة بالاشتراط وتارة مكارمة، وكان كثير المداعبة حتى للصبيان، يحب التهاتر إلاّ أنه كان في غالب أحواله منصفاً.

وحَكَى لي غير واحد أنه كانت بينه وبين الجد عبد الكريم مجالس ولا يرجع فيها إلا لقول الجد، وكان مع ذلك يدّعي شيخوخة الجد له وإن كان أسنَّ منه.

قضية المختاري اليهودي:

فمن مواطنهما قضية المختاري أو غيره، وكان قبل أن يُسْلِم يهودياً، ثم إنه أسلم فخدم في جملة شرط الأمير[1]، فوقع ذات يوم مع بعض أناس له مشاجرة إلى أن تعاطى فيها/ جنابَ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم تسليماً، فحُبِس وسجن، واستفتىء في أمره أهل الشورى، وبلغ الأمر إلى الجد فقال بموته واشتهر الأمر إلى غيره منهم أبو زكرياء يحيى المذكور، وكان إذ ذاك مخالطاً للولاة[2]، ولهم معه مشورة في أحوال الرعايا واستجلاب فوائدهم.

/ 37

وتعصب جندُ الشرط وحراسُ باب قصبة البلد المذكورة ورفعوا أمرهم إلى الوالي وسلخوا أنفسهم من وظيف[3] الحراسة وغيرها ممّا لديهم، وقالوا في اعتذارهم إنْ يمت صاحبهم المختاري يُتَجَاسَر على جماعتنا ولا يبقى لنا بين أهل البلد حرم ولا عز، وعضوا ممن[4] شهد عليه وقالوا إن أهل البلد يبغضون في جانبنا ونحو ذلك من تقولاتهم المُلَقَّنة لهم[5].

---

(1) أي باي قسنطينة.

(2) في الأصل (الولات)، ويقصد بهم الحكام والبايات.

(3) في الأصل (وضيف)، ويقصد بـ (سلخوا أنفسهم) استقالوا من وظيفة الشرطة والحراسة.

(4) كذا (عضوا ممن...) والمعنى أنهم هددوا من شهد ضد المختاري، وإن كان اللفظ غير مستقيم.

(5) يفهم من هذه التعابير (أهل البلد يبغضون في جانبنا... تقولاتهم الملقنة لهم) أن هناك إحساساً بالعداوة بين أهل الحضر والسلطة العثمانية ممثلة في الوالي والجند والشرطة الخ.

فأمر الوالي بإحضار أهل الشورى وانعقد بهم مجلس بالجامع الأعظم بمحضره القاضي وغيره وأكابر الدولة وغيرها، وحضر الجدّ ـ رحمه الله ـ وقرىء سجل القائل المذكور، فكل منهم قائل بقول أبي زكرياء، وأنه لا يلزمه قتل على ما أفتى به أبو زكرياء وجلب لهم من الأنقال وأتى بعدّة كتب كالشفاء[1] وغيره، وأحضرها المجلس، والعامّة بصحن المسجد حاضرون وأهل حراسة/ القصبة[2] وكل جندها 38 / ينادون على رؤوس الملا: أنا خرجنا من الحراسة، ويقولون للوالي والقاضي: انظروا من يحرسكم، نحن خرجنا من ذلك الوظيف[3] إنْ مات صاحبنا.

وكل ذلك وأبو زكرياء ناصرهُم وشادٌّ عضدَهم والمجلس منعقد، وقد أبدى ما عنده في القضية كما ذكر ولم يغير عليه أحد من أهل الشورى وليس لهم إلاّ متابعته، والجدّ صامت لا يلوي على أحد، أعطى[4] الأذن الصماء لكل الجمع، على عادته في حضوره مجالس الشورى. فلمّا أن رأوا من حاله ما ذكر نادوه مستخبرين ما عنده: ما تقول في هذه القضية؟ فأجابهم: ليس عندي في هذا إلاّ موت القائل وإهدار دمه، فيقول له أبو زكرياء يا سيدي لا يلزمه الموت، وربّما يقسم بالله أن الحكم في القضية أَنْ لا موت تلزم القائلَ، ويعلن بذلك ويتطاول، فينادي الجمْعُ بندائه: لا موت لا موت يلزمه! فيسكت لهم الجد إلى أن يفرغ صياحهم ولغطهم، ثم يعيدون عليه السؤال فيجيبهم: إنه لا بد من قتله، فيقول له أبو زكرياء: يا سيدي اقرأ هذه النصوص وتأمّلْها، فيجيبه الجد بأنه يعرفها ومطلع عليها، وحُكِي لي أنه ربّما يضرب الجدُّ بسبابته على جبهته ويقول هي هنا يعني أن نصوص الكتب/ عنده في رأسه محفوظة 39 / ـ رحمه الله وغفر له ـ.

فلما رأوا من حاله ما ذكر أرادوا فصل الموطن[5] لتقع لهم فسحةٌ في خَلاَصِه، فجعل الوالي نفسَه أنه قام غضباناً إذ لم يوافقهم[6] على مطلبهم، وناداه القاضي: يا

(1) لعله يقصد به كتاب الشفاء للقاضي عياض.
(2) المقصود بالقصبة مقر الحكم أو دار الإمارة كما يسميها المؤلف أحياناً.
(3) في الأصل (الوضيف).
(4) في الأصل (أعطا).
(5) يريد بـ (فصل الموطن) إنهاء الاجتماع.
(6) أي الشيخ الفكون (الجد).

فلان أنت القاضي أو أنا هو القاضي؟ فقال له: في هذه القضية أنا هو القاضي أو كلاماً هذا معناه، فخرج هو أيضاً غضباناً. فعندما رأى الجدّ من أحوالهم ما ذكر وأنهم غير منتصرين للدين ولا قائمين بواجب سيّد المرسلين حلف وأقسم أنه لا ينتقل من مجلسه ذاك إلا أن يقام حقّ الله في ذلك الشقي، وقال لهم استفتوا أهل العلم والمعرفة فإن أخطأتُ في قولي العهدة علي، وصمّم ـ رضي الله عنه ـ وقام في حق الله وحده ولم يلو في ذلك عناناً، وربّما يقول له ناصح نصح: إنكَ عرضت نفسك لأمر صعب من حنق الأمير والقاضي والعامّة، فلا يزيده ذلك إلاّ شدة في ذات الله وحرصاً على إنفاذ حكم الله.

فلما رأى أهل الشورى شدته ي الأمر وانتصاره وعدم اكتراثه بمن قام أو قعد أراد أبوزكرياء قَطْعَ حجته فقال له: يا سيدي هذه من الأمور المهمة وحيث ظهر لك قتله فلا يكون بالقول فقط بل لا بد من خطك في/ القضية وإبداء ذلك بالبنان لا باللسان، فعند ذلك أجابه الجدّ بأن قال له أما هذا فنعم! وبادر لما أرادوه منه من الكتابة وأخذ بطاقة فورياً وسطرها بما وفقه الله إليه بديهياً من غير تروٍّ ولا تفكر ولا تذكر.

ثمّ بعد فراغها قام على قدميه وقرأها على العام والخاص، فحُكِي لي أن كل من سمعها خشع واغرورقت عيناه دموعاً، ونادى الجَمْعُ بالصلاة والسلام على سيدنا محمّد وآله، وبهت القوم وأخرص أهل الشورى ولم يقدر أحد يردّ كلاماً ولا يخالف في مسألة بل بادر الجمع، أعني أهل الشورى، إلى موافقته ببنانهم وأفصحوا بأن هذا هو الحق بلسانهم وناولوا أبا زكرياء البطاقة للموافقة، فحُكِي أنه من إنصافه أقسم أن لا يضع خطّه إلا أخيراً، وسارع إلى تقبيل يد الشيخ الجدّ ـ رحمه الله ونفع به ـ ووضع خطه أخيراً، ولم ينفصل المجلس إلا عن قتل ذلك الشقي، وصدَّق الله يمين الجدّ وبرّ قسمه في حلفه أَنْ لا يقوم من محلّه إلا أن ينفذ حكم الله في ذلك الشقي، ورجع الوالي وحكم القاضي بفتواه[1]، ورجع أبو زكرياء إلى قوله وأفصح بالثناء والانقياد إليه، للّه درّ الجدّ ما أشدّ قيامه في ذات الله! وللّه در أبي زكرياء ما أنصفه! وربّما/

(1) أي حكم بفتوى الفكون الجد القائلة بقتل المختاري.

تعدّ هذه من بعض كرامات الجدّ، وكم له مع أبي زكرياء من مقام أوّله مشاجرة وآخره رجوع إلى الطريق وهداية وإرشاد، كل ذلك دليل على إنصافه.

الوالي محمد بن فرحات:

وممّا وقع لي معه بمحضر من أهل الشورى أهل عصره، ووالي البلدة إذ ذاك القائد محمد بن فرحات[1]، أنَّ حبساً من قِبَل ابن ميمون سماه باسم الصدقة وعقبه، فأراد[2] التوجه بفسخه للأمير، وكانت بنت من بنات العقب عجوزة للوالد[3]، فنازعه الوالد بأنه حبس لا يفسخ ولا يوهنه قوله بَتْلاً بَتّاً، وادعى[4] فسخه، وجلب على ذلك ظواهر لم يفهم باطنها ومَهْمَهَ بعبارته ولقْلَقَتِه حتى ألجمتْ متابعيه[5] إذ لا باع لهم إلا الانقياد في أقواله وأفعاله، وعقدوا له مجلساً بالجامع الأعظم، وصال إذ ذاك في المحفل.

وكان أجاب بعدم فسخه الشيخ التواتي[6] وجماعةٌ من فقهاء العصر، فأطلعوه عليه فذكر في المحفل أنه لا يعرف هذا ولا هو من أهله أو كلاماً يقرب، وصارت فئته المقلدة له تسخر بكلام الشيخ المذكور[7]، وحضر الوالد فأجابه ففاجأه بأنه مغالطة، فانزعج الوالد ـ حفظه الله ـ وطلب مني الخروج إليه في المحفل، فلم يكن إلّا ساعة فخرجت فكان بيني وبينه ما كان السببَ في تقييدي في المسألة الكراسةَ المشتهرةَ/ 42 / عند أهل البلد، وأطلعه عليها جدي للأم مِزْوار الشرفا لطلبها مني، فما بلغني عنه إلّا الانصاف في ذلك، وكان هو قيد بعض شيء فكتمه[8] عنده وأخفاه ـ والله أعلم.

---

(1) ذكر فايسات أن القائد محمد بن فرحات مات سنة 1607 م/1016 هـ عندما حاول النصارى الاستيلاء على عنابة. وبذلك تكون الحادثة التي يتحدث عنها الفكون قبل هذا التاريخ.

(2) يقصد به ابن محجوبة.

(3) لا ندري ما إذا كان المقصود بعبارة (عجوزة للوالد) أنها في رقبته أو هي حماته.

(4) يعني ابن محجوبة.

(5) في الأصل (متابعوه).

(6) شيخ المؤلف وقد سبق الحديث عنه.

(7) أي الشيخ التواتي.

(8) في الأصل (فكم)، والمقصود أن ابن محجوبة قيد بعض الأمور في المسألة التي وقع فيها الخلاف مع المؤلف ووالده، فلما اطلع على جواب المؤلف كتم عِنْدهُ ما قيده ولم يظهره للناس.

26 - [التعريف بأبي عبد الله محمد بن قاسم الشريف، رحمه الله]

محمد بن قاسم الشريف:

ومن أهل الفتوى الجدُّ للأم مِزْوار الشرفا أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد الشريف الحسني، أبو والدتي - غفر الله له ورحمه - كان تصدّر للفتوى في زمن الجد، وكان له فضل معرفة وإدراك، قرأ على سيدي الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن حسن المذكور[1]، وقرأ بعض المرادي على شيخنا أبي عبد الله التواتي. وكان ذا زي حسن وسمت وعلو همّة وسموّ رفعة، صاحبَ قلمٍ عبارةً وخطّاً، يفهم المسائل ويحقق المباحث إلّا أنه آخر الأمر صار إلى تقليد أبي زكرياء[2] في كل ما يفتي به صحيحاً أو خطأ، وربما نسي ما كان عنده من المسائل فكان - رحمه الله - إذا ذُكِّر في مسألة فكأنما رُفِعَ من قعر بئر فيقول نعم كذلك هيه. ومن اتباعه في الفتاوى التي ليست بمصيبة وعدم إتقانه عدَدْناه في سلك أهل هذا الفصل. وامتحن - رحمه الله - في سنة (   )[3]، وأراد العسكر قتله، وسجل عليه أن لا يرفع قلماً ولا يصعد لدار الإمارة، وبقي مدة كذلك وأطلقت يده، ومات بعد وفاة[4] أبي زكرياء، مستقلاً/ بتصدير الإفتاء مرجوعاً إليه في النوازل والأحكام.

27 - [التعريف بسيدي يحيى بن باديس، رحمه الله، آمين]

يحيى بن باديس:

وممن لقيناه الفقيه أبو زكرياء يحيى بن الفقيه القاضي أبي العباس أحمد المدعو حميدة بن باديس المذكور[5]، كان - رحمه الله - حَيِياً ذا خلق حسن كثير المداعبة والهشاشة، كثير التواضع للصغير والكبير والرفيع والحقير، سالم الصدر من نفاق أهل عصره، كثير القراءة لدلائل الخيرات[6]، ذا تلاوة لكتاب الله على ما قيل لي. وكان

(1) انظر ص 38 من هذا الكتاب.
(2) يقصد أبا زكريا يحيى بن محجوبة الذي اشار إليه.
(3) في الأصل بياض قدر كلمتين.
(4) في الأصل (وفات).
(5) انظر ص 57 من هذا الكتاب.
(6) من تأليف محمد بن سليمان الجزولي المتوفى سنة 870، وهو كتاب في التصوف.

قبلُ نائباً عن قضاة[1] العجم في البلد المذكور[2] وخطيبَ جامع قصبتها، على حسب طريقة أمر القضاة[3]، لا يأتيه شاكٍ إلا ورحّب به وأخذ بخاطره، جميل المواصلة للأقارب وإكرام الأجانب. وهو من المحبين لجدي للأم المذكور، وجاملَ تركة جدي للأم بعد موته مجاملة حسنة راعياً حبّه وحفظ مودته بعده، وهو ممّن قرأ على سيدي محمد بن حسن[4]، وكان يقرأ على الجد عبد الكريم المذكور، وكان كثيراً ما يستخلفه للصلاة والخطابة.

فتنة أخرى بقسنطينة:

وامتحن ـ رحمه الله ـ حين امتحان الجدّ مزوار الشرفا المذكور، وكانت قضيتهما في يوم واحد، وسجل عليهما جميعاً بعد أن أشرفا على الهلاك من فتنة العسكر، وهو ممن أدرك الشيخ الوزان، ويأتي بأوصافه وبعض حالاته. توفي/ في 44 / رمضان ( )[5].

28 ـ [التعريف بسيدي أحمد الجزيري، رحمه الله، آمين]

أحمد الجزيري:

وممن لقيناه الفقيه المسن أبو العبّاس أحمد الجزيري، كان ـ رحمه الله ـ مدرساً من أهل الفتوى والدخول في الشورى، وتولى النيابة في القضاء عن قضاة[6] العجم. وكان يصلي بقواد المدينة في رحيلهم عن البلد بمحلتهم، وكان لا تشاء تراه مدرساً إلا رأيتَه، ولا فقيراً من أهل الفقر على طريقة البلد إلا وجدتَه، وكان يحمل الناس معه إلى زيارة قبور الأولياء خارج البلدة، حسن الخلق كثير المواصلة، وكان في ابتداء أمره له نباهة وصدق.

---

(1) في الأصل (قضات)، والظاهر أنه كان في رتبة باش عدل.
(2) يعني قسنطينة.
(3) في الأصل (القضات).
(4) ذكره فيما مضى، انظر ص 45
(5) ما بين القوسين بياض بالأصل قدره نصف سطر.
(6) في الأصل (قضات). والظاهر أن المقصود بالعجم الأتراك أو العثمانيون.

وفي آخر أمره اعتراه بعض نقص في إدراكه، ويقال إن سببه أكل البلاذر[1]، ولم يتقن صنعته حتى يُذكَر أنه لما استعمل شربته[2] أوصى أن لا يوقظ من نومه إلا باختياره فعرض له ما أيقظه[3] فانتبه مذعوراً[4]، فبقي في عقله منه بعض أثر، ويقال إن سبب ذلك في عقله ليس إلا رعبٌ شَرِبَه من بعض أماكن هواء البلد وهو المحل الذي يدعى عند العامّة بمكتب[5] الشيخ سيدي علي بن مخلوف، إذ كان[6] ـ رحمه الله ـ كثير البحث على الكنوز وتخديم الروحانية، ولم يحظ[7] بطائل من ذلك، فيقال إنه ذات ليلة قصد ذلك المحل فوجد فيه شخصين لامرأتين لابستين جلود الضأن يرقصان / على مجمرة من نار فرُعِب وخُطِف عقله، وإذا ذَاكَرْتَهُ تجد أثر ذلك في لبه. / 45

وكان يتعاطى التفسير والفقه ويدّعي الأستاذية في السبع[8] ومعرفة أحكام القرآن.

قصة عبدالله بن غرارة:

أدرك زمان سيدي عبدالله بن غرارة، وهو شيخ شيخنا في القرآن العظيم سيدي بلقاسم الزواوي، ويلقب بابن ثلجون[9]. وكان لسيدي عبدالله هذا معرفة بالعزائم والتخديم ذا حكمة ظاهرة فيه. حكى لنا شيخنا سيدي بلقاسم المذكور بعض مواطن تدل على إتقانه لذلك ومعرفته.

فمن ذلك ما ذكر لنا أنه كان ذات يوم بمحل إقرائه والتجويد عليه لكتاب الله والطلبة محدقون به، إذ قدم أشخاص من قبايل البربر ومعهم مصاب على أعواد

(1) في الأصل (البلادر)، وهي نبتة لها حب من أكله اعترته وسوسة ونقصان عقل، ويوجد وصفها في الكتب المختصة بالأعشاب.
(2) في الأصل (سربته).
(3) في الأصل (أيقضه).
(4) في الأصل (مدعورا).
(5) يعني بالمكتب مدرسة قرآنية أو كتّاب.
(6) أي الشيخ الجزيري.
(7) في الأصل (يحض).
(8) أي القراءات السّبع.
(9) سيتحدث المؤلف عن بعض أفراد هذه العائلة (ابن ثلجون) فيما بعد. أما كلمة (أدرك) فيعني بها احمد الجزيري.

يحمل، وبين أيديهم ثور أسود في غاية الخلقة الحسنة والسمن، فما[1] راعهم إلا وهم يسألون عن سيدي عبدالله المذكور، فوقفوا بين يديه وسألوه الرقية لمصابهم، وأخبروه أن الثور المذكور أجْرٌ على البرء، فأمر بوضع المصاب بين يديه، فوُضِع كالخشبة الملقاة[2]، فراود الجنيَّ فاستهزأ به فأمـر إذ ذاك بالنار تحضر وأخذ في خرقة بعد سجنه، فما راعهم إلاّ والجني ينادي متوسلاً إلى الفقيه المذكور في رفع يده عنه والفقيه/ المذكور يحرض[3] عليه في الخروج والتوبة ويقول له لأيِّ شيء فعلت هذا الأمر لمسلم أو مؤمن أو نحوه، فأخبره بالسبب الذي من أجله أصيب وتوسل إلى الفقيه سيدي عبدالله أن يعفو عنه ويخرج من قرب المصاب ولا بقي يعرض له، فعند ذلك قال له الفقيه المذكور: أخبرني عن كتابي الذي ضاع. /46

وكان للفقيه المذكور كتاب فيه من الأسماء والطلاسم ما يستعين به على ما هو بصدده وعزائم به وخواتم وغير ذلك. وكانت للفقيه ابنة وكان الطلبة طلبوها في إتيانها به لهم، فاختلسته لوالدها ومكنته لهم فنسخوا منه وردوا بعضاً وتركوا بعضاً فلم يجده الفقيه المذكور، فسأل الجنيَّ المذكور عن ذلك، وكان الطلبة إذ ذاك حاضرين الموطن فبهتوا وكأنما وقعوا في مهواة[4] لما علموا أن سيكشف الجنيُّ حالهم، فقال له الجني: كراريس منه في كذا في محل كذا وكراريس بدار فلان في كذا، كل ذلك يقول لمن أخبر به الجني قم يا فلان وات بما عندك إلى أن استوفى جميع الكتاب بإخبار الجني عن ذلك، وعاتبهم معاتبة برفق ولم يحقد عليهم، وتذللوا إليه واعتذروا، وقَبِل ذلك، وعاهده الجني في مفارقة المصاب، وكتب للمصاب تميمتين، وقام المصاب في موطنه ذلك كأنما نشط/ من عقال، فانتبه دهشاً مذعوراً[5] كأن لم يكن بين الآدميين، ففرح به أهله وسلَّموا الثور ورجعوا إلى وطنهم وأهلهم، وتوفي[6] (   )[7]. /47

---

(1) في الأصل (مما).
(2) في الأصل (الملقات).
(3) في الأصل (يحرد).
(4) في الأصل (مهوات).
(5) في الأصل (مدعوراً).
(6) الغالب أن المؤلف يخبر عن وفاة أحمد الجزيري السابق، رغم طول الاستطراد، وقد يكون قاصداً الشيخ عبدالله بن غرارة.
(7) ما بين القوسين بياض بالأصل قدر ثلاث كلمات.

29 ـ [التعريف بسيدي محمد السوسي، رحمه الله آمين]

محمد السوسي الفاسي:

وممن نزل قسنطينة واستوطنها الفقيه أبو عبدالله محمد السوسي، قدم أيام ارتحال شيخنا أبي عبدالله محمد التواتي[1] عن قسنطينة في سفره لباجة تونس، وأصله من المغرب من فاس فيما يقول، وذكر أنّ له مشيخة جمة وادعى في المعرفة دعوى واسعة. ومما وقع لي معه ـ رحمه الله وغفر له ـ أنه في ثالث يوم أو رابع ارتحال الشيخ المذكور[2] قدم علي في حالة جندي أو أعرابي لا يؤبه به فسلّم عليّ فسلمت عليه سلام زيه ثم جلس بإزائي، فاستفهمني عمّا أهمّني لأني كنت غير سالي الباطن من فراق الشيخ المذكور، فأعلمته بذلك فشكر لي ذلك، ثمّ رأيت من مخاطبته ما يدل على مخالفة منظره، مِنْ بَحْثه على الطلب وتسمية الكتب، فاستخبرته فذكر لي انتسابه ووطنه وقدومه مع الأعراب ومخالطتهم هو الذي أوجب تزيّيه بزيهم إذ إنه فيما يذكر أقام عندهم زماناً.

فأقبلتُ عليه بكليتي وسلمت عليه سلامَ أهله واستفصحت باطنه فذكر لي أنه أتى بقصد القراءة/ وانتسب لي لجانب العلم ومخالطته وأخذه عن علماء أجلة من المغاربة الفاسية، فاستخبرته عن معرفته بالعلوم وما هو فيه نشيط[3] الحركة، فذكر لي أن كل العلوم عَلِمَها، هذه عبارته، فاشمأزّت نفسي من عبارته، فرأى مني انقباض حالة فاعتذر لي بقوله إلا أني لا أدري هل معي تحقيق أم لا أو كلاماً هذا معناه لم أتحقق الآن لفظه، فانبسطت إذ ذاك معه.

/48

وسألني عن معرفتي بالنحو وعن ما وقع لابن غازي[4] في تعليقه على المرادي من أوجه الأعاريب التي يعرب بها قول ابن مالك:

بالجرِّ والتّنوينِ والنِّدا وألْ البيت[5]

---

(1) سبق للمؤلف أن تحدث عن شيخه التواتي، انظر ص 57.

(2) أخبر المؤلف في مكان آخر أن الشيخ التواتي رحل عن قسنطينة سنة 1023.

(3) في الأصل (نسيط).

(4) هو محمد بن أحمد المعروف بابن غازي المكناسي، له تآليف كثيرة، وتوفي سنة 919 هـ.

(5) تتمة البيت هي: ومسنَدٍ للاسم تمييزٌ حَصَل

ثم بعد هنيئة طلب مني أن أقريه التسهيل لابن مالك، وألح عليه[1]، فدافعته بتشتت البال وما أنا فيه من الكدر لنقلة الشيخ التواتي المذكور، فقبل العذر وأعلمني أنه يأتي بأهله من حلة[2] الأعراب ويستوطن البلاد، وبعده، إن يسر الله في القراءة، تكون مع تفرغ البال وارتفاع عارض التشويش، فوادعني ومضى لما ذكر.

ثم بعد ليال قلائل قدم ونزل على بعض الطلبة واجتمع بي وأتاني بعد ذلك بكراريس على القرطبية[3]، وندبني إلى التأمل فيها وما كان فيها من الإصلاح طلب مني إصلاحه، ولم أشعر أنها له إلا أن الشك داخلني من قوله: أصلح ما/ ريت[4] 49 / فيها غير موافق، إذ لو لم يكن له ما أَذِنَ في الإصلاح فتأملتها بالليل فإذا هي محتوية على فساد فظيع[5]، فوقفت في الورقة على ما يزيد على الخمسة مواضع، وإذا هو يضع التأليف المنقول منه أمامه وينقل فيه، فما طابق في الأصل نجده مطابقاً وما خرج[6] عن ذلك نجده مسطراً في غير موضعه، فوقفت على عدّة أماكن في كل ورقة بقولي: تأمّلْ وانظرْ وأعد النظر ونحوها من العبارات المتفقة المعاني والقريبتها، وناولته إياه. فمن ذلك الحين ما راجعني فيه ولا نسبه إليه إلا ما أسمعُ على لسان الطلبة.

ثم بعد ذلك انتَمى إلى بعض المتشبهين بزي الفقهاء من أهل العصر، فأشاد بذكره ونوه به واجتمع عليه حاشيته وأصحابه للإقراء، وانتصب للتدريس ونسي ما طَلَبَ من القراءة وطَلَبِ الإفادة، وأبدى[7] للناس أنه صاحب علوم ولو انقرضت كل العلوم لأحياها وفرح بما لديه، وكان قبل هذا بدأ القراءة لبعض المبتدئين في متن الصغرى[8] ومتن الجرومية، وحضرت مبدأه بعد إلحاح منه، فأخذه عارض الدهشة

---

(1) أي على قراءة كتاب (التسهيل) الذات.

(2) أي من محلة الأعراب التي كان بها.

(3) أرجوزة في الفقه، وممن شرحها الشيخ أحمد زروق.

(4) كذا (ريت) على نحو العامية، وهي (رأيت).

(5) في الأصل (فضيع).

(6) عبارة (وما خرج) مكررة بالأصل.

(7) في الأصل (أبدا).

(8) في العقائد للسنوسي.

والرعب والخجل عند استقراري بالمجلس وصار كأنه في بيت مظلم عَسُر[1] عليه الخروج من بابه والعثور عليه يتشبث[2] بكل حائط لكي يجده فلا يستطيع، حتى إن من أعظم / ما سمعتُ منه إذ ذاك أنه قال: اختُلِف في نبينا محمد - ﷺ - وموسى أيهما أفضل؟ والمختار أن نبينا أفضل، فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يهذو[3] هذياناً أو زاغت به آراء أهل البدع، فقلت للطالب اقرأ في الجرومية. وقمت منصرفاً. / 50

وبعده اشتهر عنه أن القدرة آلة وأنه لا يجوز وصف سيدنا النبي - ﷺ - بالسيادة في الصلاة ونحو ذلك من الأمور. وقد أودعنا بعضها تأليفنا المسمّى (بنظم الدرر في شرح مختصر) سيدي عبد الرحمن بن صْغَيّر (الأخضري)[4]، وبقي على ذلك مدة وهجرتُه لله ولِمَا نُقِل عنه وما عليه اعتقاده. ثمّ بعد مدة راجعَ الأمرَ وذكر أن المنقول عليه إنما هو كذب، وأبدى[5] لي أخوة صادقة فواخيته لأجل رجوعه وانتهائه، واعترفَ بالقصور.

وجعل لي نظماً مادحاً لي فيه، وأثنى على بناء دار أسلافي التي جدّدتُ بناءها، قافِيتُه تقف على حرف الضاد، وأنهى إليّ أنه مستصعب الحرف عند الشعراء، فأجبته بمثلها وزناً وحرفاً، وضمنتهما تأليفنا المسمّى (بمحدّد السنان في نحور إخوان الدخان) والفرق بينهما يعرفه أهله فلينظرا هناك[6].

ثم إنه سافر للجزائر دار إمارة قسنطينة[7]، طالباً على منصب الفتوى والدخول في أمور، وامتدح أميرها[8] إذ ذاك، فاخترمته / المنية قبل رجوعه ودفن بها[9]، غفر الله / 51

---

(1) في الأصل (عمي) وحولت في الهامش (عسر).
(2) في الأصل (يثبت) وأبدلت في الهامش (يتشبث).
(3) كذا في الأصل (يهذو) وهي (يهذي).
(4) ما بين القوسين زيادة من عندنا.
(5) في الأصل (أبدا).
(6) اطلعنا على القصيدتين، وقد ذكرناهما في كتابنا (شيخ الإسلام: عبد الكريم الفكون)، بيروت 1986. وقد تحدث المؤلف عن الشيخ السوسي في كتابه (محدد السنان) أيضاً.
(7) يقصد مقر السلطة المتحكمة في قسنطينة. ونفهم من هذا أن سلطة الجزائر هي التي تعين المفتيين وأصحاب المناصب العليا في الأقاليم.
(8) باشا الجزائر عندئذ هو حسين الشيخ الذي تولى سنة 1022، وقد يكون خلفه مصطفى خزناجي الذي تولى سنة 1025 لأن سنة سفر السوسي للجزائر غير محدّدة.
(9) أي بمدينة الجزائر.

له ورحمه. وكانت وفاته في سنة (   )[1].

30 ـ [التعريف بسيدي حميدة بن حسن الغربي، رحمه الله آمين]

أحمد الغربي:

وممن لقيناه أبو العباس أحمد المدعو أحميدة بن حسن الغربي، هو حفيد أبي الفضل القاضي المذكور[2]، كان في أول زمانه ممّن أحبّنا لله وأحببناه فيه وكان ذا نجابة في أحوال الدنيا وطلب رياستها، تولى النيابة عن قضاة العجم وامتُحن من الولاة[3] كثيراً وسُجن وأغرم المال مرات، وتشكّت به العامّة، وكان مقلياً عند الخاصة، وينسبون إليه أموراً لا يليق صدورها بعاقل، وكان يخدم الولاة[3] ويعظمهم ويمتهن نفسه في موالاتهم ويعطيهم الرشا، وربّما يقال ـ فيما اشتهر ـ أنه يتوسط لهم في ذلك من أهل البلد والرعايا وينال هو من ذلك حظاً.

وتولى خطة الفتوى في زمن أبي زكرياء ابن محجوبة، وكانت له يد عليه في بعض الأحيان إلّا أنه كان يستعين عليه بالجمع الخاص وفريق العامة، وبعد وفاته[4] استقل برياستها في التصدر، وكان أمي الخطاب والكتابة، لا يعرف طريق الخط ولا يحسن الوسم، غير عارف بالهجاء حتى إنّ في غالب أحواله يتفقد من يجالسه من أحبائه مكاتبه[5] ليصلح ما فيها من فساد الرسم، وكان في ابتداء/ أمره منصفاً واقفاً / 52 عندما يُحَدُّ له، وكان يتمنى أن لو رجع الأمر إليه لأصلح من أحوال الشرع ما أفسده مَنْ سبقه. وربّما كان يلجئه الأمرُ في إنكار ما يصدر من غيره إلى أن يتوسل ويقسم في تعريفه وجهَ الحق ليصدع به، وقد يُكْتَب له الإفتاء في بطاقة ويصدع هو بها عند نقلها بخطه ليستظهر على غيره وينسبها إليه، وكان من عاصره لا يعتقدون صدورها منه لأنه عندهم بالحضيض الأسفل في ذلك الأمر فكانوا يقولون إنها منقولة من والدي[6]

---

(1) ما بين القوسين بياض بالأصل قدر كلمتين، ولكن المؤلف ذكر تاريخ وفاة السوسي في مكان آخر وهو بعد سنة 1023.

(2) انظر ص 40.

(3) في الأصل (الولات).

(4) أي وفاة ابن محجوبة.

(5) أي كتاباته.

(6) أي والد المؤلف، وهو محمد الفكون، انظر ص 52. ولاحظ استعمال عبارة (حفظه الله) التي تكررت في النص. فهي تدل على أن والده لم يكن قد مات عند تحرير جزء من هذا الكتاب.

ـ حفظه الله ـ أو من ولده جامع هذا التقييد[1]، لأنه كان في غاية الانتماء إلينا وإظهار الوداد البليغ في جانبنا.

فلما إن انتهت رياسة الخطة إليه أعطَى الأُذنَ الصماء، ولوى عمّا كان يَعِد بالقيام بالحقّ أشد إلواء، إلاّ أنه كان لا ينسى الصنيعة، ولا يقاطع أفظع[2] قطيعة، بل يعتذر ويبر ويعترف ويقر، وربّما يقول لي أحياناً إن الثقة بمحبتك لا أظن، إن قبل الله عملك، تتركني ـ عامله الله بنيته ـ.

ثم صاهرني بابنته وبقيت عندي ما يقرب من الثلاث سنين، إلى أن وقع منها أمور لا يمكن إبقاؤها مع ذلك، ففارقت سبيلها فاشتد حنقه، ومع ذلك يعامل في المواجهة بما هو معهوده من غاية التواضع / ورؤية التقصير في نفسه، ويسارع في قضاء المآرب وينتهي إذا نُهِي ويأتمر إذا أمر. / 5

قيام العامة ضد الغربي:

وكان في آخر أمره قامت عليه العامة وخرجوا لدار إمارتها شاكين به بسبب دخوله في أمور الرعايا والأجناد وتوسطه بين أعراب المدينة ومتلصصيها وبين ولاتها. وعصمه الله من شرهم إذ ذاك وإن كان أرشى على سلامته من مكرهم بمال، ولم يمكث إلا قليلاً بعد ذلك حتى توفي على فراش العافية بداره آمناً[3]، وكان الناس يرون أنه لا يموت إلّا على أسوأ حال، فكانت عاقبته ما ذكرناه، مع زيادة ثباته عند الموت ولهجه بكلمة الشهادتين فيما أُخْبِرتُ به ممّن حضره كالوالد والشيخ سليمان[4] وغيرهما.

مسجد أبي مصباح عبد الهادي:

وظهر بذلك مصداق ما كنت رأيته في عالم النوم وذلك أني رأيت الشيخ الصالح سيدي أبا مصباح عبد الهادي رجلاً آدم اللون طوالاً[5] في حائك ملتحف لبيساً نظيفاً[6]. على رأسه شاشية حمراء ملفاً وهو المعبر عنه في عرفنا بالكبّوس الفاسي.

---

(1) يعني المؤلف نفسه، والتقييد هو (منشور الهداية).

(2) في الأصل (أفضع).

(3) توفي الشيخ أحمد الغربي سنة 1030 / 1620 كما سيذكر المؤلف نفسه ذلك بعد قليل.

(4) الغالب أنه يعني به سليمان القشي الذي سبق ذكره، ص 58.

(5) آدم اللون أي أسمر، وطوالاً يعني فارع الطول. وفي الأصل (أبي مصباح) بدل (أبا...).

(6) في الأصل (نضيفا).

وكان سيدي حميدة الغربي جاء خبره أنه مات، فقصدنا داره لننتظر قدوم الناس فأبطأ علينا مجيئُه، فرجعت فوجدت/ ذلك الشخص بباب الرصيف من أحد أبواب جامع / 54 البلد الأعظم جالساً في عتبته أو واقفاً، الشك الآن وقع لي والغالب على الظن جلوسه، فألهمني الله أن ذلك الشخص هو الشيخ الصالح سيدي عبد الهادي المذكور فإمّا سألته أو قال لي: أحميدة الغربي اتفق الأولياء على قتله. فحدثت لي منازعة في كلامه حتى قلت له كيف اتفق الأولياء على قتله؟ أعاد عليّ مقالته قائلًا: اتفق الأولياء على قتله، فانتبهت وأخبرت بالمقالة أصحابنا، وبقيت منتظراً لخروجها نحو الخمس سنين. وكنت في كل نكبة تقع له أحسب قتله حتى مات ـ رحمه الله ـ على الحالة المذكورة، فعلمت صدق الرؤيا وإشارة الشيخ في أن اتفاق الأولياء على قتله أن قتله إنما هو بأمر سماوي لا بمباشرة مباشر وأنه أيضاً محفوظ من أيدي الأمراء إلا ما كان من رأي الأولياء وإشارتهم في نفوذ قتله. وكنت أرى هذا من الشيخ لمخالطته مسجده[1] واستيلائه على خراج رَبْعِه وتصرفه في بعض ما حبس عليه.

عسكر الجزائر يهدم دار الكماد:

وذكّرتني هذه الحكاية حكاية في بعض ما حبس عليه الشيخ الصالح مع أولاد الكماد وهو أبو عبدالله المذكور[2] وأخوه أبو عبدالله محمد، وكان هو أيضاً نائباً عن قضاة[3]/ العجم بعد والده القاضي الفقيه المذكور، وكان من عدول البلد وممن له / 55 الخطة التوثيقية، وكان أخوه أبو عبدالله المذكور ناظراً على مسجد الشيخ الصالح سيدي عبد الهادي، واستغرق في قبض وجبية رباعه وأدخل بعضها في مصالحه وغفل عن إصلاح مسجده فَرِيِىءَ الشيخ المذكور في النوم في صفته المذكورة[4]، وهو بيده فاس يهدم في دار أولاد الكماد المذكورين، فقيل للشيخ يا سيدي ما هذا؟ فقال هدموا داري أو هُدِم داري، الشك مني في اللفظ، أهدم دارهم أو داره على شك مني

---

(1) أي مسجد الشيخ أبي مصباح عبد الهادي، ويقصد المؤلف أن الشيخ أحمد الغربي قد تصرف في حبس جامع الشيخ مصباح فتنبأ له هذا بتلك النهاية.

(2) سبق الحديث عن محمد الكماد، ص 44.

(3) في الأصل (قضات).

(4) أي السمرة والطول واللباس الذي ذكره له سابقاً.

في تحرير اللفظ. فلم يبق إلاّ مدة يسيرة حتى هدم دارَهم عسكرُ الجزائر حين نزولهم على بلد قسنطينة بسبب شكاية وقعت بأبي عبدالله المذكور من أهل البلد، وكان إذ ذاك أبو العبّاس حميدة الغربي المذكور غائباً في حَجِّه مع المفتي أبي زكرياء يحيى بن محجوبة.

* * *

وأبو العباس حميدة (هو)[1] صاحب الواقعة التي ألفت فيها الكراسة المسماة[2] (بسربال الردة في من جعل السبعين لرواة[3] الإقراء عدة)، وسببها مذكور بها فمن أراده فلينظره منها (   )[4] الموجهة لذكر بعض شيء مما وقع لي معه في أثناء المقامة رسالة عن جوابه، أذكر ذلك/ ـ إن شاء الله ـ في الخاتمة مع أخبار المحبين لله أذكر طرفاً من ذلك. وتوفي ـ رحمه الله ـ في شوال من عام ثلاثين وألف[5]. / 50

31 ـ [التعريف بسيدي عبد اللطيف بن عبد الكريم بن بركات رحمه الله آمين]

عبد اللطيف بركات:

وممن رأيناه ولقينا أبو محمد عبد اللطيف بن عبد الكريم بن القاضي بركات ابن سعيد المذكور[6]، كان ـ رحمه الله وغفر له ـ ممّن يحبنا لله أوّلاً وآخراً لا تبدل ولا تغير إلى أن مات في سنة الطاعون الكائن في عام أحد وثلاثين وألف[7]، وكان مضاداً لأبي العباس المذكور[8]، بعد أن كانت بينهما مصادقة الصغر وأخوته أعقبها ذلك، بعد الكبر والتنافس في ولاية منصب النيابة[9]، الهجران الفظيع[10] والترصد بكل المكاره

(1) ما بين القوسين زائد من عندنا.
(2) في الأصل (المسمات).
(3) في الأصل (لروات).
(4) ما بين القوسين لفظة لم نهتد إلى قراءتها ولا معناها.
(5) 1030/ 1620.
(6) انظر ص 46.
(7) 1031/1621.
(8) أي أحمد الغربي سابق الذكر.
(9) يشير إلى تنافسهما على ولاية نيابة قضاء العجم.
(10) في الأصل (الفضيع).

كل منهما لصاحبه ما لا يليق بكل عاقل، وكانت بينهما فتن عظيمة، وانحاز كل منهما إلى والٍ من الولاة يعتضد به على صاحبه، فكلما أقبلت دولة أحدهما أدبرت دولة الآخر، وكل منهما له أعوان وأنصار من الخاص والعام.

وكان أبو زكرياء[1] أكبَرَهما سناً وخطة، يقرب منهما من شاء إلى قضاء أوطاره به ويقضيه ويدني الآخر، ويتسبب لمن يقربه في تولي الخطة المذكورة، ولم يزالا على ذلك إلى أن ترقى أبو العباس لخطة الفتوى وطابت لأبي محمد عبد اللطيف خطة النيابة، فوقعت بينهما ألفة الظاهر وفي الباطن مختلفان/ على عادة صنفهم المسمى بالحضر إذ ذاك صفة لهم لازمة بمجرى العادة لا تتخلـف ولو في النادر، وإن كنت أظن تخلفها في بعض منهم كما أشرت إليه في تأليفنا (محدد السنان) ظناً مني لمرآه ولم أشعر باطنه كما يأتي التنبيه عليه، إن شاء الله. فانبهر لي عموم الوصف في جميعهم إلا أن بعضهم يُعرف منه ابتداء وبعضهم يُخفى ما أكنّ إلى بلوغ قصده وإربه. / 57

ولنرجع إلى ما نحن بسبيله فكان[2] ـ رحمه الله ـ ممّن تولى الخطة على معرفة بقواعد الْبَيّنَةُ على المدَّعِي واليمينُ على من أنكر، ليس له دراية إلا ما تلقّاه من كثرة مرور النوازل عليه حين كان من جملة الموثقين، حتى إنه ـ رحمه الله ـ لا يعرف جلّ مُصْلِحات صلاته وعبادته فضلاً عن غيرها، إلاّ أنه ـ رحمه الله ـ كان ذا خلق جميل، معاشراً كثير الصمت نزيه اللسان عن القيل والقال سواء في ذلك صديقه وعدوه، وإن كان محلُّها بداخل صدره مختلفاً[3]، فكان يترصد لعدوه المراصد، وكان مع ذلك متحملَ الأذى لا يجيب سفيهاً إلا بلين ورفق ولا يغضب ولا يضجر. وممن لا يُعطِي اليدَ فيمن يحبه غيباً إلا أنه إذا لم يقدر عن الجواب في الذب[4]/ عنه سكت مع تصعد زفير من صدره يُسمعُ له كراهةً لسماع ما لا يحب فيمن يحبه. وتسبب أبو محمد في طريقة الفتوى بإخراج أمرها[5]، وكان مصححاً لا مبتكراً، زمان أبي العباس، ولم يبق / 58

(1) يعني يحيى بن محجوبة.
(2) أي عبد اللطيف بركات.
(3) في الأصل (مختلف).
(4) في الأصل (الذب).
(5) تعبير غامض لا ندري إلى شيء يشير به، وهو قوله (بإخراج أمرها...).

إلا قليلاً حتى صاده أمر أقعده ولم يزل به إلى أن مات في الطاعون الواقع في سنة أحد وثلاثين (وألف)[1]. ويقال إنه مات به ـ رحمه الله وغفر له.

32 ـ [التعريف بسيدي أبي عبدالله بن نعمون، رحمه الله آمين]

محمد بن نعمون وزاوية آل نعمون:

وممن عاصره[2] أبو عبدالله المدعو بكنيته ابن نعمون، هو ابن أخت الجد عبد الكريم ـ غفر الله له ـ وجدُّه للأب الفقيـه الإمام أبو البركات ابن نعمون، وهم دار عافية ومن بيتات قسنطينة وشهرتهم في أسلافهم، بنسل الصالح سيدي نعمون إلا أنه لم يُتَحقّق اسمُه[3]، دفين الزاوية الجوفية المشتهرة بهم.

وأصلها ـ فيما يذكر ـ لأسلاف جامع هذا التقييد[4] وبعض أملاك أسلافه مرجعة إليها، وكانت لهم[5]، إلى أن أحدث بناء المدرسة جدُّ الجد أبو عبدالله محمد المذكور، وهي التي بها دُفِن الجد أبو محمد عبد الكريم كما ذكرناه في ترجمته، فاستقل أسلافي بها ورفعوا أنفسهم عن الزاوية المذكورة لأصهارهم أولاد نعمون، هكذا سمعته عن غير واحد فاشياً.

وكان الفقيه أبو محمّد بركات[6] جدّ أبي عبد الله المذكور أمياً في صغره ويقال إنه/ خرج عن طريقة أسلافه في صغره إلى طريقة الأحداث، حتى إنه لما أراد الله هدايته اجتاز على جد الوالد أبي زكرياء المذكور[7] وهو بحالة لا ترضى من الزي والمنظر، فناداه إلى أن أقبل بين يديه وأمره بالرجوع إلى طريقة أسلافه بعد توبيخه وتقريعه وحضه[8] على القراءة، فيقال إنه تصاغر واستحيى منه ورجع من حينه إلى

/ 59

(1) ما بين القوسين زيادة منا. وتاريخ الطاعون المذكور 1621/1031.
(2) أي عبد اللطيف بركات.
(3) المعنى أن اسمه غير معروف.
(4) هو المؤلف نفسه أي مؤلف (منشور الهداية).
(5) المعنى أن الزاويـة وبعض أملاكها كانت لأسلاف المؤلف قبل أن تؤول إلى آل نعمون.
(6) كناه قبل: أبو البركات ابن نعمون.
(7) عن يحيىٰ الفكون (أبي زكريا)، انظر ص 41، وهو الذي مات شهيداً بتونس على يد الأسبان.
(8) في الأصل (حظه).

الطريقة المثلى، ففتح الله عليه في الفقه والصلاح، فكان ممّن يشار إليه في الصلاح ورضى الحال، وكان إماماً بالجامع الأعظم بعد انتقال الجد أبي زكرياء[1]، ولم يزل في يده[2] وهو القائم به إلى أن تولاه الجد أبو محمد عبد الكريم من يده بتكليف الشيخ الوزان عليه كما ذكرناه[3] قبل. ويقال إن الفقيه بركات المذكور أصابه آخر أمره سلس لا يستطيع رفعه، فكان به حتى إن سبب عزله كان ذلك بسبب الاشهاد عليه بذلك بعد اعترافه به لدى القاضي إذ ذاك. ويقال إن السائل له عنه والمسجل العمُّ قاسم (   )[4] تمكن عزله وكلف بالخطة على الجد المذكور[5]، والله أعلم بالواقع.

ولنرجع إلى التعريف بحميدة[6] المذكور، كان في صغره من شهود دار القضاء وقرأ على الجد في الفقه، وتولى خطة الفرائض ومُفَاصلات التركات والإشراف / على صاحب المواريث بعد موت صهره أبي محمد عبد اللطيف المسبح[7]، ثم إنه ترقى لمنصب الفتيا. وكان بليداً لا يحسن ما قرأ ولا يتقنه، وحج في آخر أمره وأعقب ولدين أحدهما مسمّى محمد والثاني كذلك إلاّ أنه لقب بالتومي حج هو أيضاً بعد والده، وولداه أنجبُ منه وتعرضا للفتوى خطة والدهما في زمنه لرفع يده[8]، ثم إنه تولى هو ورفع ولداه يديهما. / 60

وكان هو ممّن له معرفة بأحوال دنياه ويجريها على قدر أهلها، وكل ممّن يجلس معه لا يقوم من عنده إلا راضياً عنه في غالب أحواله، وإن كان له نقض عقيدة فيه إنما يكون بعد ذلك لما أعطاه الله من سلاسة المخاطبة واستجلاب الخاطر وجلب النفوس إليه بالحضرة، وربما يكون ذلك بأَيْمان على صحة أقواله، فكانت عيشة بين أهلها

---

(1) أي بعد انتقاله إلى تونس.
(2) يقصد الجامع الأعظم.
(3) انظر الحديث عن جد المؤلف ص 35.
(4) ما بين القوسين رمز هكذا (فتّ) ولم نهتد إلى معناه، وهو مستعمل في أماكن أخرى من الكتاب.
(5) إذا صح هذا فإن القاضي قاسم الفكون هو الذي كلف أخاه عبد الكريم (جد المؤلف) بإمامة الجامع الأعظم بدل بركات بن نعمون.
(6) بل الحديث عن محمد بن نعمون.
(7) تحدث عنه المؤلف فيما مضى ص 46.
(8) أي لعزله عن الفتوى.

سهلة، لم[1] تتوالى عليها نكبات من الولاة كغيره ممن تولى الخطط بالبلد المذكور. وقد كان امتحِن في ابتداء أمره بسبب من وشي به إلى دار الجزائر دار إمارة البلد المذكور[2]. ويسَّر الله في إخراجه بسهولة أمر، وكان ذلك، أعني خروجه، على يد المفتي أبي العبّاس أحمد المدعو حميدة بن حسن الغربي المذكور[3] قبله.

/ 61 وكان الفقيه أبو عبد الله المذكور في تربية الجد عبد الكريم/ من جملة أولاده لكونه في حضانة جدته والدة الجد لموت والدته ووالده وهو بحال صغر لا يقوم بوصفها تحقيقاً والله أعلم. ولم ينتقل إلى دار أسلافه إلا إلى البناء[4]، حتى إنه من لا يعرفه إنما يقول هو من أولاد الجد، وكان يعز عليه كثيراً، ولم يرض منه التعرض لخطة الشهادة فيما أسمع عليه بل يقال إنه نقص في عينه إذ ذاك، والله أعلم. وسمعت من الفقيه أبي عبد الله المذكور أنه يقول غير مرة إنما تيسر لي إقراء الرسالة والمختصر بسبب الإذْن من خالي الشيخ عبد الكريم، رأيته في النوم وناولني الكتابين، فمن ذلك الحين أقرأت فيهما. وسمعت منه غير مرة أنه يقول ما عسر علي أمر إلاّ ورأيت خالي المذكور في النوم فيجعل الله لي منه فرجاً ومخرجاً.

وكان في مجلس درسه متكلاً على ولديه فيما يقال ويذكر عنه، وكذا في غالب الفرائض، ويتكل عليهما في غالب الوثائق، لأن ثلاثتهم معهم معرفة مبادىء الفرائض قسمةً وبعض مسائل وصايا الصحيح ومناسخات دون ما عدا[5] ذلك من أبوابها ومشكلاتها، لانقراض العلم في كل الأقطار، فيما أعلمه اللهم إلاّ ما شذ فلا أدخل تحت عهدته.

/ 62 ومن معرفته بأحوال الدنيا وأهلها أنك تراه لا تغيب عنه/ شاذَّةٌ ولا فاذَّةٌ من أمر المشغبات على الناس بل على أهل بلده إلا وهو حاضرها وحده أو باشتراك، وينسل منها حتى تقطع يقيناً في زعمك أنه لم يكن له علم ولا دراية وأنه بريء ممّا وقع أو

---

(1) كذا (لم) والصواب (ثم).
(2) يعني قسنطينة.
(3) انظر عنه ص 75.
(4) المقصود بالبناء الزواج.
(5) في الأصل (عدى).

نسِب إليه، كل ذلك من حذقه وخبرته بأمور تخفى على غيره.

وكان بعد موت أبي العباس أحمد الغربي تراس في الفتوى، وشاركه فيها من غير تراس جماعة منهم أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن أبي زكرياء يحيى بن باديس، كما سنذكر سيرته[1] ـ إن شاء الله ـ، وكان وقعت بينهما مؤاخاة[2] ومحالفة لم يتم مقتضاها العام إلا ودواعي الواشين فرقت بينهم ومزقت إهاب اجتماعهم كلَّ تمزيق، فأضحوا شتى بعد أن كانوا على قلب واحد.

تدخل سلطة الجزائر:

كل ذلك بحسب الأعراض الدنيوية والرياسة التي هي بلية وأعظم بلية، فعزل أبو عبد الله المذكور من خطة الفتيا بعد سجنه هنيهة ورفعت يده واستقل أبو العباس[3] وحده، وكان بسبب ذلك موطن[4] عظيم بين يدي عسكر الجزائر وصاحب محلتها إذ ذاك، أفضى الأمر في الموطن إلى أن سجل على أكثر أهل البلدة، أعني أهل مناصبها فتيا وشهادة: فلا مفتي إلاّ أبو العباس المذكور ولا شاهد إلاّ من انتخب في ذلك الموطن ممّن شهد فيه/ جماعةٌ من أهل البلدة، ويقال إن سببه أبو العبّاس / 63 المذكور مع بعض ممن له الرأي والمشورة إذ ذاك، والله أعلم بحقيقة الأمر وهو المطلع على خفيات الضمائر.

ثمّ إن أبا عبد الله لم يزل باحثاً على رده ورد أولاده، فيما يقال، وحريصاً على أخذ الثأر من أبي العباس المذكور، والله أعلم بحقيقة الأمور. ورجعت المودة بينهما شحناء والمحالفة بغضاء، ومع هذا ففي الحضور تحسبهم جميعاً وهم بالغاية القصوى قلوبهم شتّى وأهواؤهم متبددة، يود كل منهما وقوع منتهى الشرور بصاحبه.

من أوصاف الحضر أيضاً:

وليس هذا بدعاً ممن هو من الجنس الذي يلقب حَضْرياً، فقد جُبلوا على ذلك، كما أودعنا بعض صفاتهم تأليفنا (محدد السنان)، فيقال إن جماعة مَنْ رُفِعَتْ

(1) انظر ما يلي.
(2) في الأصل (مواخات).
(3) يعني أحمد بن باديس.
(4) يعني اجتماعاً وحادثاً.

يده أسندوا ظهورهم إلى بعضهم بعضاً موازاً [1] لهم أبو عبد الله المذكور، ومغرياً لهم على ذلك فيما يذكر ويؤثر، إلى أن وشوا بأبي العباس حين دخولهم الجزائر واجتماعهم بأميرها، وكتبوا سجلات ووصفوه بأمور لا يحل الوصف بها ولا الخوض فيها، إلى أن أزعجوه من البلدة قاصداً دار الإمارة[2]، وسيأتي - إن شاء الله - في ترجمته بعض ذلك. وأغرمه الوالي[3] مالاً أرهقه فيه وسجنه قليلاً، وبعد/ قدومه[4] تقاطع مع أبي عبد الله المذكور مدة وتشاحنا زماناً إلى أن وقع بينهما مهادنة وصُلْح ظاهر. والله متولي السرائر. 64 /

وكان أبو عبد الله المذكور جادّاً في طريقة الإذاية والنِّكاية والإغراء بين المسلمين والغواية، وربّما كان ذلك سبب ترأسه[5] واختيار العامّة له، فكانت تلك الطريقة له إعانةً على ما يرومه من قبول الرأي وصرف وجوه عامة البلد إليه وجل خاصتهم، وسببها الوشي المذكور وتطريزه لهم بالأَيْمان الكاذبة والعهود الفاجرة، فكانت سيرته أن يأتي كلَّ قوم وكلَّ شخص بما يحب من إذاية عدوه.

فيأتي الأول من الفريقين بإظهار محبته له ومودّته ورسوخ مواصلته ويمزق من عرض عدوه المواجه له ما يقطع به ظهره ويخرجه عن دائرة المسلمين ويُريه أن العدوّ المذكور يترصده بأمور يخفيها له ويدسها ويُريه أن ذلك منه نُصْحٌ [6]، ويأمره وأن من المكيدة له أن يفعل لذلك العدو كيت وكيت، ويريه أبواباً كامنة وغير ذلك من مداخل الشيطنة ما ينشرح به صدر المواجِه له ويقطع بأن أبا عبد الله المذكور من أعالي أحبابه ونصحائه، فلا يزال به كذلك حتى ترسخ في قلب ذلك المواجِه له فينصرف وقد رضي منه أبلغ رضى /. 65 /

فيأتيه[7] الخصم الآخر والقِرْن الآخر فيباشّه غاية المباشّة، وربما عانقه وربما

(1) كذا (موازاً لهم) ومعناها، فيما يظهر، حاثاً لهم.
(2) أي أجبروا أحمد بن باديس على التوجه من قسنطينة إلى الجزائر للدفاع عن نفسه أمام الاتهام.
(3) أي والي قسنطينة.
(4) أي بعد رجوعه من الجزائر.
(5) في الأصل (تراوسه).
(6) في الأصل (نصحا).
(7) في الأصل (فيأته).

صافحه وسأله عن حاله وما هو فيه، ويبدي له التألم من أجله وما ناله عن عدوه الذي كان عنده، ويخبره بكل ما كان بينه وبينه إلا أنه لا يذكر له مساعفته لذلك العدو على الغدر والمكر بالخصم المذكور، ويزين له أقواله وأفعاله ويذكر له أنه رد على عدوه قوله وما يريد من الغدر لعدوه، ويستظهر على ذلك بالأَيْمان المعهودة منه والعهود المألوفة، وغالب أَيْمانه أنه لا يموت مسلماً، ويذكر لذلك الخصم أنه منه ومن جهته وأنه في معاضدته وأن الرأي والمشورة أن يقابل عدوه بمكر وخديعة يُبْديها لذلك الخصم لم تخطر ببال ولم تقع على قلب (   )[1] من أهله لها وأجراها على لسانه ويسرها عليه فيركن له ذلك الخصم ويذعن لقوله وينشرح صدره لقبول ما يأتي من قِبَلِه، ويبدي له ذلك الخصم كل ما عنده وما كان عازماً عليه من أمر خصمه، فيرجع من عنده وقلبه مطمئن وفكره منشرح لوقوع الظفر بخصمه وغلبته، فإذا سمع به خصمه وأنه جاء خصمه من عنده أتاه ليذكر له كل ما جرى بينهما من الرأي ويجعل ذلك كله من رأي خصمه ومكيدته وأنه يترصد له بذلك الدوائر ويغريه على / أمور تحدث له / 66 ويحلف بأَيْمانه الفاجرة أنه زجر خصمه ولم يُرِه وجهاً ولا قابله ببشاشة، فيطمئن قلب ذلك الرجل ويغتر بأَيْمانه الفاجرة.

ولا يزال كذلك دأبهُ بين الفريقين وشأنه[2] بين الغريمين والخصمين إلى أن يقضي أَرَبَه منهما إمّا برشوة كاملة من أي أنواعها[3] عَيْناً أو مَلْبساً أو رِباعاً أو غير ذلك، وإما بقضاء وطره من بلوغ أمنية وظفرٍ بعدو وغير ذلك ممّا يتفق[4] له ويساعده الغدر، حتى يَكِلّ الخصمان ويعي الفريقان فيردهما بعد ذلك إلى شيء يصطلحان عليه.

فهذا دأبهُ وشأنهُ وما جلبه الله عليه لا أكثر مثلَه، ولا تقبّلَ منه فرضه ونفْلَه، فما أقبحه من شخص وما أشأمه على الخليقة من شخص، حتى إنه جعله الله لكل قلب زاجراً ورادعاً ومنبهاً بحاله الميشوم[5]، على أن للّه الحكم والاختيار والانفراد باختراع

---

(1) ما بين القوسين كلمة غير واضحة في النص.
(2) في الأصل (وسأنه).
(3) في الأصل (أنوعها).
(4) في الأصل (يتفلق).
(5) كذا (الميشوم) وهي (المشؤوم).

الآثار، ولو راعى المصالح، كما يقوله الفريق الطالح[1]، لكان فَقْد هذا الرجل من بين العباد من أصلح الأمور، ولكن[2] يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وهذه نبذة من أفعاله وقطعة من حاله، ولو تصدى المتصدي لما هو عليه حالاً وقولاً وفِعَالاً لم تسعه الدفاتر، ولكلّت الأقلام ونفدت المحابر.

/ 67 ولقد اتفق لي معه (عدوّ الله وأخلي منه الأرض ومن أمثاله، / وعجل بنكاله، وجعله عبرة لمن كان على حاله وأشكاله)[3] أمور يترصّد لي في كل حالاتي الدوائر، ما يرجع عقباها عليه ويجتمع نكالها في الدنيا والآخرة لديه، غير أني أعطيه الأُذُنَ الصمّاء، وأَكِلُه إلى القادر الجبار القائم بالأرض والسماء، وأرجو منه أن يهدم مناره، ويطمس آثاره ويخرب داره وقراره، بجاهه العظيم وقدر نبيه الكريم وأصحابه وأوليائه وأنصاره.

وأما تكبره عن عباد الله وانتقاص المسلمين والسب في المؤمنين فكاد لا يخفى على إنسان، ولا يتنازع في وقوعه إثنان، فلا تجد أحداً يذكر بحضرته من كان مبغضاً له إلاّ ويشتمه ويتزايد في لعنه وسبه إلى أسلافه وآبائه، وإن أردت أن تعظه أو تذكره تحريم ما صنع وعدم حِلّيته إلاّ وهو يرمُقك بعين البغضاء، وتنتفخ أوداجه وتحمر وجنتاه حنقاً وغيظاً ويترامى به الحال في ازدياد السب واللعن إلى ما يؤدي إلى كفره، والعياذ بالله، ويكون إذ ذاك منكياً[4] بذلك لمن أنكر عليه ويظهر من نفسه أنه أكبر ممن يعظه واعظ وأهدى سنناً وطريقةً من أن يُنكر عليه منكِر. ولقد صدق عليه قوله / 68 تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه / جهنم وبئس المهاد﴾[5]، نعوذ بالله ممّا ابتلاه، ونسأله أن يعافينا مما ارتكبه وارتضاه.

وأمّا تكالبه على الدنيا وانكبابه عليها فهو أشهر من أن يذكر، وأوضح من أن يسطر، فتراه في جمعهايرتكب أموراً لا يبالي بها من ضعة أو هلكة، ولا عليه من أن

---

(1) أفادني الشيخ محمد الطاهر التليلي أن مقصود المؤلف من عبارة (الفريق الطالح) هم المعتزلة لأنهم يقولون يجب على الله الصلاح والأصلح.

(2) في الأصل (ولاكن).

(3) ما بين القوسين جملة معترضة طويلة أوردها المؤلف للدعاء على صاحبه محمد بن تعموت.

(4) من النكاية.

(5) سورة البقرة ـ الآية 206.

تكون من حِلٍّ أو لا حتى تحقق فيه وعيد حديث (من لم يبال من أين مطعمُه ومشربُه لم يبال الله من أي أبواب جهنّم يدخله). هذا مع تغييره للشريعة وتجاهره بالرشا وجمع حطام الدنيا وعدم اكتراثه بالأوامر الشرعية وتسويغه للعامة أو من كان على شكله من الخاصة، أموراً لا يرضاها مَنْ في قلبه مثقال حبّة من إيمان، وتسهيله لهم الأمور الشاقّة في النواهي والزواجر، ويهتك حدودها فعلاً وقولاً حتى إن من يراه متوقفاً في ارتكاب ذلك أو كان على وجل من قوارعها يقول له جهاراً: افعله على رقبتي، فتهرع إليه العامّة وبعض الخاصة لجِبِلَّة النفس على ما جبلت عليه من حب الهوى وارتكاب المحذور[1]، فلا تراه إلا ناقضاً لأمور الشريعة جائياً في كل حالاته بما يرفضها، والعياذ بالله، فهو ممن طمس الله بصيرته وقبَّح سيرته.

/ 69 وأمّا استعمال أعوان السوء وأنصار الباطل/ وارتضاؤه خصلة الظلم طريقةً فلا يكاد يخفى أمرها إلا على غبي. فتراه يجمع حثالة من الناس يزخرف لهم ناديه بأكاذيب وترّهات وتقولات ينسبها لمن سلف، ويتجرأ[2] على الله بدعاوى ومرائي لكي يصرف بها وجوه العامة وبعض الخاصة إليه، ويقطع زمانَه ما بين حديث خرافة وتزكية للنفس وتطهيرها بزعمه من رذائل هو غريق في بحر قذارتها، ويرى لنفسه مِنّة على غيرها. وإنْ حنق على عبد من عباد الله ينطلق فيه بفحش القول وسفهه وإنه أردى وأقل من أن يقاوله، وأنه له المنزلة العظمى عليه علماً وعملاً وسلفاً، ولقد كذب في الدعوى، وافترى فِرْية هي من أعظم البلوى. أما العمل فلا حظَّ له فيه إلا ما سطر من مساوئه، وهي بالنسبة إليّ كلها كغرز إبرة في بحر.

وأما العلم فهو أجهل ممن رأيتُ وأحمق ممن لاقيتُ وإنْ كان يتصدّى لإقراء المختصر والرسالة، وأعجبُ من ذلك تعاطيه لابن الحاجب في ناديه مع جمع عمَتْهم الجهالة، فلو كان في زمن محتسب للّه لكان له معه شأن وأي شأن! يخبط فيما يتصدى له خبط عشواء، ويتجرأ على من له الأمر كله وهو القاهر فوق عباده، ولعمري لا يصلح لأن يقعد بين يدي/ العلماء فضلاً أن يتسمّى بالعلم أحرى أن يتصدى / 70

(1) كذا، ولعل (المحظور) أولى.

(2) في الأصل (ويتجرى)، وكذلك ما بعدها بقليل.

للتدريس، لكن[1] غباوة الجهل وقلة الحياء من الله وخراب البلدة وكثرة العامة هي التي جرّأته على ذلك، وزاده حب المدحة والافتخار: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار﴾[2].

وأما أنه من سلفِ مَنْ مضى فحقٌ لكن:

نعم الجدود ولكن بئس ما خلفوا[3]

في أسلافه الأقدمين من ينسب إلى الصلاح بانتشار ذلك على ألسنة الخاصة. وأمّا أننا رأينا من أرّخ سيرته فلا. ويذكر أنه دفن بالزاوية التي شهرت في الحديث بهم وفي القديم يذكر أنها لأسلافنا، وبمحضرتها[4] موضع دُفِنَ فيه الجد العبدُ الفقير إلى الله عبد الرحمٰن الفكون. ويذكر أن جده المذكور مدفون بمقربة من تربة الجد المذكور. وقد قدمنا بعض شيء من هذا[5].

تغيير وبيع الأحباس:

ومن مساوئه تغيير كثير من أحباس البلدة وهتك حرمتها والإغراء على بيعها، فتجده عاكفاً على بيعها وابتياعها، حتى إن كل من صادفته يد الفقر واضطر يأتيه فيجعل له أشياء يُمَوِّه بها على المسلمين في بيع الأحباس، وربما يذكر ويشهر أنه يشاطره أو يعطيه ربع المبيع ويقتسم العَقِب الباقي. ولقد سمعت من والدي أنه أحصى جميع ما باعه من الأحباس وتسبب في / هتك حرمتها والبيع والابتياع، خمسة وثلاثين حبساً أو نحوها. ومع هذا لم يعتبر بما نال مَنْ تسبب في فسخها من العَقِب أو رضيه من الاحتياج والقلة والذلة والفقر الفادح، حتى إنه ترامى به الحال أَنْ فعل ذلك في الأحباس الموقوفة على خدمة المدينة الشريفة، ولم يراع فيها جانبَ النبيِّ الشريف ولا عظّمه ولا وقره في هتك ما نسب إليه. / 71

---

(1) في الأصل (لاكن)، وكذلك ما بعدها بقليل.

(2) سورة الحج، الآية 46.

(3) أخبرني الشيخ محمد الطاهر التليلي أنه وجد بيتاً ساقه أحمد الهاشمي في كتابه (السحر الحلال) ولم ينسبه، وهو:

لئِنْ فخرتَ بآباءٍ ذوي حسب ... لقد صدقْتَ ولكن بئس ما ولدوا

فهل كان للفكون مصدر آخر في استشهاده أو هو من عنده؟

(4) لم نستطع أن نفهم هذه الكلمة في النص، وإن كان معناها واضحاً.

(5) انظر ص 52.

ولقد رأى[1] عاقبة أمره مناماً ولم يتفطن لها وصار يموه برؤياه على العامة والخاصة الذين لا يعلمون، فكان يقول لهم رأيت النبي ﷺ في النوم، وحانت صلاة عَيَّنَها هو ونسيتُها أنا، وأقيمت الصلاة فتقدمتُ وصليتُ بالنبي ﷺ وبأصحابه، ويراها من كراماته وأنه بالحالة العليا في النُسك والعبادة، ويذكرها بين يدي الأمراء لتزيد حظوته[2] عندهم ويشنّعها[3] أتباعه ومن يعمّر ناديه، وما درى[4] هذا الخبيث أن ما رآه وبالُ أفعالِه السيئة وجزاءُ سيرته الخبيثة. وقد نص المعبّرون[5] على أنه من صلى بالنبي - ﷺ - فهو ممّن قد نبذَ الإسلامَ وراء ظهره، فما علم ما أرْصِد له وما أخفي عنه. وبالجملة فهو رجل أهْلهُ الله / للشر وأجراه على يده وأمهله، وزين للعامّة أقواله / 72 وأفعاله ولبعض الخواص ممّن كان على شاكلته[6]، حتى إنك لا تجد من يأوي إليه أو يجالسه أو يتعاهد ناديه موفَّقاً ولا مهدِياً، بل لا يأوي إليه ويتعاهده إلا من خُذِل، والعياذ بالله. وكان عاقبة أمره خسراناً.

اللهم إنّا نسألك بوجهك العظيم وبنبينا محمد صلى الله عليه وسلّم تسليماً وقدْرِه الكريم وبأصحابه وأوليائه وأهل بيته، أن تطهر منه البلاد، وأن تريح منه العباد، وأن تُخْلي منه المحافل والمجامع وكل ناد، إنك كريم جواد، وأن تجعلها في عَقِبه إلى يوم التناد[7]؛ ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾[8].

ولنكفّ العِنان، فإن مساوئه أكثر من أن يحصيها الإنسان. ولما كان هذا التأليف للنصح العامّ أتينا بنبذة من مساوئه ليدل مبداها على منتهاها، ولله عاقبة الأمور، وهو العالم لخفيات الصدور، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم.

---

(1) في الأصل (رءا).
(2) في الأصل (حضوته).
(3) أي يشيعونها وينشرونها.
(4) في الأصل (درا).
(5) يعني معبّري الرؤيا والأحلام.
(6) في الأصل (ساكلته).
(7) يفهم من هذه الترجمة أن صاحبها كان ما يزال حياً عند التأليف.
(8) سورة (الزمر)، الآية 36، وكذلك سورة (غافر)، الآية 33.

33 ـ [التعريف بأبي عبد الله محمد المسبح رحمه الله، آمين]

محمد المسبح:

ومن تعاطى نيابة القضاء أبو عبد الله محمد بن الفقيه حميدة المسبح المذكور قبله، تولّى خطّة النيابة بالبلد ومكث فيها زماناً وعَزَل مرات أبا محمد عبد اللطيف بن سعيد[1]/ لاستظهاره عليه بأبي عبد الله بن نعمون المذكور، إذ كان من شيعته، وأهل ناديه ومن أهل شواره وبطانته، وله به مصاهرة[2] زادت في القرب. وكان محمد المسبح عاميَّ القلم والفكر لا يعرف ما يصلح به وضوءه وصلاته فضلاً عمّا وراء ذلك، غير أنه اتخذ كَتْبَ الوثيقة صناعةً[3] على ما فيها من الفساد والإفساد علماً ورسماً، وضُعْفُ الدين (هو الذي)[4] أوجب إنزاله تلك المنزلة. / 73

وامتُحِن مرات وغُرِّم كرات، وهو أول من أظهر الغرامة على خطة النيابة، أعطى عليها مالاً لقضاة العجم حتى ولّوه إياها، وربما أرشى الولاة يميناً وشمالاً. وسمعت عن شيخنا أبي عبد الله التواتي المذكور أنه طُلِبَ منه الرجوعُ لقسنطينة بعد أن خرج منها واستوطن باجة كما قدمناه[5]، فاعتذر بأنه لا يرجع إلى بلدٍ محمد المسبح فيه نائب أو قـاضٍ أو نحو ذلك، وكان موسوماً بالرشى مغموصاً بشهادة الزور، والله أعلم بالسرائر. وتوفي سنة (   )[6].

34 ـ [التعريف بسيد عبد الله العطار، رحمه الله، آمين]

أبو عبد الله ابن العطار:

وممن تصدى لخطة النيابة قبله ولم يقم بها إلّا يسيراً أبو عبد الله المدعو بكنيته ابن العطار، هو حفيد الفقيه أبي الفضل قاسم العطار. وكان ـ رحمه الله ـ من أهل/ / 74

---

(1) انظر عنه ص 80.

(2) بين عبد اللطيف بن سعيد ومحمد بن نعمون.

(3) يقصد مهنة أو صنعة التوثيق.

(4) ما بين القوسين زيادة منا.

(5) خرج التواتي من قسنطينة حوالى 1023 ومات بالطاعون سنة 1031، انظر ص 57.

(6) في الأصل بياض قدره كلمتان.

الخطة التوثيقية، صاحب خط حسن حتى إنه ربّما يَفْضُل خَطُّه على ابن مقلة[1]. وكان منتهى العام والخاص في الوثائق، وملجأ الخاص في عقود الأنكحة وكتب رسوم الأشراف لحسن خطّه وصناعة تزويقه، صاحب نباهة وحذق وفطانة، ومع هذا كثيراً ما يسأل عن إصلاح رسمه فكان، مع كبر سنه، ربما يأتي إلي ويسألني عن رسم بعض ألفاظ الوثيقة أو إعرابها، وأنا حديث السنّ في سن من لا يبالى به، وهذا من إنصافه وإذعانه للحق ـ رحمه الله ـ، وكان له محبة في جانبي غايةً، جازاه الله بها أحسن جزاء يوم الجزاء.

وكان قبل وفاته بقليل أعوام من أصدقاء الوالد وأبي فارس عبد العزيز المذكور[2]. ثم إنه حدث بينهم ما أوجب تجنُّبه لأبي فارس ومشاحنته وإظهار البغضاء له وما أوجب قلة الوقوف على الوالد بعدما كان لا يفارقه إلا ليلاً. ويقال إن سبب موته من خوف صاده من أمير البلدة لِمَا يقال من أمر حُبُس ظهرت زيادةٌ فيه ودخولٌ على خط الشيخ الوزّان، أرشاه عليه أولاد ابن جلول فيما يذكر، والله أعلم بحقيقة الأمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وتوفي في سنة (   )[3].

35 ـ [التعريف بسيدي أحمد العطار، رحمه الله، آمين]

أحمد العطار وضرب الخطوط:

وممّن تصدى للإفتاء ابنُ عمّه أبو/ العبّاس أحمد العطار، وهو ابن أبي الحسن علي بن أبي الفضل المذكور، وقد ذكرنا والده قبل، وهو ضعيف العقل يزعم زعماً أنه على ثقة من العلم ويبالغ في ادعائه، ولا معرفة عنده ولا إدراك بما يحفظه إلا ما ينقله مسطراً، وربّما يأتي به في غير محلّه وربما يتعرض للشعر ليأتي بما هو ضحكة للضاحكين، ومع هذا فهو مغموصٌ لضعف الدين وتناول الزور بين المسلمين وضرب الخطوط حتى إن الوثيقة إذا كان شاهدَها وحده أو مع من هو على شاكلته لا تنسب إلا /75

---

(1) ابن مقلة هو: محمد بن علي بن الحسين. يضرب المثل بخطه. استوزره المقتدر والقاهر العباسيان. توفي سنة 328. الأعلام 157/7.

(2) هو عبد العزيز النفاتي الذي سبق ذكره، انظر ص 60.

(3) ما بين القوسين بياض بالأصل قدره كلمتان.

للباطل والافتراء وإنْ كانت في نفس الأمر حقاً ﴿وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون﴾[1].

وهو من شيعة أبي عبد الله بن نعمون، وكان محبّاً في جانبي، وربّما جعل في جانبي قصائد مدح، جازاه الله بها. وكان سفهاء الناس يأوون إليه ويسامرهم أو يخاطبهم بما هو من شأنهم وما يألفونه من أمرهم. ويذكر لهم أنه جرت له وقائع مما تجري عليهم مما لا يليق ذكره، يفتخر بها بينهم، وكان معروفاً بالضرب على الخطوط حتى إنه يقال بموته انقطعت مادة ذلك، وليس كذلك بل الكون لا نقص فيه، أصلح الله حال المسلمين وتوفانا مسلمين. وكان، مع ما ذكر، يأوي إلى جماعة الفقراء[2] ويصاحبهم/ ويجتمع معهم في ليالي مخصوصة كليلة المولد وليلة الجمعة ويذكر لهم أنه شيخهم ويثني على نفسه بأنه من الأولياء ويبدي لهم أنه ظهرت له كرامات، إلى غير ذلك من الخرافات التي لا يليق سماعها ولا تدوينها، لولا النصح للمسلمين، وصار حديثو[3] الأسنان يجالسونه لكي يسخروا به ويضحكوا من كلامه وما يذكر لهم، وهو في غاية البلادة لا يتفطن لما يريدون به من السخرية، وتوفي في سنة (   )[4].

76 /

36 - [التعريف بسيدي علي بن داود الصنهاجي، رحمه الله]

علي بن داود الصنهاجي والسنهوري:

وممن تعاطى خطة الفتوى أبو الحسن علي بن داود الصنهاجي، فيما يذكر، وهو من أهل قسنطينة، وفي أسلافه مَنْ له معرفة بالفرائض. قرأ أبو الحسن المذكور على الشيخ سالم السنهوري، ويذكر أنه أجازه، وقد قرأ عليّ في آخر عمره تواليف من النحو كالقطر ونحوه، ويدّعي الفصاحةَ وتقويم الشعر، وليس كما يدعي، ومعه طرف من المعرفة في حفظ بعض المسائل المشهورة من الطهارة وبعض العبادات وبعض

(1) سورة (القصص)، الآية 69.
(2) أي الصوفية.
(3) في الأصل (حديثوا).
(4) لم يذكر تاريخ وفاته، وما بين القوسين بياض بالأصل قدره ثلاث كلمات.

المعاملات التي لا تُجهَل في الغالب، ولا بحث معه ولا تدقيق ولا نظر، والعجب وإجازة الشيخ المذكور له[1]، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله. وهو ممّن كان محبّاً في جانبي ومشغوفاً به ـ غفر الله له / وتجاوز عن سيئاته ـ وتوفي (   )[2]. / 77

37 ـ [التعريف بأبي عمران موسى الفكيرين، رحمه الله]

أبو عمران موسى الفكيرين:

وممن تعاطى الإفتاء والتدريس صاحبُنا أبو عمران موسى لقب بالفكيرين، وهو من تلامذة شيخنا التواتي، قرأ عليه من الفروع ابنَ الحاجب ومن عِلمِ الكلام عقائدَ الشيخ السنوسي، وحضره مراراً لقراءة النحو، وقرأ عليه الألفية، تصدّى للتدريس في أيام إقامة الشيخ التواتي بقسنطينة وبعده.

وكان يفتي بعده لأهل البدو لاعتقادهم في جانبه، وربما تنسك آخر الأمر، فكان عند أهل البدو يُعرَف بالصلاح، أشهر من طلب العلم، وهو رجل لين الجانب وَطِيُّه، إذا رأيته تلقَ منه خفض جناح، ويعدُّ كلامَه عدّاً، وكان يقال يده منطلقة بالأخذ من البادية ومن بعض أهل البلد، طعاماً وعيناً ونحو ذلك، والله أعلم بحقيقة الأمر[3]، وهو يُخَلِّص نفسه في فهم المسائل[4]، ولا عارضة عنده في جلْبِ الأبحاث ودَفْعِ الإيرادات وحسبه ما بيده. وكثيراً ما يستشكل المسألة أو يحكم فيها بغير ما هي عليه فيما بلغني وبعضه مشافهة.

وكان بعد انتقال أبي عبد الله التواتي اجتمع عليَّ كلُّ/ طلبته مع بعض الطلبة 78 / المغاربة[5]، لإقراء المرادي، وممّن حضر لقراءته عليَّ صاحبُنا أبو عمران المذكور،

---

(1) أي رغم نقص علومه أجازه الشيخ سالم السنهوري. وكثيراً ما أنحى الفكون باللائمة على من يتساهل في منح الإجازات. وتوفي السنهوري (سالم بن محمد عز الدين) سنة 1015. تولى الفتوى المالكية في مصر. وله شرح على مختصر خليل. الأعلام 116/3.

(2) ما بين القوسين بياض بالأصل قدر ثلاث كلمات.

(3) في الأصل غُيرت كلمة (الحال) بكلمة (الأمر).

(4) في الأصل غيرت كلمة (الأمر) بكلمة (المسائل).

(5) يستعمل المؤلف عبارة (المغاربة) ويريد بها مرة أهل وسط الجزائر وما جاور ذلك غرباً، ومرة يقصد بها أهل المغرب الأقصى، لكن يضيف إليها وصف (الفاسية) ونحو ذلك للتمييز. وهنا يقصد المعنى الأول.

حضر نحواً من الثلث، ثم حدث له أن خرج لنواحي البوادي لجلب مصلحة له فراودني على إبطال القراءة إلى قدومه، فامتنعت وراعيت في ذلك حق الجمع الحضور[1]، فيقال إنه أنِفَ من معاودة الحضور، ومن ذلك الحين لم يحضر لي مجلساً، والله أعلم بغائبة الأمر ويغفر للجميع.

عاشور القسنطيني:

وأعقب ولدَيْن أحدهما يسمى عاشور[2]، كان يقرأ علي النَّحْوَ، وحضر المرادي وقرأ الألفية مع المكودي في جمع من المغاربة الواردين للقراءة. وبعده انتقل إلى الشيخ حياته[3]، فيقال إنه جمع عليه القرآنَ وقرأ عليه ابنَ الحاجب والمرادي، ورجع إلى قسنطينة، ولم يزل يستشكل كثيراً من المسائل نحواً وفقهاً وكلاماً، ويأتيني بها مرة ببطاقة ومرة بالكتاب نفسه ومرة مشافهة، فأفتح عليه ما فتح الله به. ثم انتقل لوطن تونس لبعض قراها مجاوراً للأندلس[4]. وولده الثاني محمد وهو في حالة بداءة الطلب مجتهداً.

38 - [التعريف بسيدي عيسى الخلوفي، رحمه الله، آمين]

عيسى الخلوفي:

وممن صاحَبَنا في القراءة أبو مهدي عيسى الخلوفي، هو من تلامذة الشيخ التواتي وتوفي في حياته، وكان ذا خلق حسن وسمت رضي /، لا تراه إلا ضاحكاً مستبشراً، وله مداعبة[5] مع مَن يلقاه. وكان في عين الناس أحبَّ من أبي عمران لانطلاق وجهه وقبض أبي عمران موسى المذكور. وحضر للقراءة مع الشيخ، 79 /

(1) في المتن ألغيت كلمة (القدوم) وعوضت بكلمة (الجمع الحضور).

(2) عاشور القسنطيني أصبح من أبرز علماء وقته ورحل إلى تونس وتلمسان والحجاز الخ. وقد ترجمنا له في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي)، ج 2، وذكرنا مصادره.

(3) كذا (حياته)، ولا نعرف مصدراً تحدث عن هذا الشيخ إذا كان اسمه صحيحاً. وظاهر القول أنه لم يكن في مدينة قسنطينة نفسها.

(4) أفادني الشيخ محمد الطاهر التليلي أن (الأندلس) قلعة تقع قرب مدينة تونس. ويبدو أنها كانت ذات شهرة زمن الفكون.

(5) في الأصل (مذاعبة).

وحضر[1] عليه ما قرأ أبو عمران موسى وكان بينهما أخوة، ومات ولم يعقب إلا من لا يذكر هنا، غفر الله له وسامحه[2].

39 ـ [التعريف بسيدي أحمد الميلي، رحمه الله، آمين]

أحمد الميلي:

وممن تعاطى خطة الشهادة[3] وربما استنيب أياماً في ظني وتعرّض للتدريس أبو العباس أحمد الميلي، كان قرأ على الجدّ أبي محمد عبد الكريم المذكور، وقرأ على الشيخ سيدي محمد بـن حسن[4] وكان مَقْلِياً عند خاصة البلد لتعرضه لهم وتنكيته عليهم وإظهار تخطيتهم. وكان بعد ذلك قرأ على الشيخ أبي عبد الله محمد التواتي، ولازمه في جملة من لازمه من الطلبة، وكان إذا رأيته حسبته فطناً، وإذا باحثته تجده بليداً، يحفظ مسائل غِرَاب ومشكلات صعاب ليقطع بها من يريد معارضته ويظهر بها أنه عارف بغيرها، حتى إنه كان يُدْعى بمجلس الشيخ التواتي كُبَيش النطاح، سماه هو بذلك لما رأى من كثرة معارضته، وحضر مجلسي لإقراء المرادي، وآخر عمره انتفع علي بإيضاح ما يستشكله. وأكثر ما يطالع كُتُبُ الحديث سرداً لا دراية، غير/ أنه 80 / يستشكل بعض ألفاظها من معانيها فيتطلبها من الكتب أو يطالعني فيها فييسر الله كشفها.

وكان يستخلفه الوالد للصلاة بالجامع الأعظم أحياناً. ولما وقع علي التكليف كنت أستخلف الوالد في الصلاة فكأنه حنق من ذلك وصار يستهزىء بي مشافهة في جمع من الطلبة لصغري وعدم تضلعي إذ ذاك من العلم، ويشنّع عند الخاصة أنني بسن من لا تجوز صلاته لصغره، وكان هو في زمن الكهولة لما كنت في زمن الصبا، فكان من لطف الله ورعايته أنْ لم يمتْ (حتى)[5] جثا[6] بين يديَّ جثو الصبي للمعلّم.

---

(1) في هامش المتن صححت كلمة (وحضر) بكلمة (وقرأ). وعبارة (مع الشيخ) يفهم منها الشيخ التواتي.

(2) لا ندري لماذا ترجم المؤلف للشيخ عيسى الخلوفي هنا ما دام قد وعد أنه سيترجم في هذا الفصل لمن تولى مناصب لا يستحقها، ولم يذكر للخلوفي أي منصب.

(3) يقصد (بالشهادة) التوثيق.

(4) سبق ذكره، انظر ص 45.

(5) ما بين القوسين زائد من عندنا.

(6) في الأصل (جثى).

وكان لا يفهم كثيراً مما أُلْقي عليه أوْلَه إلا بعسر ومعاناة[1] بيان.

ولقد اتفق له مع جدي للأم مزوار الشرفا المذكور، إذ كان من جلسائه ومداعبيه، أن اجتاز عليه مرة فقال له: يا أحمد أي شيء حال عبد الكريم في العلم؟ فقال له يا سيدي عالم أو كلاماً هذا معناه، فقال له: أين هو في العلم منك؟ لأنه كان عند فقهاء عصره بالمكانة العليا لما كان يتخولهم به من المشكلات ويلقيها عليهم ويعجزهم بها كما ذكرنا من حاله، فأجابه على طريق الإنصاف ـ رحمه الله ـ بأن قال له: نقرأ عليه كذا كذا سنة. فاستغرب الجد ذلك إذ كان مُنْكراً لي لنكر وقع/ (بيني و)[2] بينه ولما كان من حاله ـ غفر الله له ـ من عدم سلامة الصّدر لبعض خواص البلدة الذين كان لهم حب كثير في جانبي، فكان لا يرضى جلوسي معهم ويحب مني مقاطعتهم وبغضهم لأجله، وقال[3] متعجباً ومنكراً عليه: الله الله ومن أين جاءه ذلك؟ فأجابه أبو العباس بأن فضل الله يؤتيه من يشاء. فأعجزه بهذه الكلمة القاطعة. حكى لي هذه الحكاية عنه شيخنا أبو عبد الله التواتي حين عزم على الانتقال من البلدة، والله يغفر للجميع. وتوفي في سنة[4]. /81

40 ـ [التعريف بالسيد علي الشريف، رحمه الله، آمين]

علي الشريف وثورة العامة بقسنطينة:

وممن تعاطى خطّة القضاء رجل يقال له علي الشريف، كان إماماً بجامع الشيخ سيدي علي بن مخلوف، وكانت ولايته[5] فلتةً عن فجأة من غير تروٍّ في أمره. وذلك أنه لما وقع للجد مزوار الشرفاء ما وقع من الامتحان، كما تقدم، هو ومن معه وقامت العامة على بكرة أبيها شاكين للعسكر بأهل الشورى، وتعين من تعين لما راموه به من الفتك، وهُدِمت دور ونُفِي بعض الناس، اتفق رأيهم على أن لا يجعلوا أحداً قاضياً

---

(1) في الأصل (معانات).
(2) ما بين القوسين زيادة منا، أو تقرأ العبارة (لنكر وقع بيننا).
(3) أي قال جد المؤلف مزوار الشرفاء المذكور.
(4) لم يذكر المؤلف تاريخ الوفاة ولم يترك بياضاً كما هي عادته.
(5) أي ولاية الشيخ علي الشريف إمامة الجامع المذكور.

من خاصة البلدة، فصاح صائح من العامة بأبي الحسن علي المذكور، فاتبعه القوم وولوه ولايةَ القضاء، وهو أمي لا يعرف من أحكامها مبدأ/ ولا منتهى، وبقي مدّة على / 82
ذلك إلى أن تراجع الأمر وتبدلت الأحوالُ فجرى المجرى كجريه أولاً، وعزل من ذلك ولازم مسجدَ الشيخ علي بن مخلوف إلى أن توفي[1].

41 - [التعريف بالسيد أحمد الفاسي]

أحمد الفاسي وأمراء العبابسة:

وممّن تعاطى التدريس رجل يقال له أحمد الفاسي، وهو كاتب لبعض أمراء العربِ الذين يقال لهم العبابسة[2]، وهو فصيح القلم حسن الخط جيد العبارة يستعمل الشعر كثيراً والشعر أغلب عليه. وسيرته قصد الأكابر بالمدح لكي ينال من ثوابهم، وكان بالحاضرة[3] قبل مخالطته لمن ذكر، ولازم البادية حين عمل لهم لأن أمراءهم أهل الخيام. فاتفق أن اجتاز أبو العباس أحمد الغربي المذكور على وطنهم حين قفل من دار الإمارة، الجزائر المحمية، لبلده قسنطينة، وكان سفره إليها بدعوى من ولاتها لما عرض لهم به مع أهل بلده من أمور نحن أغنياء عن ذكرها، فلقيه أميرُ الفاسيِّ المذكور، وهو صحبته، فباسطه بالكلام ووعده بالعطاء والافضال، فأطمعه ذلك إلى أن أتى به معه لقسنطينة وأنزله عنده وبقي عنده مدة.

وأول ما ابتدأ نزوله استأذن عليَّ للتسليم فأذنت له ورحبت به وأوسعت له المجال، فرأيت من حذقه[4] ووطي جانبه وتواضعه وحلاوة منطقه ما أطمعني في/ / 83
رجوعه للّه ووقوفه ببابه، فندبته إلى مجانبة الظَّلَمَةِ ومباعدتهم فلم أر إلا خيراً، وطَلَبَ الدعاء وأفصح بأنه قصد الزيارة، ثم جرى من الكلام ما سألني عن قوله تعالى: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء﴾[5]، فأجبته بما تيسّر، ثم إنه لم

---

(1) لم يذكر تاريخ وفاته.
(2) ذكر لي الأستاذ علي أمقران السحنوني أن والده أخبره أن (العبابسة) هم المعروفون أيضاً بأولاد سبع، قبيلة في منطقة رأس الواد على الطريق الرابط بين قسنطينة والجزائر، وبالضبط بين سطيف والعلمة.
(3) يقصد المؤلف بالحاضرة مدينة قسنطينة.
(4) في الأصل حدقه.
(5) سورة (هود) الآية 107.

يقنع، فأخرجت له قِرَى[1] ما حضر، ثم انصرف، فألجأني الحال إلى أن رددته بعدما انصرف وأخرجت له بعض شراح التلخيص[2] تكلم على المسألة فنظره وانصرف من عندي إذ ذاك.

فتداولته[3] أيدي السفهاء وأخرجت كامنَه وأبدت دِخْنَه فاحتفل النادي بهم، وأظهروا من المناكر بدار أبي العباس المذكور[4] ما لا ينبغي ذكره، وأعلنوا بشرب الدخان وجمعوا فِئاماً[5] من الأشرار، وصاروا يتعاورون وبالخنا يتظاهرون ﴿وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون﴾[6] و (تراس لشاب)[7] من خالطه في نثرالأشعار، ومدْح البندار والمزهر[8] والطار، وذكر سلافة الخمار. وربّما ألجأه الحال إلى الاغتباط بها واللهج بذكرها والثناء عليها وعلى أهلها. ويبالغ في مدحها ويستظهر على ذلك بأشعار وقعت من الصوفية يذكرون فيها الكأس والدنان والسكر والحان، فيقول: لولا حسنها ما ذكرها هؤلاء، ولقد/ يُفْهَم غير مرة من حاله أنها عنده في أعظم منزلة وأرفع مكانة، / 84 قاتله الله ما أفتكه وما أبعده عن باب المولى تعالى! حتى إن لسان الحال ينادي على رأسه بمخالفة طريق الشرع ومنابذته.

فلما امتلأت الآذان من قبيح فعله وشاع ما هو عليه من خبيث البطانة وارتداد الباطن، ألجأني الحال إلى النكير عليه وعلى من جالسه، فاحتدّت نفوسهم ورماني كلهم بعين البغضاء مع ما انطوت عليه بواطنهم من الحقد عليّ والتعرض لإذايتي بما أمكنهم ولم يمكنهم إلاّ بأن هجاني لأهل مجلسه بما يحاسبه الله عليه ويؤاخذه بجريرته دنيا قبل الأخرى، وكثرتْ محافلهم لما زين لهم من الزخارف، وصاروا يتفكهون بما نظم لهم من الأشعار، ويعلّمونها للكبار والصغار، ولم يراقبوا سطوة الملك الجبّار، فإنها لا تعمى الأبصار.

---

(1) يقصد أنه أحضر له ما حضر من الطعام.
(2) كتاب في البلاغة للخطيب القزويني.
(3) أي أحمد الفاسي.
(4) يقصد أحمد الميلي الغربي.
(5) (فئاماً) أي حثالات.
(6) سورة (القصص) الآية 69.
(7) ما بين القوسين لفظ لم نهتد إلى معناه ولعلها (تراس أوْ شاب).
(8) في هامش المتن أنه «هو عود الغناء».

وبقوا على ذلك مدة حتى ضعن من محل ضيافته، ورجع إلى مأوى جبايته، فصار يشيع في الباديه ما صنع من الهجاء ويواصلهم بمكاتبه المشحونة بالإذاية والتعرض لجانبي. ولقد اتفق يوماً أن جاءني أبو العباس حميدة الغربي بمكتوب من عنده له ولمن صاحبه لم يفهم مضمونه لاستغلاقه عليه من حيث إنه/ تصنّع فيه بألفاظ غريبة اللغة واستعارات فلم يفهمها ولا مَنْ شاركه فيها من أهل ناديه المذكور، فأتاني بها لأبين له ما احتوت عليه، فإذا به يلومهم فيما قصروا من إشاعة ما هجاني به ويقول لهم: أنا لم أدخل هذه العهدة إلّا من أجلكم ولأجل خواطركم ووعدتموني أنكم تشيعون الهجاءَ بينكم وتظهرونه في مجالسكم وتعلنون به في كل محافلكم، فإذا أنتم لم توفوا بما وعدتم وقصّرتم فيما زعمتم، ويذكر لهم أنه فعل هو ما أوصوه به من إظهار ذلك الهجاء في ناحيته وكشْفِه لحاشيته وغير حاشيته، ونحو ذلك من معنى سخف قوله الذي يتصنعه لهم ويتَمَشْدَقُ به عندهم، عامله (الله) بنيته، وجازاه على قوله وطويته. / 85

فلم يَرُعْ أبو العباس المذكور، وأنا أقرأ عليه المسطور، وأشرحه له شرحاً يظهر للخاصة والجمهور، إلّا وقد انكشف العوار، وظهر له ما أسرّوا من الأسرار، فيا لها خجلة أورثت الذل والعار والمسكنةَ والصَّغَار، فالحكم للّه الواحد القهار. فبهت من حينه، وكاد العرق أن يسيل من جبينه، وأقسم بعد ذلك أنه لا علم عنده بما احتوت عليه البطاقة، وأنه بريء مما نسبه/ إليه ورمى الأمر إلى غيره من أقاربي وغيرهم، فلم أبال بذلك واعتمدت على الله وتوكلت عليه ووكلت أمورهم إليه وهو خير الحاكمين. / 86
فهذا بعض ما وقع من تُرَّهاتهم وما انطوت عليه أفئدتهم، عاملهم الله أجمعين بما يعلم منهم.

مكاتبات علماء المغرب للمؤلف عن خارجية الفاسي:

وبعد مدة من مفارقة هذا الشقي وحلوله بوطنه[1]، ورد عليّ كتاب من بعض فقهاء المغرب وذرية صالحيه[2]، وممّن يتعاطى الأدب، عرفني بعقيدة الفاسي

---

(1) لم يصرح المؤلف بالوطن الذي رجع إليه الفاسي، والظاهر أنه يعني به فاس.
(2) في الأصل (صالحية)، أي أهل الخير والصلاح.

المذكور وأنه خارجيٌّ المعتقد، وذكر لي أن أشعاره تدل على بغضه لعلي بن أبي طالب. وأنشدني بعضه في كتابه المذكور تصريحاً بما يوجب هدر دمه، وأعلمني أنه بلغه الهجاء الذي ذَكَر في جانبي وهو ممّن كان له به ألفة، قال فتفاوضت معه في ذلك قال فرأيت في النوم والدي وهو ميت موضوع بين يدي وقائل يقول كل لحم والدك قال وأنا أتمنع وهم يحملون عليَّ أكلَه، فانتبهت فزعاً وتبت إلى الله من مقالته ومودادته، وسألني التحلل[1]. وذكر لي أنه كفَّر تلك الخواطر بتأليف صنعه في الردّ على الفاسي والتشنيع بطريقته واعتقاده وما هو عليه من الفسق والفجور، عامله الله بنيته في الدنيا ويوم/ يُبْعَثُ مَن في القبور. 87 /

وقد خطر ببالي أولاً أن أفحص على هجاه لأنازله بطباعه، وأوفيه الكيل بصاعه، فحجزني حاجز الشرع في طلب التَّقْوى، وأَكِلُ أمره إلى عالم السرّ والنَّجْوى.

ولِلّه درّ العلامة بن عرفة[2] حين ردت عليه فتواه وغُمص منصبه لما أبداه، بأن قال:

وما حال من يهجو أخاه بلفظه	لدى[3] ذاكر المرويّ عند الأيمة
وعلم أصول الفقه والبحث والنظر	سوى حال من قد ساءه قلب نكبة
فَبَاءَ بفسق قاله سيِّدٌ أتى[4]	بصدق وتبيين ووعظٍ وحكمة
روى مسلم عن شيخه عنه قوله	سباب لدى الإسلام فسق محجة
وصغرى وكبرى[5] ينتجان فسوقَه	فبالله اعرضْ عنه وادفعه بالتي[6]

فاتضح من كلام الإمام أن الفاسي وكل هاجٍ لمسلم، فاسقٌ. وبيان ما أشار إليه بقوله: (صغرى وكبرى ينتجان فسوقه)[7]، إن مقدمتي الدليل الذي أقام كبراه من

(1) أي المسامحة.
(2) أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغميّ، كان خطيب وإمام جامع الزيتونة، وله باع طويل في الفقه المالكي، وتوفي سنة 803.
(3) في الأصل (لدا).
(4) في الأصل (أتا).
(5) في الأصل (صغراً وكبراً).
(6) هذه الأبيات رد بها ابن عرفة على أبي عبدالله محمد المراكشي، وهي مذكورة، كما أكد لي ذلك الشيخ محمد الطاهر التليلي، في ترجمة ابن عرفة من كتاب (حدود ابن عرفة) للرصاع التونسي.
(7) قضية منطقية: مقدمة صغرى ومقدمة كبرى، النتيجة هي أن الفاسي فاسق.

حديث مسلم المذكور أنتجتا أن الهاجي / فاسق، وذلك أن يقال الهاجي المسلم 88 / ساب وكل ساب فاسق، فالهاجي المسلم فاسق، وهذا هو الذي أنتج الدليل. وبيان الصغرى واضح، وبيان الكبرى هو قوله ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً :(سباب المسلم فسوق). على أن إجابة مثله لا تليق بذي مروءة والسكوت عنه أحق وأولى، ولقد أفصح من قال:

سكتُّ عن السفيـه فـظنّ أني عييتُ عن الجـواب وما عييتُ
إذا قـال السفيـهُ فـلا تجبْـه وخيـرٌ من إجابتـه السكـوتُ[1]

نعم، معاداة[2] هذا ونظرائه ممّن كان على شكله واجبة لله تعالى، لما اتصفوا به من الأوصاف الذميمة والأفعال القبيحة، والشرع نهى عن مخالطتهم وموادتهم إلاّ أن يتوبوا ويرجعوا عن فعلهم وإلا فزجرهم وهجرانهم لا يخفى طلبه، وإن كانت مشاقتهم وعداوتهم تبيح عِرْضَ مبغضهم لهم ويتفكهون به كهذا الخبيث ومن كان على شاكلته إلاّ أنه لمّا كان من أجل المولى جلّ جلاله هان على النفس تمزيقه: (حفت الجنة بالمكاره)، ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[3]، ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[4].

ولقد صدق ابنُ الجهم السلمي فيما أرشد إليه وهو/: / 89

عنـاءٌ ليس يـشبهـه عنـاء عـداوةُ غيرِ ذي حسبٍ ودينِ
يبيحـك منه عِرْضاً لم يصنْـه ويرتعُ منكَ في عِرضٍ مَصونِ

ولقد ذكر لي بعض أصحابنا أنه بعد ذلك اعتذر[5] عمّا صدر منه، وأقرّ لهم بأنه محمول على ذلك بسبب وشاية[6] مَنْ ذكرناه، بل أتتني رسائله نظماً ونثراً، وهو أنه طالبٌ عليّ التحلّلَ وقد بدل السيئة بالحسنة. كل ذلك ظنٌّ منه أن كلّ ما صنع مني

(1) هذان البيتان ينسبان إلى عمرو بن علي بن بحر الفلاّس المتوفى سنة 249 هـ.
انظر (الابتهاج بنور السراج) للبلغيثي، ج 7/2، ط. مصر سنة 1319 هـ.
(2) في الأصل (معادات).
(3) سورة (آل عمران) الآية (142).
(4) سورة (العنكبوت) الآية (69).
(5) أي أحمد الفاسي.
(6) في الأصل (وشات).

بالبال، وأنا، إذا قبل الله ذلك مني، لا يضرني منه شيء، فلم يفعل معي إلّا ما يكون بفضل الله سبباً لتكفير سيئاتي وتضعيف حسناتي ورفع درجاتي، والله تعالى يجعل ما أصابني منه ومن أمثاله لله خالصاً، ويجازيني بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، على نيتي وذَبِّي[1] عن الشرع وقيامي بتغيير المنكر ما أمكنني ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾[2]، والنصفة بيني وبين جميعهم بين يدي الله تعالى وهو حسبي ونعم الوكيل. ولنكف القلم لما نحن بصدده.

42 ـ [التعريف بأبي عبدالله محمد الملقب بالفقيه، رحمه الله آمين]

محمد الفقيه الزواوي وابن مصباح وابن عبد المؤمن:

/ 90 ومن تصدى للتدريس بالمدينة[3] أبو عبدالله محمد الملقب بالفقيه، ورد/ على المدينة بعد السوسي[4] المذكور، وجلس لإقراء ابن الحاجب بها مع بعض الطلبة، وهو من جبل زواوة، وممن له مصاهرة بالشيخ أبي عبدالله محمد بن مصباح، وقدم قسنطينة فتزوّج من بعض حشم أهلها، ودرس في ابن الحاجب بجامع قصبتها، وبقي مدة إلى أن خطر بباله الحج ثانياً، فأنعم له بِحَمْلِه له حبيبُنا محمد حفيدُ الشيخ عبد المؤمن[5]، فأرسل إليّ في شأن إمساكه صهرُه وأهلُه، فبعثت في أثره لقصد معارضته عنه[6] لحجِّه أولاً ولسوء مطْعَمه فيه ومرْكَبه ثانياً ومجاورتِه مما لا ينبغي لموفق مُقَارفتُه، فتخفَّى مني إلى أن نَفَذَ حكمُ الله فسافر إلى الحج صحبةَ مَنْ ذُكِر فوقع له شغب[7] مع بعض الرِّفْقة أفضى الأمر فيه إلى المضاربة والخروج فيه عن دائرة الشرع، وكل ذلك عقوبةُ عدمِ الوقوف على مقتضى الأوامر والنواهي الشرعية.

وبعد قدومه وقف عندي واعتذر عن فعله بعذر واهٍ لا يُقْبَل إلا مسامحةً. وكان

---

(1) في الأصل (ودبي).

(2) سورة (الأنعام) الآية (91).

(3) يعني بها قسنطينة.

(4) انظر عنه ص 72.

(5) يفهم من هذا النص أن محمد بن عبد المؤمن هو الذي كان أمير ركب الحج. وكانت هذه الوظيفة في عائلة عبد المؤمن إلى أن آلت إلى عائلة الفكون. انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتابنا (شيخ الإسلام، عبد الكريم الفكون) دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

(6) يعني الحج.

(7) في الأصل (شعب).

اتفق معه أولاً مثلُ ما وقع ثانياً في حجّته الأولى من المجاورة لِمَنْ لا يسوّغه الشرع، وتاب من ذلك في زعمه ونقَضَ التوبةَ بما فعل ثانياً. وبعد مدّة من قدومه استعار مني المكودي، مع / غيره مجموعاً معه، ليقرأ فيه، فصادفه السفر إلى أهله[1] التي بجبل زواوة فلم يردّه لي، وكنت سألت عنه طالباً صاحبَه، فذكر لي أنه خرج به في مزْوَد كُتُبِه، فأرسلت له في شأنه فذكر لي في جوابه أنه أرسله لي مع بعض أصحابي، وطوى في ذكر كتابه لي أنني اتهمته عليه، ووعظني بأنه ليس هذا الظن السيء من شيم الصلحاء أو كلاماً هذا معناه، وأرسل لي الكتاب صحبة كتاب صاحبنا وأخينا الله سيدي محمد الموهوب بن[2] علي المذكور بعده ـ إن شاء الله ـ، فألقى الله تعالى في بالي من إفصاح قلمه[3] بأنني اتهمتُه أن هناك دخناً وقبله ما كنت اتهمته ولا أظن به هذا الظن. / 91

فأرسلت له جوابه، وإن الخلق التي نهيتَ عنها هي فيك أحق وأولى من حيث إنك ظننتَ بي ظن السوء في اتهامك إياي أني اتهمتك وأنا من ذلك بريء وليس إلا استفهمتُك عن شأن الكتاب هل رفعته معك أو أرسلته إليَّ مع أحد لم يصل إليّ بعد، وذكرت له أن الصاحب الذي ذكرتَ أنك أرسلتَ معه أنكر أن يكون رآك فضلاً عن أن يكون أرسلته معه، وأخبرته بقول صاحبه الطالب أنه رآه عنده في / مزوده. / 92

فأعطى الأذُنَ الصماء بعد بلوغ الكتاب له ولم يعرّج على جوابه، وبقي مدّة بوطنه المذكور، وفارق زوجَه التي بقسنطينة وأيستُ من جوابه كما يئست من الكتاب، إلى أن قدر الله أن أزعجه من وطنه وقدم على البلد[4]، وردّ زوجَه المذكورة، فاضطره الأمر بعد إقامته معها مدّة بالبلد وهو لم يرني ولم يلو على قضية الكتاب بشيء إلى أن أتاني في معرض الزيارة، وكان أيام قدومه وسماعي به أرسلت له الصاحبَ المذكور ليستخبره عن شأن الكتاب، فذكر له أنه لا يدري مع من أرسله إليّ ووافق الصاحبَ أنه لم يرسله معه.

---

(1) كان الشيخ الفقيه متزوجاً في زواوة وتزوج في قسنطينة أيضاً. والمؤلف يستعمل لفظ (أهله) للزوجة.

(2) انظر عنه ص 104.

(3) كلمة مطموسة الحرف الأول في المتن فقرأناها (قلمه).

(4) يعني قسنطينة.

ولمّا حصل اجتماعه بي اعتذر إليّ عن شأن الكتاب بأنه لا عنده خبر به، وذكر أنه مكّنه لي، فذكرت له ما كان كاتبني به في شأنه وما قاله طالبُه من أنه خرج به معه وكذلك ذكرتْ زوجُه، فبهت وقال لي سامحني وأنا أبحث عليه في مخبأتي عند زواوة، وأرسله لك، فخرج من عندي خروجاً لا رجوع معه، وبقي بوطنه مدة إلى أن توفي في سنة (   )[1] فإنا لله وإنّا إليه راجعون ﴿ وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون ﴾.

/ 93 /وأمّا حاله في الطلب فهو ممّن يُقْرِىءُ ابن الحاجب قراءة مسامحةٍ بكتاب التوضيح[2]، ولا باع معه في غيره، وحاله حال تنسّك وتخشّع ولا يحتمل مباحثة وليست في طوقه، ولا قدرة له على حل مشكل أو فتح مقفل فيما يقرىء فيه من التوضيح فضلاً عن غيره، وكنت سمعت منه مرة أنه رأى[3] في بعض التواليف أن سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ اسمه في الجنة إذا حلّ بها، عبد الكريم ذكر لي هذا تبشيراً لي بموافقة اسمي لاسم هذا النبي الكريم، فالحمد لله، على ذلك، وأرجو[4] أن يكون الاجتماع مع هذا النبي الكريم في جنّة النعيم، كما وقع الاجتماع معه في اسم عبد الكريم.

43 ـ [التعريف بسيدي محمد بن علي الطيار، رحمه الله آمين]

محمد الطيار:

وممن تصدى للتدريس بالبلد رجل يسمّى محمداً، من أولاد سيدي علي الطيّار، وهو رجل عليه سكينة وتؤدة، غالبه الصمت، ويذكر عنه أنه درّس في أوائل ابن الحاجب، ولم أجتمع معه إلا إذا لقيني زائراً، وعليه سيمى الخشوع، ولا مشاركة

---

(1) ما بين القوسين بياض بالأصل قدر ثلاث كلمات.

(2) كتاب التوضيح هو الشرح الذي وضعه الشيخ خليل (بن إسحاق) صاحب المختصر على مختصر ابن الحاجب الفرعي، في الفقه المالكي. وتوفي الشيخ خليل سنة 776 هـ، من إفادة الشيخ محمد الطاهر التليلي.

(3) في الأصل (رءا).

(4) في الأصل (أرجوا).

معه إلا ما يذكر من المبادىء في الفقه. وتوفي ـ والله أعلم ـ في أوان الطاعون، الواقع سنة أحد وثلاثين وألف[1].

علي بن محمد بن حسن:

94 / ومِمن تصدى/ للتدريس أبو الحسن علي بن الشيخ سيدي محمد بن حسن المذكور، وهو في زمن قبل من ذكرناه آنفاً، لقيناه وجالسناه في حال الصبا والشبيبة، وكان ـ رحمه الله ـ الغالب عليه الصمت وحسن السمت ولا يداعب[2] إلا أقرانه ومن له معهم مكانة، ومعه بعض الفقه والكلام[3] لا يغمص في ذلك ولا يحل مشكلاً ولا يفك عويصاً إلا ما يقرأ عليه المُبْتَدِي ولا يقاوي المُنْتَهي، يقرأ قراءة سهلة، ومعه ـ غفر الله له ـ بعضُ ترفّع نفس وشفوف على غيره لادعائه المعرفة الكاملة، ويأنف من مجالسة حُدَثاء الأسنان ومنازلتهم في المسائل.

وهو من نظراء صاحبنا أبي العباس الميلي، ومن أصحاب الفقيه أبي الحسن علي بن الفقيه أبي زكرياء يحيى المذكور. وكان هو من جملة عُذَّل الوالد في توليتي الصلاة بالجامع الأعظم زعماً منهم جهلي بأمورها وحداثة سني التي توجب تأخري وتقدم غيري، كما أوضحنا بعضه في خبر أبي العباس الميلي[4]. وقد اتفق من فضل الله أن جثا[5] أبو الحسن علي بين يديّ للسؤال، وكنت أجيبه عمّا يسأل عنه من فنّه الذي يدعي معرفته، فبعض أحيان يفهم وبعض أحيان/ يعجز فهمه عن إدراك ذلك 95 / إلّا بِعُسْرٍ كما وقع لغيره ممّن ظن فخاب ظنه، وربك الفتاح العليم.

ولنختم هذا الفصل بالتعريف ممن لقيناه من الطلبة الواردين لطلب القراءة من الشيخ التواتي المذكور، ومنّا بعده.

44 ـ [التعريف بأبي عبدالله محمد بن راشد الزواوي، رحمه الله]

محمد بن راشد الزواوي:

فمن ذلك صاحبُنا الفقيهُ الفهيم النحوي أبو عبدالله محمد بن راشد الزواوي،

---

(1) 1621/1031.

(2) في الأصل (يذاعب).

(3) أي علم الكلام.

(4) انظر ذلك ص 95. ويسميه أيضاً بأبي العباس الغربي.

(5) في الأصل (جثى).

قدم من زواوة أيام الشيخ المذكور طالباً منه قراءة المرادي، فنزل علينا بالزاوية المشهورة بأولاد الفكون، وبها[1] أُقْبِر الجد الصالح عبد الكريم المذكور، ووجدني في حداثة السنّ لم أجمع القرآن أو قريب عهد بجمعه، لأني شككت في ذلك، وكنت أحضره[2].

وكان هو السبب في تعلق قلبي بعلم النحو. وكان يناظر عليه بعض طلبة الشيخ التواتي بعد خروجه من مجلس درسه، وممّن كان يناظر عليه صاحبُنا أبو العباس أحمد ابن ثلجون، وكنت لفصاحة لساني أمسك له الكتاب وأقرأه عليه للمناظرة لسرعة إخراجي للخط وعدم توقفي فيه، فمن أجل ذلك اعتمدني لإقراء الكتاب، وأما الفهم إذ ذاك فليس لي قوّة فهم ولا إدراك إلّا ما كنت أنظر عليه دالة[3]/ المختصر لخليل من 96 / البيوع، وكنت إذ ذاك أقرأه على شيخنا أبي الربيع سليمان المذكور[4]، وكان يفكها لي أعني صاحبنا أبا عبدالله محمد بن راشد من كتاب التوضيح، لاعتناء أهل زواوة بقراءته، وكان قرأه على الشيخ ابن مصباح، والله أعلم.

كيف تعلق المؤلف بالنحو:

ولمّا أن أراد الله فتح البصيرة في فنّ النحو لازمته لإقراء الكتاب[5] له ولمن يناظر عليه، فكنت أستحسن ذلك وأصغي لأشعار شواهد الفنّ، فما هو إلّا وقد حصل لي ذوق ما، فكان هو بعد ذلك يعيد عليّ التقرير بعد أن يقرر لأصحابه، وكنت قبل ذلك قرأت الأجرومية وحدها ثم بخالد[6] عليها ثم بجبريل[7] عليها، قرأت ذلك على الشيخ أبي الربيع، ولم أحصل من ذلك على طائل إلّا على رفع الفاعل ونصب المفعول وخفض المجرور، ولا أستطيع أحسنُ الفرق بين ذلك وما لابسه من جهة المعنى حتى حصل لي بدايةُ الفتح الإلّهي من أجل المناظرة المذكورة وتحقيق بركة رؤيا الجد عبد الكريم المذكور.

(1) كلمة (وبها) مكررة في الأصل.
(2) أي كان يحضر حلقات درس ابن راشد.
(3) قسم من كتاب المختصر للشيخ خليل.
(4) هو سليمان القشي، انظر عنه ص 58.
(5) لعله يقصد كتاب المرادي.
(6) يقصد خالد الأزهري صاحب كتاب (قطر الندى).
(7) عن جبريل انظر ما سبق.

فلما[1] رأى مني الحرص والالتفات الكلي إلى هذا الفن صار يَحُثُّنِي على الحضور معه في درس شيخنا التواتي، وكنت قبل ذلك لا أحضره بل ولا أبغيه ولا أعرفه كل المعرفة، ومن جهل شيئاً عاداه، ظناً مني أن النحو/ هو ما قرأته من الأجرومية وقام فعل ماض وزَيْدٌ فاعل، فصرت أحضر معه مجلس الدرس المذكور وأجلس في أخريات القوم. وكان شيخنا التواتـي لا يلتفت إليّ ولا يعرج نحوي بشيء، فألقى الله في قلبي هَيْبَتَه وإجلالَهُ فتراه في مجلسه كالأسد وأصحابه الأشبال، وهو بينهم له زئير في علم النحو، فأسترقُ النظرَ إليه من خلال الحلقة فإذا وقعت عيني عليه عَبس وأراني عين الانقباض وأعرض عني فيزداد ما في قلبي من الإجلال والحياء منه، ومع هذا الفعل منه لا يصدني عن حضور مجلسه ولا يبعدني ما ألقاه منه من عظيم الإبعاد والإقصاء عن الحلول في حلقة درسه. / 97

وكانت سيرته إعطاءَ الأذُنِ الصمّاء للسائلين الواردين ولا يرفع لسؤالهم وزناً، ولعله خوفَ أن يكون منهم ذلك تعنتاً، والعلم لله لا لغيره، فأعطى العِلمَ حقَّه والشيخوخيةَ[2] منصبَها. وكنت أشكو[3] فعله معي لصاحبنا ابن راشد فيقول لي أحضرْ ولا تسأل، إلا أنني لا أفهم كثيراً ممّا يُبْدى في درسه لأصحابه، وقوة إفهامي إذا رجعنا للزاوية من صاحبنا ابن راشد عند المناظرة/ عليه دون التدقيقات والإيرادات والأجوبة التي تقع من الشيخ التواتي، فإني إذ ذاك نَاءٍ عنها ولا أكرع من بحرها. وكان عمدة المجلس صاحبنا المذكور[4]، ومن أجله نشأ الدرس، والناس تبع. / 98

المناظرة في النحو بين التواتي وابن راشد:

وكان صاحبنا يقف له في البحث ولا يسلمه له، وكان عمدة نظر صاحبنا ابن بابشاذ[5] على الجُمَل وعمدة نظر الشيخ سِراجَ التسهيل، فلم يتواردا على مورد واحد،

---

(1) في الأصل حروف مكتوبة هكذا (فحّ) فلم نهتد لفك رمزها، ولكن معناها هو (فلما).

(2) في المتن كتبت (السيخوحية).

(3) في المتن (أشكوا).

(4) يعني ابن راشد.

(5) ابن بابشاذ هو أبو الحسن طاهر بن أحمد، المتوفى سنة 469، وله عدة مؤلفات في النحو منها شرح الجمل للزجاجي.

وكثيراً ما يُلجئه الأمر، أعني الشيخ إلى سبّه الصاحبَ وإخراجِ سيء القول له، وربما يتكلّم في المجلس من كلام السفهاء لما يحمله الغضب والانزعاج حتى لا يفيق بما يصدر منه، وربما يقوم من المجلس غضباناً المرّة بعد المرة ويبطل درس ذلك اليوم، كل ذلك لا يثني الطالب عمّا أراده ولا الشيخَ عمّا يلقيه. لله درّهم أجمعين! كانت سيرتهم محمودة، وآثارهم مشهودة، وسقطاتهم معدودة، ومع هذا أنا بينهم ملقى لا في العير ولا في النفير، ولا أشعر الآن بالصواب مع مَنْ هو منهما لقصور باعي إذ ذاك عن إدراك البحث والتفطن له، إلاّ أنني استشعرت من/ الشيخ بعد مخالطتي له أنه /99 كان لا يحتمل البحث ولا يرضاه ويضيق ذرعاً، وجَعَل قوةَ عمله حفظ ما يلقيه لأصحابه، تفهمتُ هذا من انبساطه للإيراد آخر أمره ومن غير ذلك من قرائن حاله.

ولم أزل على هذا الأمر مع الشيخ إلى أن قدر الله تعالى ببطالة[1] مُمْسِك الكتاب للدرس، فلم يأت يوماً من الأيام، فأعْطَى[2] الكتابَ لصاحبنا أبي العباس أحمد بن ثلجون يقرأه، فكان بطيء الحركة لا يسرع بإخراج الألفاظ، فكان صاحبنا[3] يقول له: أعطِ الكتاب لفلان يقرأه، يريدني به، فيعطيه الشيخ الأُذنَ الصمّاء ويلوي على جوابه ويُظهر الكراهية لذلك، فأعطاه لأبي العباس الميلي[4]، فكان أبطأ من الأول وأقل تخريجاً منه، فاضطره الأمر إلى أن أُعطِيتُ الكتاب عن كراهة منه، ومع هذا كان إذا يختلي بصاحبنا ويسأله عن حالي يثني له عليّ خيراً ويذكر له ما لي من الفهم وفصاحة اللسان.

فلمّا أن أخذتُ الكتاب وقرأته عليه بسط الله لساني بقراءته فكأنني إذ ذاك كاتبُه أو مؤلفهُ في سرعة القراءة ومتانة ضبط الكلمات وانتساق[5] نظامها، فكمّل درسه ذلك اليوم وهو لا يلوي إليّ طرفاً ولا يستقبلني وجهاً إلى أن/ انقضى، وانصرف معه /100 الصاحب ابن راشد إلى داره أو لقيه دوني، فذكر له أن كلّ ما كنت تقول عليه وجدته،

(1) أي بتغيبه أو بانقطاعه عن الحضور.
(2) أي الشيخ التواتي.
(3) يعني ابن راشد.
(4) سبقت ترجمته، انظر ص 95.
(5) في الأصل (وانتسا).

أو كلاماً هذا معناه. فمن الغد لم يأت الممسك[1] فأعطيتُ الكتاب أيضاً فاعجبه قراءتي له، فلما أنْ عاد الممسك للكتاب لم ير منه ما رأى مني، فاتفق الأمر إلى أن فارق الممسكُ الدرس حنقاً وبغضة وحسداً لما رأى من بداية الإقبال من الشيخ المذكور، ففتح الله لي وكُبِت الحاسد ورُدَّ سعيهُ وبالاً. وكان حنقه راجعاً عليه فلم ينتفع بعد بنافعة، حتى أظهر الله الفتح والمنّة، فبهت الذي حنق وحسد، وكانت عاقبة أمره خسراناً، وربما سلب ـ والعياذ بالله ـ من أكثر ما قاله، ولا بدع في ذلك منه وهو من جنس يقال لهم الحضر بالمدينة المذكورة. ومن ولد أبي عبدالله بن نعمون، وهو ولده المسمّى محمداً:

(ومن يشابه أَبَهُ فما ظلم)[2]

والنصفة بين الجميع موقف يجمع فيه الأولين والآخرين.

وكان صاحبنا ابن راشد قيّد على الشيخ التواتي تقاييد من تقريره، وربما زاد طُرَراً من ابن بابشاذ وغيره، ولا أظنه جمعها[3]، ورجع إلى وطنه[4]، وكان بيني وبينه بعد ذلك مراسلات، وبلغني أنه لم يستمر بوطنه/ إلاّ على إقراء المكودي والجرومي، 101 / والله أعلم بحقيقة أمره.

45 ـ [التعريف بالسيد أحمد بن خليفة، رحمه الله، آمين]

أحمد بن خليفة:

وممن لقيناه أيضاً صاحبنا الفقيه أبو العباس أحمد بن خليفة، جاء بقصد قراءة النحو على الشيخ المذكور، وافتتح قراءة المكودي. وكان يقرأ في ابن الحاجب قبله على غيره، وتصدّى لإقرائه وجَمَع الطلبة عليه لذلك ولإقراء المكودي على الألفية.

ونزل علينا بالمدرسة المذكورة مجاوراً لصاحبنا ابن راشد. وكان ذات يوم ألقى

---

(1) ذكره المؤلف فيما بعد أنه محمد بن محمد بن نعمون.

(2) أوله:

بِأَبِهِ اقتدى عديٌّ في الكرم ومن يشابه أَبَهُ فما ظلم

(3) لم يؤلفها في كتاب.

(4) وهو جبل زواوة.

عليّ وأنا حديث السن بينهم، إعرابَ: عرفت زيداً أبو مَنْ هو؟ فخجلت من ذلك، وأعربت بعضه ولقنني صاحبُنا ابنُ راشد بعضه.

بين المؤلف وإبراهيم الفلاري التونسي:

وذكرتني هذه الواقعةُ واقعةً وقعت بيني وبين الفقيه أبي إسحاق إبراهيم الفلاري[1]. قدم على قسنطينة من بلده تونس ونزل على بعض خواصّها وبيتاتها، وكان له جانبان، جانب اللهو والطرب، يعامل به أقرانه وهم جمعٌ ونادٍ من أكابر البلد وغيرهم، وجانب أدب يخالط به فقهاءها ومنهم أبو زكرياء يحيى المحجوب[2]، وربما أضافه وأحسن ضيافته وبروره. وكان مداعباً[3] لهم حلو الفكاهة ذا لقلقة واضحة على أسلوب أهل بلده التونسيين[4]. وكان/ يدعي معرفة النحو وأنه له فيه اليد الطولى، واستطال به على أهل البلد، قسنطينة، لما يرون له من قوّة القريحة فيه، وربما يبلغني عنه أنه كان يستصغر جانب الشيخ التواتي في النحو ويرى لنفسه الشفوف[5] عليه فيه، وشاهد الحال والمقال لا يوافقه. / 102

فبينما أنا ذات يوم مجتازاً عليه قاصداً الدار آتياً من المكتب[6] وهو جالس في جمع أبي زكرياء المحجوب المذكور للمداعبة ونثر الحكايات اللائقة بجمعهم، إذ ناداني: يا فلان فأجبته، فقال لي: ما الجامع بين قول الله تعالى: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾[7]، وقول الشاعر:

كانت حنيفة أثلاثاً فَثُلْثُهُمُ ... من العبيد وثلثٌ مِنْ مواليها[8]

فسكتُّ واشتدّ بي الخجل أكثر من الذي نالني قبل من دعائه لي ومروري على

---

(1) من علماء تونس المرموقين في وقته، تولى فتوى المالكية، والتدريس بجامع الزيتونة، وكان منشغلاً بالنحو، توفي سنة 1039 (1629 م) بتونس، انظر عنه أيضاً الوزير السراج (الحلل السندسية) 1/2، 181.

(2) سماه من قبل يحيى بن محجوبة، وقد سبقت ترجمته.

(3) كثيراً ما كتبت هذه الكلمة ومشتقاتها في المتن (مذاعباً) و (المذاعبة) وكذلك (ذاعب) ونحوه.

(4) الظاهر أن المؤلف يقصد باللقلقة كثرة استعمال حرف القاف في النطق التونسي.

(5) أي التقدم والصدارة.

(6) أو الكتّاب (المدرسة القرآنية).

(7) سورة (آل عمران) الآية (97).

(8) البيت لجرير يهجو بني حنيفة قوم مسيلمة الكذّاب، وهو شاهد على جواز حذف بعض الكلام من الجملة لدلالة الباقي عليه. من إفادة الشيخ محمد الطاهر التليلي.

جمعهم، وصار يؤنبني بمشهدٍ ممَّنْ ذُكِر، وأنا أصغُر وأتضاءل أمامه لعجزي إذ ذاك وقلّة معرفتي، إلاّ أنني إذ ذاك كنت ذا نفسٍ أبيّةٍ ومع صغر سني لا أرضى أن أكون خليّ المعرفة ممّا عرفه غيري. فاشتدت القريحة في الطلب اشتداداً عظيماً، وعجبت منه كيف جعلني قِرْنَهُ وأنا صبيُّ المكتب، وخصّني بالإيراد دون مَنْ سواي/ فلم أخلص من بين يديه إلا بجهد ومشقة، فأخذني من الكآبة والحزن ما لا أقدر على دفعه ولم أجد له جواباً. / 103

ثم إنني أُلهِمتُ إلى تصفّح مغني اللبيب[1]، فرأيت فيه بيت شعر وهو:

إنَّ هنـدُ المليحـةُ الحسنـاءَ ... وَأْيَ مَنْ أضمرتْ لخلٍّ وفاء[2]

وفسّرها ابن هشام وأوضح مُقْفَلَ معناها وإعرابها، فحفظتُ البيتَ وإعرابه حفظ آيةٍ من كتاب الله، وترصدت له حتى حضر بالنادي المذكور ورئيسه إذ ذاك أبو زكرياء المذكور وجماعة أهل المجلس الذين حضروا لإيراده عليّ الإيراد المذكور أوجلهم، وقصدته، فلما رآني سارع بالاستطالة عليّ وإرَاءَةِ[3] التبحر في الفن المذكور، وناداني: ما لَكَ يا فلان لم تجب فإنك لا تعرف شيئاً أو كلاماً هذا معناه يقتضي السخرية والاستهزاء، فقلت له: أجبني أنت عن قول الشاعر:

إنَّ هنـدُ المليحـةُ الحسنـاءَ ... وَأْيَ مَنْ أضمـرتْ لخلٍّ وفـاء

ما إعرابه وما معناه؟ فوالله ما هو إلا كَمَنْ أُلجِم بلجام، واصفرَّ تارة واحمرَّ أخرى وسُقِط في يده وبُهِتَ من ساعته ولم يردَّ لي جواباً، ولا استفتح كلاماً ولا/ خطاباً، فلما رأيته كذلك زدتُ في تهييجه وهو يتضاءل ويرمقني من طرف خفي حتى فطن له الجمع. / 104

ثم انصرفت وتركته على تلك الحالة. فبعد يوم أو ساعة قصدني إلى باب الدار وأخذ بخاطري وقال لي: بارك الله فيك، والله لأنت أحسن من فقهاء بلدك أو كلاماً

(1) مغني اللبيب في النحو لابن هشام (جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الأنصاري) المتوفى سنة 761 هـ.

(2) سيأتي إعراب ومعنى هذا البيت بعد قليل.

(3) أي إبداء وإظهار.

هذا معناه، وإنما فعلت معك ذلك لأعرف كُنْه عقلك، فلقد وقفت منه على المراد. وذكر لي أن الجمع[1] المذكور ذكره الدماميني[2] في شرح المغني الكبير[3] من شروحه، ووعدني بإرساله إليّ أو نَسْخه، وعرف حقي من ذلك اليوم. وأخبرتُه بمَنْ ذكر البيتَ ومعناه وإعرابه وحصلتْ الألفة بيني وبينه. من ذلك الواقع يوم بيوم والحرب سجال. وبعد مدة مضى إلى بلده، وانقطع به، ولم يأتني من عنده ما وعدني، وهو الآن عندهم بتونس[4] مشار إليه في التدريس، معتبر بينهم، لا يطيقون معارضته فيه على ما قيل لي عنهم، والله أعلم.

كشف وإيضاح:

أمّا الجامع بين الآية والبيت فهو أن كلاً منهما طَوى ذِكْر بعض وذَكَر بعضاً. فالآية ذكرتْ من الآيات آيتين وطوت ذكر الباقي، والبيت ذكر فيه ثلثين وطوى ذكر الثلث الآخر، وهذا على من لا يجعل أن المقام احتوى/ على آيات. وأمّا بيان مقفل البيت الذي أوردناه على أبي إسحاق[5] فهو أن معناه: عِدِي يا هند المليحة الحسناء وَعْدَ مَنْ أظهرت لِخِلٍّ وفاءً. وتقرير ذلك: إن فعل أمر، وَأيَ يئِي إذا وَعَدَ وأكد بنون التوكيد الثقيلة فصار إنّ، ورفع هند[6] بعده على حذف حرف النداء فهو منادى مبني على الضم، والمليحة نعت له على اللفظ، والحسناء بالنصب نعت له على المعنى. وأما قوله: وأي فهو مفعول مطلق العامل فيه إنّ، وكأنه قال إيَا هند وأي فهو أمر محذوف الآخر كقولك قِ وشِ مِنْ وَقَى و وَشَى.

105 /

ولنكتف بهذا القدر إذْ محله كتب النحو، وأتينا بهذا تتميماً للفائدة وقطعاً لشغب

---

(1) كذا، والصواب (الجامع) بدل (الجمع)، والمقصود الجامع بين الآية المذكورة وبيت الشعر، كما سيشير إليه.

(2) هو محمد بن أبي بكر بن محمد بن سليمان المعروف بابن الدماميني، المتوفى سنة 837 بالهند. ولعل المؤلف يشير إلى شرحه المسمى (تحفة الغريب في حاشية مغني اللبيب)، انظر بغية الوعاة للسيوطي، ج 66/1 - 67 (من إفادة الشيخ محمد طاهر التليلي).

(3) الكبير وصف للشرح، أي الشرح الكبير على المغني.

(4) هذا التعبير يدلنا على أن المؤلف كان يكتب هذا الكتاب قبل 1629/1039، تاريخ وفاة الفلاري.

(5) أبو إسحاق هو إبراهيم الفلاري الذي سبق ذكره.

(6) في الأصل (عند) بدل (هند).

الناظر لئلا يتشوّش ذهنه عند قراءته لما ذكر، ولئلا يخلو هذا التأليف من نُكَتٍ حِسَان، وسيتضح - إن شاء الله - ذلك للعيان.

46 - [التعريف بأبي عبد الله محمد البوزيدي، رحمه الله، آمين]

محمد البوزيدي:

وممن لقيناه وتصدّى للتدريس بقسنطينة أبو عبد الله محمد البوزيدي كان يقرأ عقائد الشيخ السنوسي وتدرس[1] فيها بجامع قصبة البلد وبغيره، وكان له إقراء في ابن الحاجب. ولما قدم الشيخ التواتي واستوطن البلد المذكور جلس بين يديه للقراءة ولازمه مدة مع / جملة أصحابه، وكان ذا ترفع على غيره ودعوى عريضة خصوصاً في علم التوحيد. وكان يقال عليه أنه يصرّح في مجلسه بأن المقلّد غير مؤمن، وربما ينقل عنه أنه يجاهر بأن العامّة مختلف في إيمانهم، فكان له بينهم انْسِفالٌ فتعلق بأهل القصبة[2]، واجتمعوا عليه وصار له فيهم مكان عالٍ، ووضع من قَدْرِه عندهم حين سكن الشيخ التواتي بالمدينة[3] وهرعت الناس إليه وعكف كلهم إذ ذاك على تعظيمه شريفهم ومشروفهم. / 106

وكان البوزيدي المذكور ممّن لَسْتُ[4] عنده في ورد ولا صدر ويَرْمُقِني دائماً بعين الاحتقار لما يرى من نفسه من كمال الإدراك والمعرفة، وربما وجدني مع بعض أصحابنا نتكلم في بعض المسائل فيعرض عنّا ولا يبالي بنا فاتفق، والحمد لله، أن طلبني مراراً للقراءة عليّ في الألفية وألحّ غاية الإلحاح، فامتنعت منه ومنعته لما عرض لي من الشغل، وصار يتكرّر إليّ في المسائل النحوية والفقهية، وربما يأتيني[5] بتقاييد له فأردّها عليه في الفقه، ويسألني جواب مسائل فيه فأقيده جوابها.

---

(1) كذا (تدرس) ولعل صوابها (يدرس).

(2) يشير المؤلف (بأهل القصبة) إلى أصحاب النفوذ والسلطة الحاكمة، لأن مقر الحكم كان بالقصبة، بينما (العامة) كانت بالمدينة.

(3) أي في الأحياء الشعبية.

(4) كلمة غير واضحة جيداً، وقد قرأناها (لست).

(5) في الأصل (يأتني).

مذهب كلامي شاع في المغرب (الجزائر):

ومن منتحله فيما استفاض[1] عليه، القول بأن قدرة الله لا تتعلّق بتحيز الجوهر، وهذا مذهب سَرَى في جلّ أهل المغرب / سَرَيان النار في الفحم، وشافهني به بعض الطلبة المغاربة[2] ممّن ورد علي للقراءة في المرادي مدعياً هو أيضاً كمال المعرفة في علم الكلام مدرساً في العقائد للسنوسي وشراحها. وللشيخ التواتي مواطن[3] مع البوزيدي في زجره عن هذا الانتحال ورده عليه هذا المذهب، وأبى[4] إلا القول به والعكوف على التمذهب به، وغره مع جملة من قال به من تلاميذ ومشيخة لهم هو ما يجعلونه دليلاً وعصاماً بينهم، أن القدرة لا تتعلق بالواجب والتحيز للجرم واجب فلزم عندهم أن لا تتعلق القدرة به.

وقد سئلت عن هذه المعضلة[5] غير ما مرة، وأجبت فيها بمذهب أهل السنة في ذلك، فرجع من رجع وعاند من عاند. ونص ما أجبت به حين سئلت عن القدرة هل تتعلق بقيام العرض بالجوهر أم لا؟ من بعض الفقهاء المدرسين من جبل أوراس، بعد الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول الله، هذه المسألة إحدى ثلاث المسائل التي سمّاها المعتزلة: الصفات التابعة للحدوث، وثانيها قيام التحيز للجرم، وثالثها كون العالم عالماً المعلل بالعلم وزعموا أنها لا تقع / بالقدرة لوجوبها، وهو مذهب باطل لا تقوم لصاحبه حجّة ومعْتَقِدُه استهوتْه شبهةُ لفظِ الوجوب فتبع طريقَ الأهواء وما شعر. ومن أجل هذا ونحوه منع العلماءُ النظرَ في كتب الكلام لمن لا باع له في التحقيق ولا دراية له في حل الشبهة وفك مقفل الخصوم.

وقد أبطل أئمتنا هذه الشبهة بوجهين، أحدهما: طريق الإلزام بما لا محيص لهم عن إنكاره، والثاني: ببطلان الدعوى. أما الأول فنقول لهم: أليس متعلق القدرة الحادثة عندكم حال وهو الوجود والصفات التابعة للوجود[6] أحوال، فما المانع من

---

(1) في الأصل (استفاظ).

(2) ذكرنا أن كلمة (المغاربة) يقصد بها المؤلف غالباً سكان وسط الجزائر وغربها، وليس سكان المغرب الأقصى.

(3) يقصد بالمواطن اجتماعات أو وقائع.

(4) في الأصل (أبا).

(5) في الأصل (المعظلة).

(6) في هامش المتن صححت كلمة (للوجود) بكلمة (للحدوث).

تأثير القدرة فيها وما وجه اختصاص تأثير القدرة ببعض الأحوال دون بعض؟

وأما الوجه الثاني فهو جواب ما لجأوا إليه في دفع الإلزام المذكور فإنهم راموا التخلص منه بأن قالوا إنما فرقنا بين حال الوجود في تعلق القدرة الحادثة به وحال الصفاتِ التابعة للحدوث من حيث وجوب تلك الصفات فاستغْنتْ عن المقتضى ولا كذلك حال الوجود، قلنا لا نسلّم القول بوجوبها بصحة انتفائها وما صحّ انتفاؤه بطل وجوبه ولا يخفى تحقق انتفائها قبل الوجود لها. قال المعتزلة عنينا بوجوبها أنها لازمة الثبوت/ عند الوجود، قلنا والوجود لازم الثبوت عند وجودها وكذلك كل متلازمين متى ثبت أحدهما ثبت الآخر ونسبة التلازم إليهما على حدّ السواء. ولئن صحّ أن نقول بثبوت أحد المتلازمين عند ثبوت اللازم له وجوباً، صحّ في جانب الملازم له الآخر وإذا رتب على الوجوب بهذا المعنى الاستغناء عن الفاعل فيلزم ثبوته في الجانب الآخر ضرورة شمول المعنى، فيلزم أن الجوهر لا تتعلق به قدرة بوجوبه بخلق العرض. / 109

انتهى الغرض من الجواب وبه يتضح لك بطلان قولهم إن القدرة لا تتعلق بتحيز الجرم.

47 ـ [التعريف بأبي إسحاق إبراهيم الحركاتي، رحمه الله، آمين]

إبراهيم الحركاتي:

وممّن تعاطى التدريس أبو إسحاق إبراهيم الحركاتي ببلد ميلة، وكان نسّاخاً ذا خط بيّن وإتقان فيه ومبدأه في حرفة النسخ، وكان متديناً وربما يشهد بين الناس بها وكانت بيني وبينه أخوة، وربّما يسألني عن بعض مسائل فأجبته حتى وقع بينه وبين حبيبنا للّه أبي العباس أحمد الحاجي منازعة في مسألة: حيَّ على الصلاة فنقل لهم أنها بالنصب والإجماع على ذلك، فكاتبني أبو العباس المذكور سائلاً عن ذلك وكاتب الشيخَ التواتي أيضاً فكل أجاب بالخفض. وطغى القلم مني/ بما استوجع خاطرَ أبي إسحاق، وكان سبب طغاه ادعاؤه الإجماع وما نقل لي أبو العباس في سؤاله من التخطية لغير من لا يقول بقوله، فبلغ أبو إسحاق الكتابَ فكاتبني بكتابٍ من تلقائه / 110

معتذراً عن نسبة المقالة المذكورة إليه وأنه بريء منها إلا أنه نقلها عن غيره وأن أبا العباس هو المحوّل للنقل عنه المحرّف له، وزاد به الكلام وترامى به الحال إلى أن خرج منه في البطاقة[1] ما أنبأ عن دخيلاء سريرته وعامر طويته من الشحناء واقتناص البغضاء وعدم سلامة الصَّدْر وكبير الأنفة، وكان قبله عندي في غاية التدين وحفظ النفس، فأظهر الله منه ببركة القيام بالحق ما كمن في باطنه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون، وتوفي (   )[2].

أحمد الحاجي:

وأما أبو العباس[3] فهو، وإن كان من أهل الوظائف[4] المذكورة، عدالة ونيابة[5] ببلد قسنطينة، فهو من جملة الإخوان الذين أَذْكُرُهُم في خاتمة الديوان[6].

---

(1) يقصد بالبطاقة الورقة المكتوبة.
(2) ما بين القوسين بياض بالأصل قدر كلمتين.
(3) يعني أحمد الحاجي الذي أشار إليه في ترجمة الشيخ إبراهيم الحركاتي.
(4) في الأصل (الوضائف).
(5) أي نيابة قضاء العجم.
(6) أي خاتمة الكتاب، وسيذكر هناك فعلاً أحمد الحاجي ولكن باسم ابن الحاجة فانظره.

الفصل الثالث

فيمن ادعى الولاية من الدجاجلة الكذابين والمتشدقة والمبتدعة الضالين المضلين

وربما[1] ألجأ الحالُ إلى ذِكْر من لم يكن بصفة من/ ذُكِر لقصد التعريف به [111 /] فسننبّه عليه ـ إن شاء الله ـ.

48 ـ [التعريف بسيدي قاسم بن أم هانىء، رحمه الله]

بين الشيخ الأحسن والأخضري:

فمنهم رجل يقال له قاسم بن أم هانىء حفيد الشيخ الأحسن، وجده ينسب إلى الصلاح وكذا سلفه، وإن كان حُكِي لي عن الشيخ سيدي عبد الرحمٰن بن صغير[2] الطعنُ عليه، فتلك أمة قد خلت، وكذا حُكِي لي الطعنُ منه على الغراب[3] المدفون بعين الحامة[4] خارج قسنطينة، وربما قيل إن الشيخ عبد الرحمٰن أمر تلامذته بضرب الغراب حين فاجأهم[5] اللقاء[6]، وكان الغراب راكباً على حصان فبال دماً، قيل لي فقال عند ذلك للشيخ عبدالرحمن: إنك أمرت تلامذتك بضربي، فالتفت الشيخ لأصحابه

(1) في الأصل (وبما).

(2) يقصد عبد الرحمن الأخضري صاحب المنظومة المعروفة (بالقدسية) التي انتقد فيها متصوفة زمانه. ويفهم من كلام المؤلف أن الشيخ الأحسن كان معاصراً للأخضري.

(3) (محمد؟) الغراب دفين حامة قسنطينة.

(4) في الأصل (الحمة).

(5) في الأصل (فاجأهما).

(6) في الأصل (اللقى).

وقال لهم: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهـم أزّا﴾[1]، والله أعلم بحقيقة الأمر. وكأن الشيخ المذكور[2]، فيما يقال، يظهر التكبر كثيراً على مثل هؤلاء[3]، وجعل قصيدة[4] فيهم وفي نظائرهم من مبتدعة زمانه، وكان يطعن على جد قاسم المذكور ولا ينسبه للولاية.

وكذا سمعت شيخنا التواتي أن فقهاء من عاصره ينكرون ما ينسب إليه حتى حكى أن ذات مرة كان للشيخ الأحسن المذكور فدان فذكر أن بعض تلامذته أتى بذئب/ 112 / ميت وجعله في الفدان وجعل فمه في قرعة أو فقوسة وأصبح يشيع بين القوم أن من بركة الأحسن موت الذئب لما أراد يأكل من فدانه فأفاض ذلك بين اللصوص، فعظمت بذلك رتبته، والله أعلم بحقيقة الأمر، والميزان الأعدل في ذلك أن تنظر إلى المرء وما هو عليه من الطريق المستقيم القويم والصراط المستقيم في اتباع السنة قولاً وفعلاً وعملاً فما كان فهو ممن يجب الاعتقاد فيه وما لا فلا.

قاسم بن أم هانيء وثورة والده نواحي نقاوس:

ولنرجع إلى التعريف بالرجل المذكور[5]، وبدأنا به لعظم مفسدته بين الخلق وشهرة بدعته وقوتها. فاعلم أن هذا الرجل كان في ابتداء أمره ذا سمت حسن بأن جانب جبايا زواياهم إذ لأسلافه رعايا يؤدون لهم الأعشار والزكوات، فكان ذلك الرجل مباعداً لأمورهم مشغولاً عنهم بجعله لنفسه خلوة في أماكن يعدها ويواظب[6] على الصلوات والصوم، ويُرِي[7] تناول أكله لطعام الشعير ويتقشّف في لبسه بلبس الغرارة والمرقعة حتى أمال القلوب إليه وأصغى الآذان نحوه وأشارت بالألِف إليه الأصابع[8] وسبب ذلك أن رعاياهم امتدت إليها أيدي اللصوص فلم يبق لها بينهم

---

(1) السورة (مريم)، الآية 83.
(2) أي الأخضري.
(3) أدعياء الولاية.
(4) هي المسماة (القدسية).
(5) يقصد به قاسم بن أم هانيء الذي افتتح به الفصل.
(6) في الأصل (يواضب).
(7) أي يتظاهر.
(8) إشارة إلى قول الفرزدق يهجو جريراً، والبيت هو:

حرم وصاروا يأخذونهم حيث ما وجدوهم إلّا أن يجعلوا غرامة/ عليهم للصوص وذلك 113 /
بعد موت جده الأحسن المذكور، وخصوصاً لِمَا وقع لولده أبي عبد الله محمد من القيام وشقِّ العصا بجبال قرب نقاوس ما هو مشهور، وخرجت إليه عساكر قواد قسنطينة، وافتضح أمره وهرب إلى بعض نواحيها، سقطوا في أعين الخاص والعام، وصارت الأعين ترقبهم بما فعل والده[1].

فازعم[2] قاسم المذكور على أن يحيى ما اندرس من طريق أسلافه بأن اتخذ ذلك الفعل المذكور شعاراً، وبقي عليه مدة وكثرت مخالطته لبوادي الرعايا، والرعايا المذكورون يشنعون[3] أمره ويظهرون للصوص خبره، ويتقولون على اللصوص تقاويل من كرامات ينسبونها له ليردعوا بذلك اللصوص عنهم وليأمنوا في أموالهم وأهليهم مع إعانته لهم بما أظهر من نفسه من التنسك والمثابرة على الطريق الأعدل، وللّه درّ من قال:

صلَّى وصامَ لأمرٍ كان يطلبُهُ   لما قَضَى الأمرَ لا صلَّى ولا صاما

المؤلف يصف الحضرة الصوفية:

فبقي على ذلك مدة حتى فشا خبره وانتشر أمره وصار بين اللصوص كالطاعون في الفرار منه، واتخذه الناس الجهلة مقطعاً للحقوق وطريقاً لبلوغ مرادهم، فأظهر إذ ذاك البدعةَ وأشهر الخدعة/ وجعل تلامذةً سماهم الفقراء، على طريق أهل البدع، 114 /
واتخذوا الحضرة، وهي لعبة يتخذونها يراؤون بها الناس ولا يستخفون من الله، بها يأكلون ومنها يتموّلون وعليها في قضاء أوطارهم يعولون، يجتمعون لذكر المولى جلّ جلاله فيغيرون اسمه ويشطحون ويرقصون وربّما يتضاربون، فتراهم ككلاب نابحة، ولعابهم كمياه طافحة، وأنفاسهم كنيران نافحة، لا يفرقون بين واجب ومندوب ولا محرم ومكروه، ويعتقدون أنّ ما هم عليه هو الحق الواضح، والطريق الأقوم الراجح،

= إذا قيل أي الناس شرّ قبيلة   أشارت كليب بالأكف الأصابع
(من إفادة الشيخ التليلي) وكلمة بـ (الأكف) في النص مكتوبة (بالألف) فاكتفينا بالتنبيه على ذلك.

(1) أي والد قاسم بن أم هانىء الذي هو محمد بن الأحسن المذكور.

(2) كذا (فازعم) والظاهر أنها (فأزمع) أي عزم.

(3) أي يروجون وينشرون.

ولقد زيّن لهم الشيطان أعمالهم وحبب إليهم أفعالهم ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾[1].

فترى تلك الأعوان زبانية وأي زبانية، وعند المائدة إذا وُضِعت لهم ذئاب عاوية، ويقصدون مع رئيسهم بيوت اللصوص من الأعراب وغيرها، وينصبون وراء الحلّة[2] بيتاً لهم يأوون إليه، ويخرج أحدهم من قِبَل رئيسه إلى شيخ القبيلة منادياً بشهرته وأنه وليّ الله صالح، لا تحرموا من بركته، وإنه يقتل ويثير الضرر والأسقام، / 115 ويبري العاهات ممن يشاء من الأنام، وكل ذلك والرئيس بمرأى/ ومسمع، ويعجبه ذلك القول ويرضاه من الشرطي المسمّى بالفقير عند من سمع ومن لا يسمع، فتأتي إليه اللصوص، وهو عند نفسه من أهل الخصوص، فيجعل من يتكلم على فمه بمراده، وهو أعظم من أن يُبَاشِر حاجتَه لشخصه وسواده، فيقول فقيره لأولئك القاصدين: الشيخ يريد منكم كذا وكذا وإن لم تقضوا حاجته لا تفلحون، ويعدد لهم من زعموا أنه أجيب على يده، ومن حلّت به غمرات النكبات من بلده، ومن غير بلده، فيسارعون لقضاء أوطاره، وكل منهم يقول يا ليتني من أنصاره، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون على مصيبة في بصيرته، وما نَالَه من عظيم جريرته، يأكلون الدنيا بالدين ﴿ويحسبون أنهم على شيء إلاّ أنهم هم الكاذبون﴾[3].

من طرق أدعياء الولاية في الاستيلاء على أرزاق الناس:

هذه بعض سيرة جماعتهم وطريقة عصابتهم. وأما خصوص قبائح هذا الرجل فهي أشهر من أن تذكر، وأحقر من أن تسطر، ولولا بذل النصيحة، ما استعملنا في جمعها قريحة. فمن قبائحه المأثورة وطريقته المشهورة أنه إذا رأى أو سمع عند أحد من أهل رعاياه بفرس تعجبه أو بغل أو نحو ذلك ممّا هو في غاية الحسن ينزل عليه / 116 ويقول له ذلك الشيء هو لي فإياك وبيعه أو إخراجه/ لغيري، فيجعل يده عليه فلا يقدر ربه على بيعه أو هبته، ولو كان في غاية الضرورة والاحتياج إليه حتى يأتيه فيأخذه إمّا مجّاناً وإمّا بثمن بخس وإمّا يفرقون له ثمنه رعاياه عليهم[4] يؤدونه لصاحبه، وإذا

(1) سورة (المجادلة)، الآية (19).

(2) كذا (الحلّة) والظاهر أنها (المحلة) أي مجموعة الخيام، والمعنى في الحالتين واضح.

(3) سورة (المجالدة)، الآية (18).

(4) جملة (يفرقون. . . عليهم) سقيمة التركيب، وإن كان معناها واضحاً.

شحّ ربّه في ذلك أو استقل ثمنه فيُذكر لي أنه إما أن يوعده بنكبة تناله أو مصيبة تصادفه في النفس فما دون، فما وافق القدر من ذلك تحدى بها[1] كرامة ويشيعها زبانيته وأهل طريقته ليتوصّلوا[2] بذلك إلى أغراضهم الفاسدة في إنالة مرادهم واستعطا[3] اللصوص لهم والأمراء والعامة ومن طبع على قلبه بطابع الطمع من الخاصة، ويتأدب غيره من أهل رعاياه وغيرهم فلا يبقى له معه متكلم في كل ما يريد منه أو يحتاجه. وإذا لم يصادف القدر ما أوعد يُغْري عليه[4] اللصوص بأخذ ماله أو معاقبته من حيث لا يشعر ويجعل ذلك كرامة له هو وأهل[5] شيعته.

فأنت ترى سيرة هذا الخبيث والعياذ بالله كيف جمع في فعله المذكور بين الغضب والسعاية والزندقة المحرّمات، وكفى بها إثماً وقطيعة عن باب المولى. أما الغصب فلا شك في أنّ وضع يده تحجيرٌ على ربه من التصرف في ماله حتّى يأخذه بغير طيب/ نفس، إمّا في أصل البيع إذ قد لا يريده ويكون يحتاج ذلك لنفسه، وإمّا 117 / في ثمنه إمّا لاستقلاله وإمّا لعدم طيبه، إذ قد يكون ممن لا يرضى ذلك لنفسه. وهذه الصفة احتوت على رذيلتين منافيتين لمقام الصلاح، ومباعدتين من باب الفوز والنجاح، أحدهما ظلم النفس بحملها على مخالفة الأمر، والثانية ظلم الغير المتوقف التوبة منه على رضاء، فكيف يظن العاقل أن المنتجس بقذارة هاتين الخصلتين من أحبّاء الله وأوليائه، وهل هذا إلا جهل بالدين أو استهزاء بما جاء عن سيد المرسلين؟ وأمّا الآثار الواردة في ذم الظلم عموماً والغصب فهي أشهر من أن تذكر وغرضنا التنبيه الوجيز لئلا نخرج عن المقصود.

وأما السعاية فهي حجاب عظيم لصاحبها عن باب الله ومانع من دخول دار الكرامة التي أعدّها الله لأوليائه، حسبما دلّ عليه حديث (لا يدخل الجنة قتّات)[6]، وإذا كان هذا الرجل من جماعة أهل الوعيد فكيف يغلب على الظن أنه من أهل دار

(1) عبارة (تحدى بها) اجتهدنا في قراءتها كذلك، لأنها غير واضحة في المتن.
(2) في الأصل (ليتوصلون).
(3) كذا في الأصل ولعل الحرف الأخير ساقط منها فيكون رسمها (استعطاف).
(4) كانت (عليهم) وصححت في الهامش (عليه).
(5) في الأصل (أو هل).
(6) قتات: قطاع.

المزيد؟ ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم﴾[1]، فحسن الظن بمثله إلحاد في كتاب الله وسنّة رسوله/. 118 /

وأما الزندقة فبدعواه أن ما أصاب من النكبات مَنْ لم يوافقه على مرغوبه هو ببركته ومن أجل حضرته. وقد علم أن التحدي فارقٌ بين منصب النبوءة والولاية، فالولي إذا تحدّى تزندق وخرج عن دائرة أهل القرب والخصوص. وقد ذكر علماؤنا في كتبهم أنّ من قال أنا ولي فهو زنديق، هذا لو كانت[2] آثار الطريقة ظاهرة على صاحبها، وأما من هو في لجج العماية غريق وفي تيه الحرمان راكض متلطخ[3] بقذرات المعاصي الظاهرة التي هي عنوان عن الباطن، أُمِرْتُ أنْ أَحكُم بالظاهر، فأنّى يَشُمُّ رائحة أهل الله أو يفضي إلى مناهجهم الرشيدة أو يهتدي إلى منازلهم السعيدة! ﴿أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون﴾.

أبيات من قدسية الأخضري:

ولله درّ أبي زيد الشيخ عبد الرحمٰن الأخضري، حيث نظم ما قاله السادة الصوفية في هذه الطائفة[4]. قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

وقال بعضُ السادةِ الصوفيهْ ... مقالةً جليةً صفيهْ
إذا رأيتَ رجلاً يطيرُ ... أو فوق ماء البحرِ قد يسير
ولم يقفْ عند حدودِ الشرعِ ... /فإنه مستدرج وبدْعِي 119 /

وقال ـ رحمه الله ـ:

واعلم بأن الخارق الربّاني ... لتابع السنةِ والقرآن
والفرق بين الإفك والصواب ... يُعرَف بالسنةِ والكتاب
والشرعُ ميزانُ الأمورِ كلها ... وشاهد لفرعها وأصلها
والشرع نورُ الحق منه قد بَدَا ... وانفجرتْ منه ينابيعُ الهدى

---

(1) سورة (يونس)، الآية (27).
(2) في الأصل (كان).
(3) في الأصل (متطلخ).
(4) هذه وما يليها مقتطفات من القصيدة المسماة (القدسية) للأخضري.

من أوصاف قاسم بن أم هانيء:

ومن أوصاف الرجل المذكور[1] شدة الأنفة وعدم الانقياد إلى الحق فيما يعرض له من المخاصمات، فيؤثر على أداء ما وجب عليه والرضى به الوقوفَ مع الحظوظ[2] النفسانية والأنفة الشيطانية في أن يذل لغالب أو يخضع لطالب ولو بصميم الحق وقاطع الصدق. وتراه تمشي زبانيته بين يديه لتفريق الرشا على الحكام والأمراء فتسمح نفسه ببذل مائة لأولئك ولا تنقاد لدفع درهم واجب عليه. وهذه صفةُ الكفرُ أقرب إليها من الإيمان، وشعار أهل الطرد والخذلان ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم/ حرجاً ممّا قضيتَ ويسلموا تسليماً﴾[3]. وهاتان رذيلتان: الكبر وعدم الرضى بالشرع، وأعظمْ بهما خصلتين أورثتا سخطاً ومقتاً من الله لصاحبهما، وكلاهما[4] من أوصاف إبليس ـ لعنه الله ـ فكيف يتلمح في المتصف بهما أن يكون من أولياء الله وخاصّته وأهل عنايته؟ ومن اعتقد ذلك أو ظنّه مع ظهور ما ذُكِر له من أحواله فهو جدير بعذاب الله ونكاله لما يؤدي ذلك إلى رضاه بفعله، وإن ذلك الفعل منه صواب أنزله المنزلة التي اعتقدها فيه. وهذا ممّا يؤدي إلى تكذيب الشرع وهدم أساسه والعياذ بالله ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم أن كيدي متين﴾[5].

ومن أوصافه التكالب على الدنيا وجمعها والتكثير منها وحبّ أهلها، وهذه صفة المتلوثين بنجاستها المغترين بلذاتها وزخارفها. وقد قال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾[6]. وفي الحديث (حبّ الدنيا رأس كل خطيئة). وورد أنه يُؤْتَى بأقوام يوم القيامة كانوا كثيري[7] الصلاة والصوم والطاعة فيُؤْمَر بهم إلى النار، فأَعلَمَ الله تعالى

120 /

(1) يعني قاسم بن أم هانيء.
(2) في الأصل (الحضوض).
(3) سورة (النساء)، الآية (65).
(4) كذا، (وكلتاهما) أصح.
(5) سورة (الأعراف)، الآية (183).
(6) سورة (الشورى)، الآية (20).
(7) في الأصل (كثيرين).

/ 121 أن سبب دخولهم كانوا إذا ظهر لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه ولم/ يبالوا من أي وجه كان. وورد أن من لم يبال من أين مطعمه ومشربه لم يبال الله من أي أبواب جهنّم يدخله. أترى ـ رحمك الله ـ من كان من هذه الطائفة التي ورد الوعيد من القوي الشديد لها، يتحلى بحلي أهل الكرامة والزلفى، ويُعَدُّ من أصفياء الله أهل الصدق والوفاء؟ ما هذا إلا تلاعب بالدين، وتكذيب لما جاء عن سيد المرسلين.

ولّله درّ الأخضري في منظومته حيث قال:

واأسفاً على الطريق السابلهْ
أفسدها طائفةُ الدجاجلهْ

قد أحدثوا طريقةً بدعيّهْ
ورفضوا الطريقةَ الشرعيهْ

يا عجباً لرافض الشريعة
كيف ادّعى درجةً رفيعة

فكيف يرقى سلّمَ الحقيقه
مخالفٌ لسيد الخليقه

ومن أوصاف هذا الرجل، ومن كان على شاكلته من أهل الأهواء النفسانية، التملق إلى الظلمة وحب الاجتماع بهم وأخذ أموالهم، وربّما يطلبون ذلك بأنفسهم أو / 122 يجعلون نُقَباء لهم يسارّونهم بما في ضمائرهم/ فيترجمون على ألسنهم إلى اللصوص ورؤساء الظلمة[1] بأن الشيخ أراد منهم كذا أو له عندهم عِدَةٌ[2]، ويسمونها هم (وعْدَة)، ويتوعدونهم إنْ لم يعطوهم ما طلبوا بالقتل فما دونه ويجعلون ما أصابهم حين دخول المعركة لمقاتلتهم مع بعضهم بعضاً، من مناقبهم وكراماتهم، كما تقدّم. وقد علموا أنّ مَنْ دخلَ الحرب الغالبُ عدم سلامته نفساً أو مالاً إلّا أن العقول التي أعماها الضلال، لا تستنير بنور ذي الجلال.

ولّله درّ من قال:

(1) يقصد باللصوص المتسلطين عموماً، وبالظلمة الحكام غير العادلين.
(2) عدة بكسر أوله وفتح ثانيه.

وَمَنْ ظنَّ مِمَّنْ يلاقي الحروبَ   بأنْ لا يُصابَ فقد ظنَّ عجْزا[1]

وليتهم فعلوا ذلك وتحدوا بمثل ذلك لمن لا يعرف حرباً ولا يقارب أماكن الشرور حتى تظهر فضيحتهم للخاص والجمهور، ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[2].

ولقد حُكِي عن هذا الرجل المدَّعِي قاسم بن أم هانىء أنه نصب خِباه عند بعض رؤساء الظلمة المتلصّصة على عادته القبيحة وعادة أمثاله من أخذ العوائد والزكوات على اللصوص، فأعطاه اللّص ناقة في جملة ما أعطى، فاتفق أنْ كانتْ تلك الناقة لأرملة ذات أيتام استلبها لها اللصُّ في جملة من[3] أخذه، وهي عاكفة على باب الظالم مستشفعة في ردها عليها، فلم تشعر أنْ قيل لها إنها خرجت (من)[4] يده لقاسم/ بن أم هانىء، ففرحت غاية الفرح واستبشرت غاية البشرى، ظناً منها أن / 123 السراب يَرْوِي وأن العفار لا يكوي، فأقبلتْ مسرعة وقالت له: يا سويدي[5] الحمد للّه الذي ردّ حاجتي ليدك أو كلاماً هذا معناه، إن الناقة التي عندك أعطاكها فلان هي لي وأنا ذات أيتام وقلة حال. فرمقها بعين البغضاء وكاد أن يهمّ بها، على ما أُخْبِرْتُ عنه، وانتهرها أشد انتهار ولم يخش عقوبة الملك القهار، وقال لها: إنني لم آخذها منك ولا أنا غصبتكها وإنَّ الشيخ فلان أعطانيها. اذهبي أنت إليه. فرجعت القهقرى[6]، وخاب ظنها إلى ورا، وعيتْ بالاستشفاع إليه بالله ورسوله والأولياء، فأبى وأمر زبانيته بطردها وردها كئيبة خاسئة، وهي تنادي بالويل وتبكي على ناقتها، ويقال إنه رضي بردها على الظالم وأعطاه بدلها ولم تسمح نفسه بردها على ربّتها.

فانظر ـ رحمك الله ـ هذا الخبيث وفعله، وهل يصدر هذا من موفق بل ومن مسلم؟ أتراه في درجة الظلمة أو يفوقهم؟ هذا فعله في حق أوجبه الله عليه أنْ لو لم

(1) هذا البيت من جملة أبيات قالتها الخنساء تشكو الدهر، انظر ديوانها (من إفادة الشيخ التليلي).
(2) سورة (الحج)، الآية (46).
(3) كذا، وهي (ما).
(4) ما بين القوسين زيادة منا.
(5) تصغير (سيدي) للتعظيم.
(6) في الأصل (القهقرا).

يكن بيده إلّا أنه قادر على إيصاله لأربابه فكيف بما كان تحت يده واستقرت يده عليه فلوى عنه وأعرض ولم يراقب جانب الشرع ولا رقّ/ لمؤمنة قلبه ولا رزقه الله شفقة على المرأة مع ضعفها وقلة ذات يدها وهمل دمعتها على خدها بين يديه وتذللها له ووقوفها مسكينة بين يديه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. أيصح في قلب مسلم وعقله أن هذا ممّن استنشق رائحة القُرْبِ[1] بل ولا رائحة الإسلام فلا تنزع الرحمة إلا من قلبٍ شقي أو كافر. وهذه الواقعة شهيرة في معناها، وقد أخبرني بها غير واحد. هذا إن لم تراع أصل مأخذه من الظلمة وتناول كسبهم والاغتباط به وتموّله والانكباب على طلبه والارتحال إلى جلبه الجُمَعَ[2] والشهور، ومع مراعاته يزداد النفور منه وطلب مجانبته وبغضه للّه، ويجعل المرء عداوته للّه وبغضه وبغض أمثاله فيه ديناً قيّماً وقُرْبةً يتقرب بها إلى مولاه.

ولقد عدّ العلماء من شروط الدخول في دائرة التصوف مجانبته لطعام الظلمة فكيف بما يَجْبُون له من التموّلات فكيف باغتصاب المال من مستحقّه؟ ولعمري لقد جعلوا رأس مالهم في الأكل بَسِيسَةً[3]، ودسوا بها على العامّة والجهلة دسيسة أعظم دسيسة، فما هي إلا كحبة نُصِبَتْ لفرخ يصطاد، ولم يراعوا أن ربك لبالمرصاد، فتراهم إذ قُدِّمَتْ لهم أطعمةُ/ الظَّلَمة ينفرون منها بوجوههم ويثابرون عليها بأفئدتهم وقلوبهم، ولولا ما دسّوا لرأيتهم عليها عاكفين، ولما بقي في إنائها لاعقين، وإذا مدّ الظلمة لهم شيئاً من المتمولات، خروفاً أو قُفَّةَ جبنٍ أو نَجْيٍ[4] سمن أو لبن فما فوقه إلى الفرس والبغل والبعير والدرهم والدينار فأعلى[5]، لتساقطوا عليه تساقط الفراش ولا يبالون مِمّا هو ومن أين هو، فلا حول ولا قوة إلّا بالله.

ولقد حُكِي لي عن هذا المبتدع أو غيره أنه قصد حلّة بعض كبراء اللصوص للمبيت ففرح به وأحسن لقياه وأتى إليه بآنية الطعام وذبح له كبشاً سميناً أو نحو ذلك،

---

(1) أي القرب من الله عند الصوفية.

(2) جمع جمعة، ويقصد بها الأسابيع.

(3) نوع من الدقيق يؤكل بالعسل والسمن.

(4) النّجْي (بفتح أوله وتسكين ثانيه) شكواة الحليب.

(5) في الأصل (فأعلا).

فلما أحضره بين يديه تلكأ[1] عنه وأبى أكله وتناول من بسيسته التي جعلها حبالاً للاصطياد، فحاوله اللصُّ على الأكل وأقسم عليه، فقال له: يا ولدي إنّا لا نأكل طعامكم! فتأسف اللص على عدم أكله ورأى أنه ربّما يناله مكر من تجنّب هذا الولي، على زعمه، لطعامه. فلما أن أصبح الصباح أرسل إليه أن يعطيه الفرس الفلانية أو بغلة أو نحوها ممّا كثر ثمنُه، فتعجّب اللص من ذلك، وقيل لي إما أن أتى هو إليه أو قال لأحد زبانيته: يا عجباً من سيدي فلان لقمة[2] وطَرَفُ لحم يأبى يأكلهما/ وفرسٌ أو بغل أو بعير حلالٌ له يطلبه! فانظر إلى هذه الفضيحة التي فضحه الله بها في الدنيا وأنطق بها لسان الظالم وأعمى بصيرة هذا الخبيث عن مراعاتها والاهتداء إلى الاتعاظ بقوارعها، إلّا أن من يضلل الله فما له من هاد. / 126

وذكر علماء الصوفية أن تجنّب طعام الظلمة لوجوه:

ـ **أحدهـا** ما في إرضائهم من الموالاة[3] التي لا تحلّ مع ما هم عليه من الظلم.

ـ **الثانـي** ما فيه من إغرائهم على المنتسبين إمّا سوء الظن بالجهل لاعتقادهم حرمة ما بأيديهم وأن ما يأكله لا خلاق له فيستهزئون بهذا الشخص بل بكل جنسه لأجل ذلك، وإمّا بجعله حجّة على غيره ممّن لا يقدر أن يتوسع توسعه لورع أو نحوه فيؤدي لذلك.

ـ **الثالـث** ما فيه من إعانتهم على ما هم فيه إذ يرون أنفسهم من أهل الخير ويقولون نحن كذا ونحن كذا ولو رأى فلان فينا ما يكره ما أكل طعامنا، إلى غير ذلك لا سيما إن وجد لهم وجهاً في إباحة ذلك وتجرأ[4] على الله بنسبتهم إلى أهل الله من أجل ذلك، كما يفعله بعض من وَهَنَ في قلبه، والعياذ بالله.

ـ **الرابـع** ما في ذلك من ميل النفوس لهم، فقد قال عليه السلام: «اللهم لا تجعل لمنافق عليّ يداً/ فتحبّه نفسي». / 127

---

(1) في الأصل (تلكى).

(2) من كلمة (لقمة... إلى يطلبه) تعبير أقرب إلى الدارجة على لسان الرجل البادي. و «طرف لحم» يعني جزءاً أو قطعة من اللحم.

(3) في الأصل (الموالات).

(4) في الأصل (تجرى).

وحكى أبو نُعَيم[1] في حليته أنّ ابن المبارك[2] دخل على الخليفة فوعظه وذكّره فأعطاه مالاً فاشترى به عبيداً وأعتقهم. فقال أبو محمد ابن واسع[3] في ذلك، فقال ابن المبارك ذكّرتهم بالله ووعظتُهم وأخذتُ منهم من مال الله وصرفتُه في وجهه، فقال له محمد بن واسع الله قلبك الآن[4] لهم كما كان قبل ذلك؟ قال لا، ثم استغفَرَ. فانظر ـ رحمك الله ـ كيف رجع ابنُ المبارك إلى قول محمد بن واسع مع أن ابنَ المبارك قصدُه صحيح ولم يُرِد به تموّلاً ولا أخذه لنفسه اقتناء مع أنه من أمير، وفي قبول جوائزهم خلاف، وإنما صرفه في وجهه، ومع هذا رأى أن ذلك ليس بصواب حتى استغفر منه، فكيف بمن يطلبه لنفسه من الظلمة الذين لا شبهة في أموالهم ويتكالبون عليها ويوادونهم لأجل ذلك، وهذا يصح رادعاً لهم لـو موّهوا على العامة والجهلة بأن ما يأخذونه يصرفونه على الطلبة كما يتذرعون[5] بذلك لمن طَبَع اللهُ على قلبه. أفٍّ ثم أفٍّ لمن لا يرضى لنفسه علو الهمّة والترفّع إلى بساط الشرع الأعلى ويقذف نفسه في مهواة[6] العطب للأعراض الدنيوية! ﴿أولئك/ الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾[7]. 128 /

المتاجرة بتعليم أبناء المسلمين:

وليس العجبُ منهم بأكثر من العجب ممّن تمسّك بطرف من العلم، يجيئون بهم إلى مَحَالِّهِمْ[8] ويجعلون لهم الأجر على الإقراء عندهم ويراؤون به الناس ﴿ويحسبون أنهم على شيء إلا أنهم هم الكاذبون﴾[9]، ثم ترى أولئك العلماء عندهم

(1) أبو نعيم (أحمد بن عبد الله الأصفهاني، توفي 430 هـ) من كتبه (حلية الأولياء) في الحديث.
(2) ابن المبارك (عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، توفي 181 هـ) صاحب تصانيف وكان مولعاً بالجهاد وجمع الحديث ـ من إفادة الشيخ التليلي ـ.
(3) محمد بـن واسع (ابن جابر الأزدي من أهل البصرة، توفي 123 هـ) ـ من إفادة الشيخ التليلي ـ.
(4) من اللين.
(5) في الأصل (يتدرعون).
(6) في الأصل (مهوات).
(7) سورة البقرة، الآية (16).
(8) الظاهر أن المؤلف يقصد التظاهر بالعلم والخير من قبل الظلمة (أو اللصوص كما يسميهم أحياناً) حين يجلبون إليهم بعض المؤدبين أو العلماء أو الأولياء للإقراء عندهم تظاهراً، الخ. و (محالهم) جمع محلة أو مجموعة الخيام حيث يحكم الظالم. وكلمة (بهم) تشير إلى مدّعي الولاية ونحوهم من العلماء الضعاف.
(9) سورة المجادلة، الآية 18.

يذبون عنهم ويحللون لهم بأفعالهم التي يأخذون منهم أكثر من أقوالهم، ويقولون إنكم تخرجون ما تأخذون لأربابه الطلبة والعلماء، أترى هؤلاء في حزب الله أو من دائرة معرفة الله؟ كلاّ ﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يكسبون﴾[1] فلو نظروا بنور اليقين واستضاءوا بسراج الإيمان لعلموا أن الطلبة وما يأخذون هم على الإقراء طعم[2] خبيث وكسب حرام، أيُرضَى لموفق أن يستأجر نفسه بالقذرات والجيف؟ بل أم كيف يدخل حضرة الملك ونفسه منتنة برائحة النجاسات؟ فالطالب لا يفتح له الباب ما دام لصّاً وتلصّصه بأكله للحرام بل لا يزداد به إلاّ انطماساً لبصيرته، والعالم أو المتشبه به لا يرقى لدرجات الكمال وقيود الخطايا متعلقة به وهي قيود وأي قيود، قيود السّحْتِ والغصوب والحرام يملا بها بطنه ويستر بها ظهره ويتموّل بها/ ما يقتني ويدخر، ويطمع مع ذلك أَنْ تفتح بصيرته، وأن تُصفى من الكدرات سريرته، وكل هذا من فعل الشيطان إنه لكم عدوّ مبين، فيريه أنه على بصيرة في فعله وتنسك في حاله، وأن إفشاء العلم وتعليم أولاد المسلمين وجهلة المؤمنين فيه فضل كبير وخير كثير، وهذا كلام حق ومعنى صدق إلا أنه بشرطه المعتبر. /129

ومع هذه الحالة وعند هؤلاء كمن يأتي إلى مرحاض ليصلي فيه ويذكر الله ويقول: أنا في فعلي على صواب، أليس بقاع الأرض الطاهرة موجودة والمياه المطهرة ليست مفقودة؟ فإذا صحّت[3] نيته وخلصت طويته بجمع أبناء المسلمين لنفسه وينتدبون لذلك من كان أهلاً، ومن العلم الذي يجب عليهم تعليمه وللمعلم قبوله مجانبةُ أولئك الأقوام وشر الفئام[4] وعدم تناول ما بأيديهم وهجرانهم في الله لغصوبهم ومعاصيهم، فإن وجدوا من أنفسهم صدقاً وقوةً وباعثَ حق على أداء ما استوصوا[5] عليه من العلم ووجدوا وعاء له طاهراً أو قابلاً للتطهير فرغوه فيه، وإن تعذر الجانبان أو أحدهما فما يكلف الله نفساً إلا وسعها. فيجب إذ ذاك حرز العلم وحفظه والكف

(1) سورة الأعراف، الآية 9.

(2) كذا، ولعل صوابها (طعام).

(3) عبارة (فإذا صحت نيته) مكررة في الأصل.

(4) (الفئام) العامة والدهماء.

(5) كلمة (استوصوا) صححت عن كلمة (استؤمنوا).

عما يأباه الشرع هو العلم. وهذا شأن المتقين وعباد الله المخلصين، وما يذّكر إلا أولـو/ الألباب. 130 /

ولنكف العنان لئلا نخرج عمّا نحن بصدده فنقول:

- **الخامس**[1] مـن الوجوه ما في ذلك من تناول الشبهة لغير ضرورة، هذا إذا كان فيه شبهة كمسألة ابن المبارك مع الأمير فيما (سبق)[2]، وأمّا فعل هؤلاء مع اللصوص فهو الحرام المحض الذي لا يرخص فيه لهم، ولله درّ أبي العباس المرسي - رضي الله عنه - (إذ قال)[3]: من كان من فقراء هذا الزمان مؤثراً للسماع، آكلاً لأموال الظلمة ففيه نَزْغَةٌ يهودية، قال تعالى: ﴿سمّاعون للكذب أكّالون للسّحت﴾.

- **السادس** مـا يلحقه بسبب ذلك من الذلة وتغير الحال، كما اتفق لكثير من الناس واتخذه بعضهم سياسة، فإذا رأوا الفقير مستظهراً عليهم بالقوة وخافوا منهم[4] دعوة أو غيرها أحسنوا إليه حتّى يدخل في جملتهم، ولا يمكنه التقرر عليهم.

وقد كان بعض مشايخ الغرب[5] يقول: الفقير لا يمشي بليل ولا يهرب بالنهار إن رأى ما يخاف ولا يأكل طعام الظلمة. قال الزروق[6] لأن هذه كلها تورث الذل اهـ. فأنت ترى كيف حال هؤلاء المبتدعة وما هم عليه من عظيم البدعة وشناعة الانتحال فيجب الفرار منهم وزجرهم وبغضهم لله إلى أن يتوبوا من بدعتهم، فالحب في الله والبغض في الله من الإيمان.

131 / ومن أوصاف هذا الرجل ومَن[7]/ كان على شاكلته، الدعوى[8] التي هي بلية على صاحبها، فَضَلَّ في نفسه وأضلَّ، ونصب نفسه للشيخوخة وتصدّى لإعطاء العهد

(1) أي الخامس من الأوجه التي ذكرها علماء الصوفية عن تجنب طعام الظلمة.
(2) ما بين القوسين زيادة منا لكي يستقيم المعنى.
(3) ما بين القوسين زيادة منا. وهو يقصد أبا العباس أحمد بن عمر المرسي الأندلسي دفين الإسكندرية. وهو من كبار المتصوفين، وتوفي سنة 686، انظر الأعلام 179/1.
(4) كذا، ولعل صوابها (منه).
(5) لعله يعني (بمشائخ الغرب) علماء المغرب الأقصى.
(6) أحمد زروق صاحب الطريقة المعروفة، وقد سبق الحديث عنه في أول الكتاب أيضاً.
(7) يعني قاسم بن أم هانىء.
(8) ادعاء الرتبة العليا في التصوف والولاية.

هو ومن كان في زيّه وحاله ممّن سنذكر، فأكثروا التلامذة وصارت أجناداً، ويكابرون بها عناداً، ويزعمون أنّهم لهم التصرف والإعطاء والمنع، وأن الكائنات تجري على أيديهم ومنوطة بإرادتهم، حتى لقد حُكِي لي عن هذا الرجل المذكور أنه نزل بقسنطينة بداره أو غيرها فاستشفع في شيء أو طلبه فلم يشفع أو لم يعط، فقال لمن طلبه أو استشفع عنده: باريك شوكتي! باريك شوكتي! قال له ذلك الرجل: الأشياء من الله، قال له مجيباً: إيه إيه! هكذا كان يقول رجب بن حسين.

رجب بن حسين:

وكان رجب المذكور ـ رحمه الله ـ مبْغضاً له ومنكراً عليه، وكان يقول لهم إنه ربط ثوره بثوري على عادة كلماتهم الفاسدة، فجرى[1] من أمر الله أن مات رجب المذكور على فراش العافية مريضاً، سامحه الله وغفر له، فوجد هذا البدعي الطريق إلى إظهار بدعته وجعله سلّماً يرتقي به إلى جريان الكائنات على يده حتى أنكر على الرجل المذكور قوله الأشياء من الله، وانتقصه بها ورأى أنها ليست مغنية عمن قالها/ 132 / قَبْله، وهو رجب المذكور، والحالة أنه لم يحل برجبٍ إلّا ما حلّ به هو ونزل من الموت المحتوم، فلم يبق بعد رجب إلّا قليل حتّى نزل حفرته، وقضى نحبه[2]. فانظر إلى هذه الكلمة الشنيعة الصادرة منه التي تقتضي كفرَه وخروجَه عن دائرة الإسلام وبمقتضاها يُسْتتاب فإن تاب وإلا قُتِل. نسأل الله العافية ممّا ابتلاه، وأن يحمينا ممّا صادفه ودهاه. وهذا[3] زاد به الحال على ادعاء التصرف إلى إنكار أن يكون التأثير للّه تعالى والأشياء منه، فقد ارتدّ وكفر، وما شعر أن ذمّة نفسه خفر. فنعوذ بالله من الخذلان، ومتابعة هوى النفس والشيطان.

أبيات أخرى من قدسية الأخضري:

وللّه درّ أبي زيد عبد الرحمٰن الأخضري حيث يقول:

فأين حالُ هؤلاء القومِ
من سوء حالِ فقراء اليومِ

(1) في الأصل (فجرا).
(2) لم يذكر المؤلف تاريخاً لوفاة قاسم بن أم هانيء.
(3) يقصد قاسم بن أم هانيء.

قـد ادعـوا مـراتبـاً جليـلهْ
والشـرع قـد تجنّبـوا سبيـله

قـد نبـذوا شـريعـةَ الـرسـول
فالقوم قـد حادوا عن السبيـل

لم يـدخلوا دائـرةَ الطريقـهْ/ / 133
فضـلاً على طـريقـة الحقيقـهْ

لـم يقتـدوا بسـيّـد الأنـام
فخـرجـوا عن ملّة الإسـلام

لم يـدخلوا دوائـرَ الشـريعـة
وأوّلـوا بِـبِـدَعٍ شـنـيـعـة

لم يعملوا بمقتضى الكتـاب
وسنّـةِ الهـادي إلى الصـواب

قـد مـلكتْ قـلوبَهـم أوهـامُ
والـقـوم[1] إبليسُ لـهم إمـامْ

كَفَـاكَ في جميعهم خيـانـة
أَنْ قتلوا العبادَ بـالـديـانـة[2]

وانتهكـوا محـارمَ الشـريعـة
وسلكـوا مسـالـكَ الخـديعـة

مَنْ كان في نَيْل الكمال راجياً
وعن شـريعـة الـرسـول نـائيـاً

فـإنـه مُـلَبِّس مـفـتـون
وعـقـله مـخْتَبـلٌ مـجـنـون

هـذا محـالٌ لا يصـحّ أبـداً
لأنّ سيـدَ الورى بـابُ الهدى

(1) كانت في المتن (والقلب) وصححت في الهامش (والقوم).
(2) في الأصل (إن ختلوا الدنيا بالديانة) وهو خطأ لفظاً ومعنى ووزناً، وقد صححنا هذه الشطرة من نسخة نسخها لي الشيخ محمد الطاهر التليلي عن المنظومة القدسية.

ولو استقصينا بدعةَ هذا الرجل/ لاستحقت أسفاراً، والغرض توضيح الحال 134 / والكشف بما أمكن للعامة والأنذال[1]، فماذا بعد الحق إلاّ الضلال.

49 ـ [التعريف بسيدي أحمد بوعكاز، رحمه الله آمين]

أحمد بوعكاز وجماعته (العلمة):

ومنهم أبو العبّاس أحمد الملقب بوعكاز، هو رجل مسنّ وجماعته[2] العلْمَة، وهم فرقتان غرابة وهم أهله، وشراقة، وكلهم ينسبون إلى الشيخ الصالح معنصر، نفع الله به وبأمثاله. فقام هذا الرجل في قبيلته بعد انقراض أولاد عمّه، إذ الوجاهة كانت له وفي عقبه، فاحتاجت جماعته إلى مَنْ يقوم عليهم لتجاسر اللصوص على من كان فيما لهم، فهرعوا إلى أحمد المذكور وصنعوا به من التعظيم والتوقير وإشادة الآثار الحميدة ما يقرعون به عنهم الأيدي العادية على حسب ما فعل جماعة غمريان[3] رعايا ابن أم هانىء المذكور، كما ذكر.

جماعة غمريان يشكون للمؤلف:

ولقد جاءني يوماً جماعة من غمريان شاكين بابن أم هانىء بعضَ فعلِه معهم من تحجير أموالهم إلاّ برفع يده وتسليط اللصوص عليهم[4]، كما قيدناه قبل من فعله. فقلت لهم: يا جماعة غمريان هو سيئة من سيئاتكم فإنكم أنتم كنتم سبب شهرته وظهوره وكذبتم وتكاذبتم في آثاره فاعترفوا وقالوا لي: يا سيدي نحن كنّا السبب كما ذكرتَ لكنّا لم نجعله إلا تحصّناً لنا من الظلمة وقصدنا التستّر به فاتخذناه/ نتدرع به 135 / من الأيدي العادية، فأكثرنا في القول فيه وإشهار الآثار المحمودة ونسبناها إليه، وما شعرنا أن أمره يصير إلى هذا ولا أن يدنا تضربنا أو كلاماً هذا معناه وإن لم أقم بلفظه، فقلت لهم: من أعان ظالماً سلطه الله عليه.

---

(1) في الأصل (الأندال).

(2) في الأصل كانت العبارة هكذا (وجماعته منقسمون فرقتين غرابة وشراقة وكلهم)، فصححت في الهامش هكذا (وجماعته العلمة الخ). وتسمى عليهم مدينة (العلمة) اليوم وهم أصل سكانها.

(3) لم يسبق للمؤلف أن تحدث عن (غمريان) على أنهم قوم أو رعايا ابن أم هانىء. وقد أخبرني بعض العارفين بالمنطقة أن غمريان يقطنون دائرة شلغوم العيد اليوم.

(4) في الأصل (عنهم).

ولنرجع إلى خبر أبي عكّاز: فاتخذ طريقة الشيخوخة وجعل لنفسه أعواناً وتلامذة وأطلقهم في البلاد شرقاً وغرباً يَجْبُون له الجبايات ويأتونه بالزكوات وينسبون له غاية الكرامات، ويجعلون الناس يأتون إليه ركباناً ورجالاً وصغاراً ونساءً. ويُذْكر عنه أنه ممن يعطي ويمنع ويقبض ويبسط ويربي التلامذة ويعطي العهد. وأمّا وقوع الحضرة بين يديه فهي عماده وعماد أمثاله، بل لا يكون الولي في عرف الناس وليّاً إلاّ بالحضرة، فَجَبَت الناس إليه الجبايا من المغرب والمشرق، أعني مغرب بلد قسنطينة ومشرقها، وكثرت تلامذته حتى إنهم لا يُقْسِمون بعد مدة ابنِ أم هانىء إلاّ به ولا يلهجون إلا بذكره.

ركب الشيخ بوعكاز وحضرته:

وأمّا أحوال اللصوص فلهم فيه اعتقاد كبير وشأن عظيم، يأتون إليه بالهدايا إبلاً وخَيْلاً وشاةً وبقراً وغيرها، بل / يُحْكَى عنه أنه يقول لزائريه: من جاء بلا شيء يمشي بلا شيء. كلُّ ذلك تهييجاً لهم على الإعطاء والإهداء له وحرصاً منه على جمع الدنيا، حتى جمع منها شيئاً كثيراً، ماشية وغيرها، وصار أهلُ بلد قسنطينة يتجمعون له نساءً ورجالاً مع فقير من فقرائه ويقصدونه ركباً، ويسمّونه الركب. وكلٌّ مُهدٍي على قدره، من الرغيف إلى الكساء إلى الدراهم إلى الأنعام، حتى بلغني أنّ مَنْ لم يجد من ضعفاء المسلمين ما يهدي له يتسول وما يتسول به يهديه له. ولقد حُكِي لي أن امرأة أو رجلاً بادي الإقلال اجتاز على رؤوس الخرشف أو عسالجه فأهداها إليه، وقال له يا سيدي لم أجد ما آتيك به إلاّ هذا. وأمّا حال متلصصة الأعراب وغيرها فكل على قدره من الأعلى إلى الأدنى، حتّى إن منهم من يأتيه بنحو الحثية[1] من التمر والقفة. فَانْظُر إلى فعل هذا الرجل وبُعْدِهِ من سيرة أهل الطريقة ومنابذته لما أحكمته السنّة.

136 /

رأي لمحيي الدين (ابن العربي؟):

ولله درّ الشيخ محيي الدين[2] حيث قال: الزمان يا وليّي شديد، شيطانه مَريد،

---

(1) كذا (الحثية) ولعلها (الحشية).

(2) لعله يقصد محيي الدين بن العربي صاحب (الفتوحات المكية) في التصوف، وهو في مكان آخر يذكره (ابن العربي) فقط وهو محمد بن علي بن محمد ابن العربي الحاتمي الأندلسي. ويعرف بمحيي الدين ابن عربي. توفي سنة 638. الأعلام 170/7.

وسلطانه عنيد، علماء سوء يطلبون/ ما يأكلون، وأمراء جور يحكمون بما لا يعلمون، / 137
وصوفية سوء بأعراض الدنيا موسخون، عظمت الدنيا في قلوبهم فأسرعوا إليها طلباً، أو قال فلا يرون فوقها مطلباً، وصغر الحق في نفوسهم فأعجلوا عنه هرباً، لا علم على الحرام يردهم، ولا ورع عن الشبهات يصدّهم، ولا زهد عن الرغبة في الدنيا يصرفهم، حافظوا على السجادات والمرقعات والعكاكز، وأظهروا السبح المزينة كالعجائز، اتخذوا ظاهر الدين شَركاً للحطام، ولازموا الخلوة والرياضات لما يأتي إليها من حلال وحرام، وسّعوا آذانهم وسمنوا أبدانهم.

قال: وما أراهم إلّا كما حدثني غير واحد، وذكر إسناده إلى أن بلّغه إلى النبي - صلى الله عليه وسلّم تسليماً - لَيُجَاءَنَّ يوم القيامة بأقوام معهم من الحسنات أمثال جبال تهامة، حتى إذا جِيء بهم جَعل الله أعمالهم هباء منثوراً، ثم قذف بهم في النار. قيل يا رسول الله صفْ لنا هؤلاء حتّى نعرفهم فقال: إنهم كانوا يصومون ويصلون، وفي حديث آخر: يأخذون هنية من الليل، ولكنهم كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام، وفي رواية شيء من الدنيا، وثبوا عليه. فأدحض الله أعمالهم. قال مالك بن دينار / هذا والله النفاق، فأخذ المعلى بن يحيى زياد بلحيته، وقال والله / 138 صدقت يا أبا الخير. انتهى الغرض من كلامه[1]. فتأمّل - رحمك الله - في أوصاف هذه الطائفة وما احتوت عليه من السيرة فتجدها ممّن حقّ عليها الوعيد، فكيف يظن بها أنها من أهل التوفيق والتسديد؟.

أخبار بوعكاز وصلاته بأرباب المخزن:

ولقد حَكَى لي بعضُ أصحابنا: إنه[2] لما قدم على قسنطينة صادفته الجمعة فلم يأت لها ومكث في مكانه هو وجماعة أصحابه لم يأتوا إليها ولا اغتنموا ثوابها. فَبَعْدَ فراغه من صلاة الجمعة قصده للدّار التي نزل بها فسأله عن تخلفه عن الجمعة فذكر له عذراً اعتذر به فقال له: وأصحابك لم يكن لهم عذر، فقال: جلسوا لأجلي أو نحو هذا وصلينا ظهراً، فنقم عليه صاحبنا مع أنه من العامة، إذ لم يأمرهم بحضور جماعة الخير ودعوة المسلمين ولم يرغِّبْهم في شهود الجمعة. وذَكَر أنه رأى في يده سبحة

---

(1) الإشارة إلى كلام الشيخ محيي الدين.
(2) الإشارة إلى أحمد بوعكاز موضع الحديث.

أعجبته فطلبه فيها فقال له أعِدُكَ بها إذا رأيت الليلة ابني الذي مات في النوم فقال: امضي[1] إنك تراه، فمن الغد أرسل إليه بعض أعوانه[2]: أن أرسل السبحة التي وعدتني، قال لي الصاحب: فمنعته منها، وقلت له: إنني وعدتك/ على رؤيا ابني في النوم فلم أره فلا أعطيكها، فوقع به مَنْ حضر وقالوا له: لا يليق بك، الشيخ طلبك، فامتنع وردَّه خائباً، جازاه الله خيراً، حيث حرمه ما يعاقب عليه بين يدي الله.

وذَكَر لي عنه غيرُ واحدٍ أنه يطلب الناس في الملابس والخيل وغيرها. وذكر لي أنه دخل عليه رجل وعليه برنس مَلْفٍ إمّا قيل لي سلبه منه أو نحو هذا الشك مني. وأما دعاويه في إعطاء المناصب لأرباب الدول وانتزاعهم منها فهي أشهر فيه وفيمن كان على شاكلته من أن يقام عليها دليل، بل هي عنوان طريقتهم وباكور ثمرتهم، حتى إن أهل خطط المخزن كانوا يعطونه على أن يوليَهم المناصبَ كقائد جيشها وغيره من أمراء البلدة، فكان يأخذ الفرس على ذلك واللباس والدرهم وغير ذلك، وهذا فعل من لعب به الشيطانُ فأتلفه في أودية الضلال. فقد أجلب على هذه الطائفة بخيله ورَجْله. نسأل الله العافية والسلامة ممّا ابتلاهم.

أبيات لابن البنا السرقسطي:

ورحم الله ابن البنّا السرقسطي[3] حيث يقول في أرجوزته:

وقولنا الشيوخُ والإخوان
همُ الذين سلَفوا وبانوا/

ماتوا ولمّا يتركوا موارثْ
إذ هؤلاء القوم كالبواغث[4]

فكلّما اليومَ عليه الناسُ
من مدعين الفقر فيه باس

(1) كذا بإثبات حرف العلة.
(2) في الأصل (عوانه).
(3) هو أحمد بن محمد بن يوسف التجيمي، توفي بفاس، وله (المباحث الأصلية) وهو ارجوزة في التصوف، شرحها أحمد بن محمد بن عجيبة. ـ من إفادة الشيخ التليلي ـ.
(4) البواغث (جمع باغثة) الطيور الصغيرة.

إذْ نقضوا الأصولَ والأركانا
وصيّروه في الورى ضَهْيَانَا[1]

وهدموا بنيانه المشيّدا
وصيّروه مجهلاً ومخمدا

ونشروا الفروعَ والأصولا[2]
وجعلوا معلومَها مجهولا

واحتسبوا فيها بغير حسبة
وصيّروها ضحكةً ولعبة

وجعلوها لِلْغَنِيِّ مغرماً
وللفقير نهبةً ومغنماً

وافتضحوا واصطلحوا لديها
فصار ما كان لها عليها

لو علموا ما جهلوا ما صاروا
حيث انتهوا ترشقهم أبصار

لو لم يكن بعضٌ لبعض عاكس
ما لقبوا بعصبة الكساكس/ / 141

حق لمن كان عليهم منكِراً
إذ إنما يبصر منهم منكَراً

هذا قاله ـ رحمه الله ـ في طوائف أهل زمنه، فكيف بزمننا الذي أظهروا فيه البدع الشنيعة، وأشهروا من قبائح طريقتهم ما شابهوا الشيعة ومغيّري الشريعة؟ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، بدأ هذا الدين غريباً وسيعود غريباً. فلعمري لقد تظاهروا بطريقتهم وتعصّبوا بسيرتهم وطمسوا بترهاتهم ودعاويهم الكاذبة بصائرَ العامّة، كما اصطادوا بجوائزهم قلوب الخاصّة، فكلا الطائفتين لهم ﴿ وإن ربك لبالمرصاد، ومن يضلل الله فما له من هاد﴾. فيالله وللمسلمين من عصابة جهلة مرقوا من الدين، وعبروا[3]

(1) ضهيانا بمعنى أجدب لا نبات فيه. ـ من إفادة الشيخ التليلي ـ.
(2) في الأصل قدمت الفروع على الأصول (ونشروا الأصولا والفروع).
(3) كذا (عبروا) ولعل كلمة (غيروا) أفضل.

طريق سنّة سيد المرسلين، وهجموا على مناصب الأولياء الصالحين، فادعوها لأنفسهم حالاً، ودعوا إليها عباد الله نساء ورجالاً، يسوّل لهم الشيطان أقاويل مزخرفة وأخباراً[1] محرفة فيصيدون بها العامّة، وربّما سَرَى سِحرُهم إلى الخاصّة، ولم يراقبوا[2] مَوْلاَهُمْ ولا علموا ما أمامهم ووراءهم، ﴿ أم يحسبون إنا لا نسمع سرهم ونجواهم[3] بلى ورسلنا/ لديهم يكتبون ﴾. وقد أفادهم هذا الأمرَ أمور. / 142

اتخاذ العوائد والأتباع:

أحدها: اتساع الدنيا من طريق الأنساب[4] والعوائد وذلك محل كل تلف وفتنة إلّا القليل من الناس، وهذا لو كان الأسباب على وجهها والعوائد تأتي من بابها وأنت ترى ما ارتكبوا من محرّمات، ومحظورات ونصبوا من فُخوخ وحُبالات، فهي في نفسها مُبْعِدة عن باب المولى، أحرى إذا اجتمعت مع ما نشأ عليها من الدنيا. ولقد كان السلف إذا أقبلت الدنيا قالوا: ذَنْباً عجلتْ عقوبته، وإذا أقبل الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين، هذا في دنياهم المحكمة البناء، فكيف بمَنْ هو على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم، فلا يعدّه فتحاً إلّا كمن عظمت الدنيا في عينيه ولا يراه مِنّة من حيث هو إلّا من لا يعرف قدر الدنيا في فتنها وأضرارها. وفي الحديث: (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء).

ثانيها: كثرة الأتباع والخدام، وهو فرع ما قبله ونتيجة ما دأبوا عليه ممّا هو محبوب كل مؤمن من الكلمة المباركة وما يتبعها من الاقتفاء إلى الطريقة المباركة لو كان ذلك كله على وجهه وأتوه/ من بابه وراعوا فيه التقوى واستضاؤوا بأنوار النبوءة، إلا أن الكثرة قلّ أن يكون معها إنتاج. ورحم الله بعض المشائخ حيث قال: ليس المراد أن يكثر في هذه الطريقة الزحام، إنما المراد أن يكون واحداً من الأنام، لأنها سلطنة والمَلِك لا يكون إلّا واحداً. / 143

ولقد بلغ من أمر هذه الطائفة الدجاجلة الكذابين أنهم يقولون: إنني ارسلني

---

(1) في الأصل (أخبار).

(2) في الأصل (ولم يراقبو).

(3) في الأصل (نجويهم).

(4) كذا (الأنساب) ويبدو أنها سهو من الناسخ، والصواب (الأسباب) وسترد الكلمة ثانية (الأسباب).

الأولياء أحفظ هذا المكان، وبعضهم يقول أنا شاوش الصالحين، ويعني بقوله: (شاوش) هو ما يكون في العرف المتصرف بين يدي الأمير وهو الشرطي، وبعضهم يقول: تنازعت أنا وفلان صاحب هـذه المدينة أو هذا القطر فغلبته وأخرجته منه وأنا الآن مولاه، يعني أنه غلب ولياً آخر وأخرجه عن تملكه لهذا البلد أو الناحية. فانظر هذا التلاعب العظيم بحق جانبِ مَنْ رفعه الله وعظمه وجعله قِبْلة يُعْتَمد، وكعبة إليها يُتَوَجّه ويُقْصد، كيف وضع من حقهم وحط من رتبتهم، والكفر لمدعي هذا أقرب من الإيمان، فإنه استهزاء واستصغار بمن نوره الله بذكره في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾. فجعل محل التقوى منهم ظلماً/ وحظوظ[1] أنفاس أوجبت لهم المنازعة والمخاصمة وسلب 144 الرتبة والولاية، وكان مُلْكهم عَضوضاً حتى إنهم جعلوا أنفسهم شُرَطاً، وتمدحوا بها رتبة، وجعلوا الأولياء أمراء، وهم وإن كانوا أمراء حقاً فما لهم وللتشبّه بحال من شهوهم له حتى ألقوهم في معرض الديوان، وإن لهم أعواناً كالأعوان؟ وما ذاك إلاّ من لعب الشيطان ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾[2].

وأعجب من هذا عقول سليمةٌ تَقْبَل هذه الدعوات الكاذبة والتُّرهات الباطلة، فيظنون أنهم على هدى وأن هذه المقالات من المَنِّ الذي آمْتُنَّ به عليهم، وهذا عقل من لا تمييز معه ولا نورَ هَدْي يهتدى به، وإنما هو علل مَن استهوتْه رياح الجهل أو عواصف السلب والطرد، فقد ضلوا وأضلوا وعن طريق الشرع حادوا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ولله درّ الأخضري في منظومته حيث قال:

وقال بعض أولياءِ الله	السالكين بصراط الله
مَن ادعى مراتبَ الجَمَال	ولم يقمْ بأدب الجَلال
فارفُضْه إنما الفتى دجّال	ليس له التحقيق والكمال
ومَنْ تحلّى بحلى المعالي	وبحدود الله لم يبال

(1) في الأصل (وحضوض).
(2) سورة المجادلة، آية (19).

/ 145 فَـفِـرَّ مـنـه إنـه شيـطان مُـخَـادع مـلبِّسٌ خـوان/
يـا صـاح لا تـعبـأ بـهـؤلاء ذوي الخَنـا والـزور والأهـواء
بَـاءُوا بسخْطٍ وضـلال وقِـلا لن يبلغـوا مراتب المجـد إلى
أن تنظروا البهموتَ بالعرش يُناطْ أو يَلجَ الجمال[1] في سمّ الخياط

الثالث: وجود القساوة والجفاوة والغلظة والتعصب حتى أداهم ذلك لإباحة عِرض من خالفهم والتسبب في إضراره بقدر إمكانهم، وذلك أحد الوجوه الناشئة عن شؤم البدعة وحب الرياسة والصولة على الخلق. ولقد حُكِي لي غير مرة أن بعضهم يغري اللصوص المتلصصة على من يراه في طريقته هضماً لجانبه كي ينفرد بالصيت والشهرة بين الناس وعلو الشأن والجاه، والله أعلم.

الرابع: وجود الحرص على الاستتباع حتى جرهم ذلك الأمر إلى أن صاروا يبعثون[2] أصحابهم في البلاد فَيَدْعون[3] الناس لاتّباعهم والأخذ على أيديهم، وصاروا يتغايرون تغاير الضرائر، ويَشْمُتُونَ ببعضهم بعضاً، وترى كل فريق يبغض الفريق الآخر، فلا تجد منهم مُوَادّاً لصاحبه ولا محبّاً لجانبه، وربما يتضاربون ويتشاتمون، كل عصابة واتباع مع العصابة الأخرى والاتباع أما الرؤساء فيكفّر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً.

بين ابن أم هاني ومحمد الحاج:

/ 146 ولقد حَكَى لي بعضُ أصحابنا أنه حضر لابن أم هاني وقد اجتاز لجماعة/ القاصدين مكّة على حي من أحياء البوادي، فأخذه (أحدهم)[4] منفرداً وذكر له أنه لا يليق به هذا الشأن الواقع بينه وبين من سأذكره بعد ـ إن شاء الله ـ وهو الحاج محمّد الحاج، ووعظه بالله وذكر له أن كلاً (منكما صاحب)[5] طريق وأنتما تمرّان على الأعراب المتلصصة فربّما كان هذا الأمر بينكما يفضي إلى العطب وهلاك من معكما. أو كلاماً

---

(1) كذا في الأصل (الجمال)، أما في الآية فهي (الجمـل).
(2) في الأصل (يبعثوا).
(3) في الأصل (فيدعوا).
(4) ما بين القوسين زيادة منا.
(5) ما بين القوسين تصحيح في الهامش بدل عبارة (إنكما صاحبا).

هذا معناه، (فشمخ)[1] بأنفه ولوى برأسه وأخرج له كلاماً في صاحبه المذكور مما لا يرضى أن يتفوه به المجانين أو الحمقى[2] أو السفهاء. وذكر لي أنه من الغد أو بعد الغد لقي[3] صاحبه إذ مرّ هو أيضاً بالمحلّ المذكور ففعل معه من الوعظ والنهي عن تلك المشاحنة والبغضاء ما فعل بصاحبه قبله، ابن أم هاني، فرأى منه هو أيضاً مثل ما رأى من الآخر في حقّه من السبّ والكلام القبيح وعدم الانقياد إلى سماع الحقّ والنفور العظيم عن التراجع والتواد وترك الحظوظ[4] النفسانية.

ومَنْ هذا حاله كيف يطمع أن يكون من أهل الله وصفوته، فهل[5] هذا إلا تلاعب بالدين. ومن اعتقدهم على الحق فهو ناء عن جماعة المسلمين لما في تصديقهم في الولاية من تكذيب جانب الرسالة وعدم الوقوف مع شعائر الله/، وهذه مصيبة في الدين وفضيحة في الآخرة وضحكة في الدنيا عند كل ذي عقل سليم، أعاذنا الله ممّا ابتلاهم وعصمنا ممّا نزل بهم ودهاهم، آمين آمين آمين. / 147

الخامس: استحسان أحوالهم والرضى عن نفوسهم ورُؤْية الفضل لها على من سواهم والاكتفاء بأحوالهم وعلومهم ومشائخهم. وعدّ العلماءُ هذا من أصول الجهل وقواعد الضلال. وقد حَكَى الزروق ـ رحمه الله ـ في (كتاب البدع) عن المشائخ ـ رضي الله عنهم ـ أنهم قالوا لا يكون العاقل عاقلاً حتى يفتقر بعقله لكل عقل، ولا يكون عالماً حتى يفتقر بعلمه لكل علم، ولا يكون مريداً حتى لا تبقى له إرادة. وقال في (الحكم)[6] أصل كل معصية وشهوة وغفلة الرضى عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة[7] وعفة عدمُ الرضى منك عنها، ولأنْ تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم[8] يرضى عن نفسه وأي

(1) أصلها في المتن (فسمخ).
(2) في الأصل (الحمقا).
(3) يبدو أن الإشارة هنا إلى أحد الحجاج الذي وعظ ابن أم هانيء، وها هو الآن يعظ خصيمه محمد الحاج فيجد منه نفس الموقف من خصيمه.
(4) في الأصل (الحضوض).
(5) (فهل) مكررة في الأصل.
(6) يبدو أنه يشير إلى كتاب الحكم العطائية لابن عطاء الله، في التصوف.
(7) في الأصل (يقضة).
(8) في الأصل (العالم) بزيادة الألف في أوله.

جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟ ونقل الزروق عن المشائخ ـ رضي الله عنهم ـ أن فقد حلاوة العمل من فقد إخلاصه أو فقد السنة فيه، وكل حلاوة لا تثمر أبداً فهي آيلة، لوجود الاغترار ولا حقيقة لها في نفسها.

50 ـ [التعريف بسيدي محمد الحاج، سامح الله للجميع آمين]

محمد الحاج الصحراوي:

/ 148 / ومنهم محمّد الملقّب الحاجّ وهو / الذي ذكرناه آنفاً. وكان في ابتداء أمره جعل الخلوة والعزلة وربّما يقال له الصحراوي، ثم إنه أظهر أمرَه أهلُ البادية[1] والأعراب، وتصدّى لرئاسة إعطاء العهد وخالَطَ مشيخةَ الأعراب ورؤساءهم. ومبدأ ظهوره في ناحية الغرب في نواحي القلعة[2] ومسكنه قرية مدوكال[3]، واتخذ زوايا ورعايا تزكي عليه ويأخذ منها الجبايا والأعشار، واعتقد فيه أهلُ القطر الغربي وناحية بسكرة وما حواليها، وأظهر ما أظهر غيره من الإعطاء والمنْع والعزْل والولاية، واتخذ الطلبةَ في بلده للإصطياد بهم على عادة أمثاله في اتخاذهم شهرة وطلباً للجباية وإعانة لهم على الدعوى التي هي عين البلوى، إلى أن قام له ابنُ أم هانيء، فكان الأتباع فريقين والدجاجلة قسمين كل ينهج منهج رئيسه، ويفضل قدر شيخه وجليسه.

وربّما كان متلصصة الأعراب والبوادي انقسمت بقسمتهم وتحزبت بحزبهم، وإن كان لكل واحد عند كل جماعة الرعاية والحظوة[4] إلا أنها مختلفة يُقَدِّرُ قَدْرَ صاحبها ومنزلته كلُّ حزبٍ وفريق من الأعراب والبوادي. أمّا الزوايا والرعايا فكل يُقْسِم ببركة سيده، فإذا أردت أن تعرف أحداً من أي حزب / ومن أي فريق فاستحلفه فيتضح الأمر بحلفه، فإن كان من أتباع ابن أم هانيء فيكون قَسَمُه ببركة ابن أم هانيء، وإن كان من أتباع محمد بن الحاجّ فيكون قَسَمُه بأنه يَقْطَعُه سيده محمد الحاج. / 149 /

---

(1) في هامش الأصل صححت (البوادي).

(2) لعل القلعة التي يشير إليها المؤلف هي قلعة بني حماد، ما دام مسكنه في قرية مدوكال.

(3) مدوكال كانت محطة قوافل رئيسية وممر الحجيج، وهي بلدة قديمة تقع على بعد 36 ك م من بريكة، وهما في ولاية باتنة حالياً.

(4) في الأصل (الحضوة).

أقوال للشيخ زروق وغيره:

ورأس مال هؤلاء الطائفة ومنار ظهورهم اتخاذ الحضرة واجتماع الفقراء لها وإعطاء العهد للتلامذة، وهذا أمر طُوِي بساطه منذ زمن يزيد على مائتي سنة[1]، أعني التربية بالاصطلاح. ونقل الزروق عن بعض المشائخ أنّ التربية ارتفعت بالاصطلاح في سنة أربع وعشرين وثمانمائة[2] ولم يبق إلاّ الإفادة بالحال والهمة، قال: فعليكم باتباع السنّة من غير زيادة ولا نقصان يعني الجادة مع إلتزام الصدق. فإن قلت قد ذكر ابن البنّا[3] في أرجوزته أنه (تبقى ما الوجود باقٍ)، قلت: هو حق أن الطريقة لا ترفع أبداً لكنها تارة تجري بالاصطلاح من الخلوة والترتيبات ونحوها، وتارة بحفظ الأصول فقط، وتارة بحفظ الحرمة ليس إلاّ، وتارة بعلو الهمّة وقوة الحزم والعزم، وتارة بمجرد التلقي والإلقاء. قال الزروق: وهذه أمور لا تزال أبد[4] الآبدين، غير أن الاصطلاح قد انقرض في هذه الأزمنة وارتفع إنتاجه حسبما دلت عليه العلامات / وشهد به الاستقراء. / 150

وقال - رحمه الله - في (كتاب البدع): لقد تتبعت بفكري بالطرق الاصطلاحية الموجودة بأيدي الناس الآن فلم أجد عند أهلها نفحةً ولا نوراً ولا حقيقةً ولا علماً ولا ذوقاً ولا فهماً جارياً عن القياس الأول إلا لذة نفسانية غالبها من استشعار الرئاسة والالتذاذ بالامتياز والاختصاص بالنسبة ونحوها. قال هذا ما وجدت في صادقهم، فأمّا غيره فلم أر منه إلاّ لعباً ولهواً وفخراً وكبراً وتعصباً وخروجاً عن عزّ الإضمار بكل وجه. فكل من تأمّل ذلك وجده عند مخالطتهم والنظر في أحوالهم ا هـ.

قلت: هذا كلامه - رحمه الله تعالى - في أهل زمنه وهو بين أظهرهم وأنوار الولاية لم تسقط كل السقوط، فكيف بزماننا الذي انقلبت فيه السنّةُ بدعةً وجُعِلتْ البدعةُ سنّةً يعضون عليها بالنواجذ، فلقد أظلم الخافقان بظلمات البدع والأهواء، وامتلأت الأرض بهم فلا ترى أو تسمع إلاّ مخالفاً للكتاب والسنّة.

---

(1) يفهم من هذا أن المؤلف يرى أن الانحراف في التصوف يعود إلى القرن الثامن الهجري - الرابع عشر ميلادي - وبالخصوص منذ 824 (1421) كما أشار إلى ذلك أحمد زروق.

(2) 824(1421).

(3) ابن البنا السرقسطي الذي نقل عنه المؤلف منذ قليل.

(4) في الأصل (أبداً).

وأعظم من هذا كله الانتصار لجانب أهل الزيغ والضلال، وتعظيمهم بأعظم ما يعظم به السادة الكمّل الرِّجال بل يظنون أن أهل بدعتهم هم أهل الحضرة والكمال، وهم يجادلون في الله / وهو شديد المِحال، وكان الشيخ الإمام العالم العلم الصدر الكبير سيدي أبو عبد الله محمّد بن مرزوق التلمساني[1] - رضي الله عنه - من أشدّ الناس إنكاراً على طائفة أهل البدع الذين كانوا في زمنه مع ما هم عليه من تخليط عمل صالح وآخر سيّء، ففي سيرتهم ما يمدح وفيها ما يذمّ حسبما نقل في طريقتهم، ومع ذلك كان أشد الناس إنكاراً عليهم في الأصل والفرع، ومثله في ذلك الشيخ سيدي أبو القاسم العبدوسي[2] - رحمه الله - فكانوا يصرحون فيهم بأمور كالرافضية والسحر وغير ذلك. ويرون[3] أن من عصى الله بالزنى وشرب الخمر أَيْسَرُ أمراً مِنْ مَنْ اتبع طريقتهم. وتبعهما على ذلك جماعة من بعدهما.

/ 151

ونقل الزروق عن بعض الفضلاء الفاسيين أنه بالغ في ذلك وقال تُهْدَم ديارهم وتُفَرق جموعهم ويسامون بسوء العذاب حتى يقلعوا عن ذلك، ووافقه على ذلك جماعة من شيوخ وقته ببلاده حين جاءوا مستفتين في أواخر سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة[4]، ورأوا أنهم لا يمكنون من الكلام في مسائلهم ولا يفصل فيها لغلبة الجهل والفساد على الزمان، وإن كان الشيخ أبو مهدي عيسى بن أحمد الماوسي[5] أفتى بأنّ أمورهم / ينظر فيها فيصحّ ما يكون صحيحاً ويبطل ما يكون باطلاً. واختاره الزروق قائلاً: وهو أحرى بالتحقيق عند تحقيق النظر، فإنما هذا في تلك الطائفة التي كانت مباني أمورها على الصحّة والاستقامة في البعض وعلى الاعوجاج في البعض الآخر.

/ 152

---

(1) محمد بن مرزوق: الظاهر أن المقصود به هو محمد بن أحمد بن محمد. ابن مرزوق الحفيد العجيسي. وقد ترجم لهذا ابن مريم في البستان، ص 201 - 214. له مصنفات عديدة ورحلات كثيرة، وله تأثير واسع على أهل عصره ومن جاء بعدهم. وقد ترجم له أيضاً أكثر من واحد. توفي سنة 842.

(2) أبو القاسم العبدوسي الفاسي، نزيل تونس. وقد توفي بها سنة 837 ودفن بالجلاز. انظر عنه (الحلل السندسية) للوزير السراج، القسم الأول رقم 674/3. وكذلك إتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف 1 / 233 طـ. 2.

(3) كذا، والصواب يريان، لأن الحديث عن ابن مرزوق والعبدوسي.

(4) 873 (1468).

(5) عيسى بن أحمد الماوسي.

وأما طائفة زمننا وجماعة بدع قطرنا، فيما أعلمه، (فقد)[1]، تمحّضت أمورهم في خالص البدع المحرّمة ونقضوا عرى السنة بمعاول أهوائهم الفاسدة، فلا تجد لهم في سيرتهم ما يلم أو يقارب حمى الله ورسوله في أوامره، بل لا تراهم خائضين إلاّ في بحار المناهي والمنكرات، والتكالب على الدنيا والتفاخر بالشهوات، والتسبب في كثرة الأتباع السوء[2] لاقتناص رتب الرئاسات، فلا يختلف إثنان في طردهم وردعهم، ويجلبون عليهم بخيلهم ورجلهم، في الله ولِلَّه حتى يظهروا التوبة ويعلنوا الأَوْبة ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو[3] عن السيئات ﴾[4]. جعلنا الله ممّن غُفِرت سيئاته، وكُفِّرت زلاته وخطيئاته، ورفعت في أعلى الجنان درجاته.

عيسى الديندي:

وعلى ظنّي أن هذا الرجل[5] ينسب تلميذاً لأبي مهدي عيسى الملـقب بالديندي، وآن الآن ذكره استطراداً. كان ظهوره زمن صغري واشتهار / أمره قبل 153 / إدراكي، ولا أدري ما يُحْكَم به عليه. والواجب في مثل هذا التسليمُ وحسنُ الاعتقاد في الأمّة وحملُهم على الطريق القويم. ولقد ورد عن سيد البشر الحث والترغيب في خصلتيـن حسن الظن بالله وحسن الظن بعباده، كما نهى ونَفَّرَ من سوء الظن بالله وسوء الظن بعباده، والمسلمون كلهم عدول. والطريقة المثلى اعتبارُ عباد الله المؤمنين بعين الإجلال والتعظيم، وحملُهم على كاهل البر والاحترام، والنظر إليهم بعين الرحمة والشفقة وحسن الظن بهم وقوّة الاعتقاد الجميل فيهم إلاّ من ظهر منه مخالفةُ للسنّة وإبداء المحرّمات والتلويث بدنس المنهيات، ممّا لا يحتمل تأويلاً ففِرّ منه فرارك من الأسد، وجانبْه مجانبة عدو كاد وحسد، وأظهرْ بغضه لله وباعده إلاّ أن يتوب. وقد تقدم بعض شيء من هذا.

---

(1) ما بين القوسين زيادة منا.

(2) كذا في الأصل والأصح (أتباع السوء).

(3) في الأصل (يعفوا).

(4) سورة (الرعد)، الآية (6).

(5) يقصد المؤلف في غالب الأمر محمد الحاج الصحراوي، لأنه رجع إليه بعد انقطاع طويل.

ولنرجع إلى ما كنّا بصدده، فاعلم أن أبا مهدي عيسى المذكور استفاض من سيرته ما هو محمود من العكوف على تلاوة القرآن العظيم وحبّ القراء[1] والمساكين وخدمتهم والقيام بمؤونتهم والتقرب بكسوتهم، حتى إنه لا تراه إلا مطعماً أو كاسياً، ومع هذا لا يفتر هو وجمعه من التلاوة هكذا / أخبرت عنه من غير واحد وفي هذا كفاية، فإنها خصال طلبها الشرع من الأمة، وهي كاشفة لكل همّ وغمّة. هذا مع تكررٍ لزيارته من العلماء ونجباء الطلبة، وهم المحك والمعيار، ولو رأوا ما ينافي الشرع في جُزْئِيَةٍ لكانوا أسبق إلى النكير من غيرهم. وأما ما يتعاطونه[2] تلامذته من وقائع كراماته فلم تبلغني عن موثوق به إلاّ ما ذَكَر لي عنه أبو العباس الغربي، وكان يدعي التلمذة له، وربّما يقول له بعض التلامذة إنه خليفته. وقد أغناك ذكر سيرته عن سريرته. / 154

فحكى لي[3] أنه ذات مرة عنده زائراً على عادته، والفقراء بين يديه يتلون القرآن العظيم، فتكلم كَبِيرُ الفقراء أو نحوه فقال له: يا سيدي كنت سمعت منك أنك قلتَ رأيتُ جبريل وميكائيل وبين يديهما ثلاثة أبَاعِر وقلتَ إنهما أتيا لحمل البركة والحياء والقرآن، فقال له نعم رأيتهما، فقال له مناماً أو يقظة؟ فقال له وما لك؟ يقظة[4] رأيت جبريل وميكائيل، وقال له تعرفهما يا سيدي فقال له بلغته[5]: واش أخبارك يا رجل، أو نحوه، نعرفهم رأيتهما ومعهما الأباعر الثلاث، فسلمت عليهما وسألتهما فقالا لي: أتينا لحمل البركة والحياء والقرآن، فرفعا البركة والحياء، والقرآن مسكوا فيه / أهله فاجتهدوا في القراءة قبل أن يرفعوه، أو كلاماً هذا معناه، ثم إنه أخذ في التلاوة هو ومن معه. / 155

هكذا أخبرني[6] وكرامات الأولياء ممّا يجب الإيمان بها ورؤية الملائكة جائزة، وقد حصلت لغير واحد كرامة لهم. ونقل الشيخ أبو طالب المكي ـ رضي الله عنه

(1) كذا (القراء)، ولكن السياق يقتضي أن تكون (الفقراء) فلعل يد الناسخ سهت عن ذلك.
(2) كذا (يتعاطونه) بثبوت النون.
(3) يقصد أبا العباس أحمد الغربي.
(4) كلمتا (يقظة) المتجاورتان كتبتا هكذا (يقضة).
(5) أي بالدارجة.
(6) أي هكذا أخبر أبو العباس أحمد الغربي المؤلف عن كرامات الشيخ عيسى الديندي.

ونفعه ـ (عن)[1]أبي حامد الغزالي، والنص له فيما حكاه عنه ابنُ عبّاد في رسائله[2] عن بعض العارفين، قال: ظهر لي الملك فسألني أن أملي عليه شيئاً من ذِكْري الخفيّ. وقد حكى عن أبي عبد الله القزديري قال: سألت سيدي عبد الله الحُسْبي، وكان من كبار أصحاب سيدي أبي الحسن[3]، وقلت له: يا سيدي أخبرني بشيء ممّا رأيته من أحوال سيدي أبي الحسن ـ رضي الله عنه ـ فقال نزلت معه وقتاً من جبل زغوان[4] وهو راكب وأنا أسير خلفه، فقال لي: يا عبد الله إذا ورد عليّ حال فاترك الدابة تسير حيث توجّهت ولا تعترضها بشيء، فبينما نحن نسير إذا به قد كساه حال غُيِّبَ فيه وإذا بسحابة طير سدّت ما بين السماء والأرض قد أظلّته وإذا بأربعة من الطير بيض يَقْدُمُهَا طائر كبير فاكتنفه ذلك الطائر الكبير بأجنحته وجعل منقاره في فم الشيخ. وبقي الأمر كذلك مدة وارتفع / ذلك وذهب الطير، ورجع الشيخ إلى حسّه فنظر إليّ وقال: يا عبد الله رأيتَ شيئاً؟ فقلت له: نعم، رأيت كذا وكذا وذكرت له ما ذكرت لك، فقال لي: أمّا سحابة الطير فهي أرواح كل وليّ لله تعالى، وأمّا الطير الكبير الذي يقدم الطير البيض فهو الملك عبدوس صاحب فلك القمر، سألني في علم يختص به. قال ابن عبّاد ولا سبيل إلى تخطية أحد من هؤلاء الأئمة ولا تكفيره، انتهى.

/ 156

قلتُ وليس في حكاية أبي مهدي[5] ما يوجب الإنكار عليه إن كان بالمثابة المثلى من طريق أتباع السنة والمعرفة بالله (والحق أبلجُ والباطل لَجْلَجٌ). هذا في رؤية الملائكة على غير صورهم، وأمّا رؤيتهم على صورهم التي خلقوا عليها، قال ابن عبّاد: لم يُنقل عن أحد من الأولياء أنه رآهم كذلك. والظاهر أنه[6] ذلك من خواص الأنبياء، عليهم السلام، إنتهى. فإن قلت ذكر القاضي عياض الإنكار على

---

(1) ما بين القوسين زيادة منا، وبذلك أصبحت (أبي حامد) بدل (أبو...) إلخ.

(2) ابن عباد (محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك الأندلسي) المتوفى سنة 792 بفاس. من مؤلفاته (الرسائل الكبرى) في التصوف والتوحيد الخ. (من إفادة الشيخ التليلي).

(3) الظاهر أن المؤلف يشير إلى أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة المعروفة، والملاحظ أن المؤلف ينتمي إلى هذه الطريقة لاعتقاده في طريقة أحمد زروق التي هي فرع عنها.

(4) جبل زغوان جبل معروف بتونس يقع على بعد نحو 30 ميلاً جنوب ـ شرق مدينة تونس. الحسن الوزان (وصف إفريقية)، 104/2.

(5) يعني عيسى الدَّيْندي المذكور.

(6) كذا (أنه) وصوابه (أن).

من ادعى رؤيةَ الملائكة، قلتُ يُقَيَّدُ برؤيتهم على الصور التي هم عليها.

قال ابن عباد إذ في هذا الوجه قد يصحّ وجود الإجماع، ومن ادعى ما يخالف الإجماع فقد يكفر بذلك، إنتهى.

وأغرق أتباعُ أبي مهدي في نسبة الخوارق له، والله أعلم بصحتها، والطريق الحق والقسطاس المستقيم في كل مَنْ أُشيرَ / 157 / إليه بإشارة الولاية أو ظهرت على يديه الخوارق أن تعتبره بمعيار الشرع: فمن رأيته على الجادّة قولاً وفعلاً واعتقاداً، عارفاً بربه وبما جاءه عنه على لسان نبيه ـ ﷺ ـ، مجانباً للحرام وتناولِه، تاركاً للشبهات، محافظاً على دينه لا يدعي دعوى التي هي أصل كل بلوى ولا يرضى بنسبتها إليه، مباعداً للصوص ومخالطتهم إلا فيما يعنيه من خلاص مؤمن وإنقاذ ما له منهم بوجهه اللائق، لا يأخذ منهم ولا يتملّق إليهم ولا يحب ما يأتونه به، رادّاً عليهم أفعالهم وأقوالهم، آمراً لهم وناهياً ـ فهذا إذا ظهرت عليه لوامح الخوارق أو تحدّث بها على طريق إظهار النعمة وشكرها، فيعتقد في صاحب ذلك، وأمّا من خالف هذه الأوصاف التي ذكرناها أو بعضها ولو وصفاً واحداً منها، فالزندقة أقرب إليه من الإسلام، وما ظهر على يديه أو رِيءَ له، إنما هو استدراج ومكر، نعوذ بالله من الحرمان ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إنّ كيدي متين ﴾[1].

المؤلف يرد دعوى تلميذ الديندي حول العلماء والصوفية:

ولقد حَكَى لي أبو العبّاس الغربي المذكور عن بعض تلامذة أبي مهدي عيسى بعد وفاته، وربّما قيل إنّه خليفته أو نحو ذلك، الشّك / 158 / مني، وكان يُدْعَى محمد (   )[2] ومنزله في نواحي القلعة العباسية أو ما يقاربها، قال أبو العباس[3]: فَوُجِّهنا من المحلّة إليـه فسرنا زماناً طويلاً حتى أعيانا السير، فلما رجعنا من عنده وهو معنا فلم نلبث إلا يسيراً حتى بلغنا المنزل، وكان أبو العباس يراها له كرامة. وذكر أنه قال لهم، حين سايرهم حكاية مَثَلِ العلماء والأولياء إلّا أنه ذكرها في معرض أنه من

(1) سورة (الأعراف)، الآيتان (182، 183). وكذلك سورة (القلم)، الآية (45).

(2) ما بين القوسين بياض بالأصل قدره كلمتان. ولم يذكر المؤلف الاسم الكامل لهذا التلميذ الذي يتحدث عنه (تلميذ الشيخ الديندي) والذي قال إنه من نواحي القلعة العباسية (قلعة بني عباس؟).

(3) أبو العباس الغربي.

الأولياء وأن بعض مَنْ كان مع أبي العبّاس أنكر عليه فكأنه كاشفٌ عنه، فقال لهم: نعم الفقهاء معذورون في الإنكار علينا أو نحو ذلك، الشك مني في اللفظ مني، لا في معناه، فالمَلِكُ له دار جعل عليها العلماءَ يحرسونها فلا يتركون من يدخل إليها فغفا العلماء إغفاءة أو ناموا نومة، الشك مني في اللفظ أيضاً مني، فدخل الأولياء للدار ففتشوها وعرفوا ما فيها وخرجوا، فاستيقظ العلماء من نومهم وصار الأولياء يتحدثون: إنّا دخلنا دار المَلِك ورأينا فيها كذا وكذا، فيقول العلماء كذبوا، نحن حراس الدار ولا دَخَلَ علينا أحد، فمن أجل ذلك إنكارُ العلماءِ على الأولياء.

فانظر ـ رحمك الله ـ هذا التخليط العظيم وما احتوى عليه هذا اللفظ من / 159 / المفاسد التي تؤدي إلى الكفر والعياذ بالله أو هي كفر بعينها. والعجب من أبي العبّاس أكثر في التملح بها واستحسانها واللهج بها بين يدي الأمراء وغيرهم كي يرفع قَدْرَ قائلها وتكون له الحظوة بها، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون. لكن حبُّكَ الشيءَ يُعمِي ويُصِم، والجهل قائد إلى الشر ومؤدي إلى الهلاك. وأبو العباس لا يطيق إدراك المسائل ولا معرفة وجوهها ومبانيها ولا ما يترتب عليها كغيره من أهل عصره كما نبهنا عليه[1]، ولو نور الله بصيرة القائل المذكور لما تفوّه بما يهدر دمَه أو يتردى به من قُنَّة[2] جبل. ولو هدى الله أبا العباس لرد عليه قولَه أو سأل إذ لم يعرف ما يرد به عليه مَنْ هو أولى منه بذلك لوجوب السؤال عليه إذ لم يَعْلَمْ، لقولـه تعالى ﴿ فاسألوا[3] أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[4]. وهذا الرجل[5] القائل نَسَبَ العصيانَ لكل علماء الدين، والغفلةَ عن حمل شرع سيد المرسلين، لأنّ نومهم كلّهم تَرْكٌ لما أمرهم به المولى من مراعاة[6] داره وحفظها عن الدخول إليها، ولذلك خلقهم وبه أمرهم ومن أجل ذبّهم عن الشرع أهّلهم، فتركوا الأمرَ واشتغلوا بالراحة فناموا فضيعوا الحراسة / 160 / وتركوا دار الأمير عارية من حارس.

---

(1) أنظر عنه ص 140.
(2) قنة الجبل أعلى نقطة فيه.
(3) في الأصل (فسئلوا).
(4) سورة (النحل)، الآية (43)، وكذلك سورة (الأنبياء)، الآية (7).
(5) هو محمد العباس، تلميذ عيسى الديندي، كما سبق.
(6) في الأصل (مراعات).

وهل هذا إلاّ نسبة الضلال لأئمة المسلمين وعلمائهم ونور بصائرهم؟ ولو علم المحروم أن نومهم إضلال له ولفريقه، لو حصل لهم، لما تكلم بهذا. وقد قال ـ صلى الله عليه وسلّم ـ تسليماً: «أمّتي لا تجتمع على ضلالة»، وقال: «يحمل هذا الدين مِنْ كلّ خلقٍ عدولُه ينفون عنه زيغ الزائغين»، أو كما قال وإذا هفوا ساعة، ولو أقل قليل، بقي الدين بلا حامل في تلك اللحظة وتطرق الزائغون والمبطلون والملحدون إليه، ووقع اجتماعهم على الضلال الذي أخبر الشارع أنهم لا يجتمعون عليه وهم معصومون منه.

ثمّ إنه[1] جعل العالم غير الولي، ففرق بين القسمين، وباين بين النوعين، وهما سيان. فالعالم ولي الله والولي لا يكون إلاّ عالماً. وقد قال الشافعي إذا لم يكن العلماء أولياءَ الله فليس لله ولي. وأما الولي بلا علم، فالعداوة أقرب إليه من المحبّة، وكيف يهجس في قلب عاقلٍ أو موفّق إن وليّ الله جاهل بالله وبما جاء به رسوله ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ ولذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ: «ما اتخذ الله من ولي جاهلٍ ولو اتخذه لعلّمه». فمُعْتَقِد المباينة بينهما قد عرَّض نفسه للتلف في أودية مصادمة الحديث الشريف / فيُخْشَى عليه العطب دنيا وأخرى. / 161

ولعلّ هذا الرجل غرّه ما قاله الصوفية: إن ما مثل الفقيه إلا كبواب الملك، والصوفيُّ المحقق صاحبُ سرّه، فإذا حدَّث الصوفي عن خبايا بيت الملك نادى عليه الفقيهُ إنما أنت سارق أو كذاب أو متجاسر، فإن أتى بأمارة من الملك، وإلا فحُجَّة البواب عليه قائمة وإنكاره صحيح، قالوا فمِنْ ثَمَّ صحّ إنكارُ الفقيه على الصوفي، ولم يصح إنكار الصوفي عليه فاعرف ذلك، اهـ[2]. فانظر ما بين هذا المثال والمقالة الصادرة من ذلك الرجل تعرف جرأة الرجل على التفوه بذلك الكلام المشعر[3] والعياذ بالله، بالبُعْد عن حضرة الحقائق، والطرد عن باب الخالق.

ويكفي في ذمّه وذم من كان على شاكلته ما أهّله اللَّهُ للنطق به والإقرار على

---

(1) أي تلميذ عيسى الديندي المذكور.
(2) لم ينسب المؤلف هذا الرأي إلى أحد، وإنما قال (الصوفية).
(3) في الأصل (المسعر).

نفسه أنّهم محجوبون عن دار الملك ومطرودون بالعلماء البوابين، فلم يدخلوها إلا في حال غفلة البوابين ونوم الحارسين، وهل هؤلاء إلاّ مثل الشياطين الذين أعدّ الله لهم الشهبَ رجوماً فلم يتصلوا بأخبار الملكوت الأعلى وتقع في أثرهم رجوم الكواكب. ولو كانوا من أهل حظوة الملك وخاصته لما منعهم البوابون، إذ يبعد أن يجهل البواب أحباء الملك، كما يبعد أن لا يعرف / الملك حرسَه وخَدَمَتَهُ ممن[1] / 162 يكون صاحب سره وخزانة غيبه كي لا يمنعوه الدخول لحضرة الملك وإن لم يُعَرِّف به البواب، أظهر عليه علامة الأحباب، وألقى على لسانه أمارة القرب وكشف الحجاب، ألا ترى إلى قول الصوفية: فإن أتى بالأمارة من الملك وإلا كانت حُجَّة البواب قائمة، ويعنون بالأمارة المتابعة للسنّة والمعرفة والعلم بصفات الملك وهو القائد لهم إلى دخول الحضرة الصمدانية، فلولاه لم يصلوا وبنوره استضاؤوا واهتدوا، ومن أجله خُصُّوا بما اختُصوا.

ثمّ يقال لذلك الرجل[2]: دخول المرابطين لدار الملك بإذْن من الملك أم لا؟ فإن كان بإذن منه فالملك يفعل ما يشاء لا حجر عليه من مملكته، يقرّب ويدني، ويبعد ويقصي، فلا رادّ لأمره، إلاّ أنّ فيه تضليلاً لحملة الدّين، وتجهيلاً لمن جعلهم أمناء لحماية حماة الأمين، حيث أمرهم بأن لا يتركوا أحداً يدخل لداره ويحفظوا حضرته العظيمة ممّن يريد التطرق إليها. وهذا خلاف الوارد من قوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[3]. فيبعد من جهة الكرم العظيم مع تحفظ البوابين جهدَهم والقيام بوظيفة[4] الحراسة طاقتَهم، أن يكون جزاؤهم التضليلَ والجهلَ بوظيفة / استؤمنوا عليها وقاموا بما لديهم / 163 حتى أورثهم ذلك الجهلُ والتضليلُ الوقوعَ في خواص الملك والسب فيهم والاعتقاد السيء فيهم، وإخراجهم من دائرة القرب، إلى كونهم من أهل الطرد والبعد، أترى الملك يرضى بسبّ خاصّته من بَوَّابه، ويريد منهم تنقيص أهل قربه وأحبابه، بل لا

---

(1) تظهر في النص كأنها (فمن) والمعنى غير ذلك.
(2) الحديث دائماً عن تلميذ عيسى الديندي.
(3) ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم﴾: الآية (17) من سورة (محمد). ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾: الآية (69) من سورة (العنكبوت).
(4) في الأصل (وضيفة) وكذلك المجاورة لها.

يكون جزاء البواب إلاّ أَلِيمَ العذاب والعقاب. فقد رجع حملةُ الدين أشقياءَ وتنصَّلوا من حضرة الأصفياء، وهذا اعتقاده كفرٌ وارتداد، ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾، أسأل الله السلامة والعافية والبعد والحفظ ممّا يوجب سخَطَه في الدنيا وفي يوم القيامة.

على أن قوّة مثال الرجل المذكور يؤدي إلى الخُلْف في خبره الصادق، وذلك لأنّ قوة قوله في المثال: إن قول الملك لا تتركوا أحداً يدخل الدار يقتضي كراهية الملك لدخول كائن أيّ كائن، وهو قائم مقام لا أريد دخول أحد لداري. وتقدير أن دخول من دخل بالإِذْن يؤدي إلى الكذب والخُلْف في الأخبار، والملك يُجَلّ ويعظم عن الكذب والخُلف مع ما في قوله: لا تتركوا أحداً يدخل سد لباب الملك وغلق[1] لساحته عن التطرق. وهذا خلاف ما هو / المعلوم من فتح الباب للعباد، وأنه ليس عليه صادّ ولا راد، نعم أمر الملك بالبواب والحراسة إنما هو من الشيطان والملحدين أن يزيغوا في الدين، وكانت الحراسة بالعلم الذي أورثه خلاصة الأنبياء والمرسلين، فإن كان هؤلاء المدعون من الشياطين والملحدين كانت الحراسة منهم حقّاً، ولا يدخلون الحضرة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط ما داموا بتلك الصفة، وإن لم يكونوا بتلك الصفة فلا حراسة عليهم ولا مانع يمنعهم. وقصارى الأمر أن يتوجهوا لدار الملك من الباب، وتلك طريقته في الواصلين إليه من الأحبابِ، وشاهده ﴿وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله﴾[2].

ولنكف القلم في هذا القِسْم فنقول: وإن كان دخول الداخلين من غير إذْن الملك فلا شك في فسقهم وطردهم وبعدهم بل وكفرهم حيث هجموا على دار الملك من غير إذن، واستباحوا حماه بدون مشورة ورضى. ثم هو يؤدي إلى مفسدة عظمى وهي، والعياذ بالله، جهلُ الملك بدخولهم إنْ لم يعلم أو قهرُه غاية القهر بوصولهم إلى داره وحلولهم. وهل هذا إلاّ تهافت عظيم وتلاعب بالدين وخروج عن دائرة المسلمين.

فإن قلتَ قد رددت المثال بما رددته، وهو مقتضب من كلام الصوفية المذكور،

---

(1) في الأصل (علق).

(2) سورة (البقرة)، الآية (189).

فربّما يتطرق الرد إلى ساحتهم ويخِلّ النقص / والغضُّ من منصبهم وهم خاصة الملك وأحباؤه ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ قلتُ: قد قدّمنا أنّ المثالَيْن مختلفان والمَبْنَيْن متباينان، فمثال الصوفية، رضوان الله عليهم، إنّما جاء لبيان وصف الفقيه ووصف الصوفي، فذكروا أن حال الفقيه حالُ بواب الملك والبواب وإنْ جُعِل حارساً لأهل الشرّ والفساد فهو أمين على الظاهر، والصوفيُّ أمين على الأسرار. / 165 /

فإن قلتَ: هذا يخالف ما قررته من أن ليس الولي إلا العالمَ ولا فارق بينهما، قلتُ: نعم هو كذلك، أترى صاحب السر يخفَى عليه ما ظهر ويُخَصُّ بما استتر؟ وكيف؟ والظاهر كل الناس فيه أُسْوَة ويعلمه صاحب السرِّ وغيرُه، وإنما اختص صاحب السر بما اختص من معنى لا يليق بغيره، فجعله الملك عنده واستخزنه في خزائنه لكونه أهلاً لها ومحلاً لحفظها، وكذلك البواب فإنه أمر بالحكم بالظاهر والصوفي معه من العلم ما مَعَ البواب وزاد بذلك السر، فهو عالم صوفي. ولذا ورد في الحديث (ما اتخذ الله من ولي جاهل) فالعالم بالله العامل هو صاحب السر، وهو بواب من حيث القيام بوظيفة الحراسة الظاهرة، وصاحب سر من حيث قيامه بوظيفة ذلك السرّ، والعالم الذي / لم يبلغ درجة العمل قام بتلك الوظيفة الظاهرة والحراسة لاحظ له في وظيفة السر المستودع منه، فينتج من هذا أن كل صوفي عالم وإلا لم يكن صوفياً، وليس كل عالم صوفياً إذ يبعد أن يعلم الخفي من أحوال الملك ولا يعلم ما هو ظاهر ولغيره[1]، ومدعي ذلك كمن يدعي رؤية كنز في البحر ولا يرى نفس البحر. وهل هذا إلا سفه وضلال؟ / 166 /

وانظر في مثال الصوفية، هل فيه حكم على البوابين بالنوم المُفْضِي إلى تضليل علماء الأمّة؟ وهل في مثالهم تحجير من الملك في الدخول لداره بأن لا يدخلها أحد وغير ذلك من بشاعة كلمات الرجل[2] التي لو تتبعتُ معانيها لاحتملت أسفاراً، ولو تصدينا لها لكان هذا الجزء[3] كله فيها. ولنكف العنان، ففي هذا غنية لأولي الألباب، ومن وُفِّق للتقوى سمع فعمل، ومن كان نصيبه الهذيان طُرد وخُذِل.

(1) كذا (ولغيره) معناها لم يتضح لنا.
(2) هو تلميذ الديندي المذكور.
(3) يقصد هذا الكتاب (منشور الهداية).

51 ـ [التعريف بالسيد علي بن حمود، رحمه الله آمين]

علي بن حمود وجماعته أولاد عيسى:

ومن المدعين الولاية أيضاً رجلٌ يقال له علي بن حمود، أصله من أولاد عيسى، جماعة اللصوص والحرابة، زعموا أنه ساح ولبس الغرارة وبقي مدة، وسُلِب العقلَ في ابتدائه، وينتمي بالتلمذة لسيدي أحمد بن بوزيد[1]. كان في زمن الجد أبي الوالد عبد الكريم المذكور[2] أولاً. / 167 / وممن له فيه حب وأسلاف[3]، وأنا لي فيه أيضاً حبّ واعتقاد، وهو من تلامذة الشيخ الجليس فيما يذكر. ولعل أن نذكر[4] من مآثرهما شيئاً يثلج الصدر ويكشف الغطاء.

52 ـ [التعريف بسيدي الجليس بل ببعض مآثره، رحمه الله آمين]

الشيخ الجليس والزواغي ومحمد ميمون:

أما الشيخ الجلّيس[5] فيذكر أنه من تلامذة الشيخ الزواغي المدفون بقصبة المدينة[6]، كما يذكر أن الشيخ الزواغي من تلامذة الشيخ سيدي محمد ميمون، المدفون بزاوية الرقاقين الجوفية المَفْتَح، فكان الشيخ الجليس فيما استفاض من أمره الغالب عليه الجَذْبُ أو هو حالته وأقْعِد آخر زمنه، وكان يقال إنه كثير السفَهِ في الكلام وإجراء الخَنا على لسانه، ويقابل الذكور والإناث بقبيح اللفظ، ويضرب الناسَ ويعاملهم بالعنف، ومع هذا لا يصُدُّ الناسَ عن زيارته ولا تعاهِد منزله.

مآثر الشيخ الجلّيس:

وكان يُرَى كثيراً مستعملاً لأكل الحشيشة ويعطيها لمن يأتيه ويلزمه أكلها، وإلاّ ضربه أو قاتله بسلاح عنده كان يستعدها. ويُحْكَى أن مَنْ يعطيه إياها يجدها في الأكل تمرةً. والله أعلم. وكان يتألف الهرّ ويربيه ويتعدد عنده منهم العدد، ويقال إنه مات له

---

(1) أنظر عنه ص 113 وسماه هنالك البوزيدي.

(2) أنظر عنه ص 47.

(3) لعل المؤلف يشير بكلمة (أسلاف) إلى مصاهرة بين جده والشيخ علي بن حمود.

(4) هذا التعبير (ولعل أن نذكر) فيه عامية، وقد تكرر عند المؤلف.

(5) بتشديد اللام وكسرها من النطق العامي.

(6) يعني قسنطينة.

هرّ منها فصنع له كَفناً وجعل له مشهداً ومدفناً، وأتاه خاصةُ البلد وعوامُّها / لجنازته، 168 /
ويقال إنه جالس مع بعض الخاصة، منهم العمُّ قاسم الفكون أخو الجد وهو المذكور فيما قبل[1]، وحول الجلّيس هرّان فقال للجمع المذكور: هذا جبريل يعني لأحدهما، وهذا ميكائيل يعني الآخر، فقال له واحد من الجمع: وأنت يا سيدي؟ فقال: أنا الباري، فقال له الرجل المذكور: إن كان أنتَ باري الأقلام!، فقال له الجليس: آكذ! بقبيح الذِّكر، سابّاً له: مِنْ أين سَرْ سَبَهَا، يعني كيف تؤول هذه المقالة وصرفها عن غير وجهها، وكأنه ذكر في جبريل أنه من الجبر ونحوه.

ومن مآثره ما ذَكر لي جدي للأم مِزْوار الشرفا بقسنطينة، وهو أبو عبد الله محمد ابن قاسم وهو المذكور فيما تقدم[2]، أن الشيخ الجليس كان في ابتداء أمره يركب على حصان ويطوف في الأزقّة وربما يطوف بها ماشياً، فأتى ذات يوم ممطرٍ لمسجد حفصة، وهو الذي بأسفل حمام بن نعمان، وبه كان يُقرِيء الشيخُ الوزّان، رحمه الله، فوقف بباب المسجد، فوجد الشيخَ الوزان يقريء الطلبةَ فقال لهم: أتظنون مَا كَانْ مَنْ يُقري[3] إلا الوزان، أو كلاماً هذا معناه، بلفظ العامّة، اتبعوني اتبعوني! فانتدب واحدٌ منهم لأتباعه وقال: أنا أمشي معه حتى أنظر ما يصير أمره إليه، فخرج به وهو يتبع أثره من البلد، وقصد نحو واديها حتى أتى به إلى / العين التي يقال لها عين 169 /
الأقواس، فجلس الشيخ الجليس في بقعة من الأرض جلسة الشيخِ المقري، وجعل صدر البرنس الذي عليه في وسط صدره وتهيأ للقراءة، وعلى ظني أنه أَخْرَجَ له من تحته شيئاً من الحشيشة، فبلّها وجعلها كالتمرة وأعطاه إياها وقال له: كل وإلا فعلتُ بك وفعلتُ، فأخذها منه، وقال له: استفتح القراءة، فبدأ الرجل المذكور عليه في ابن الحاجب الفرعي، وأول ما بدأ به: المياه أقسام، قال: فأنطق الله الجليسّ بما يقصُر عنه اللسان من العلوم وصار يهـ ر بها هديراً. قال: وأنا أتعجب من هذا العِلْم الذي يقرر به الجليس كلامَ ابن الحجب، حتى إذْ أعطى منه ساعة خُلّط[4] أمرُه وغُمّي

(1) انظر عنه ما مضى ص 43.
(2) أنظر عنه ص 52.
(3) كذا (ما كان من يقري) وقد أشار إليه المؤلف أنه لفظ عامي.
(4) بعد هذه الكلمة رمز هكذا (ح) ولم نهتد لمعناه، ولعله (رحمه الله).

حاله، فقام إليّ مبادراً ضربي وطردي، ورجع لحاله من عدم العقل وحالة الجذب، والله أعلم.

ومآثره كثيرة تخرج عن المقصود، وممّا استفاض عليه، وسمِعْتُه مِنْ ولَدِ مَنْ جرتْ له[1] هذه القصّة معه، فأخبرني أنه كان صغيراً ورفعته والدته معها قاصدة زيارة الجلّيس زمانَ إقْعاده، وكانت والدته أصابتها جراحة في أنفها أعيت الأطباءَ ورعُبَتْ منها أن تكون أَكَلَةً فوقفت بين يديه، إمّا قال لي وجدت بين يديه إناء من غائط وبول، وهو / يُحَرِّك فيه بعصى، أو قال لي قال لوالدتي إيتي به، الشك مني، قال لي فقالت له والدتي: سيدي ادع الله لي يشفيني، فقال لها على عادته في قبيح الكلام مع النساء: الدعاء منك التي لم تسقط مصارينك من كذا وكذا، بأقبح ما يذكر، ثم قال لها: اقعدي يا منتنة، أو كلاماً هذا معناه وهذا دكان كلامه[2] فيما يذكر عنه أنه يخاطب الذكر بيا مُنْتِن، والأنثى بيا منتنة ـ وقال: فجلستْ، وجعل يخلط في ذلك الإناء بعصى ويمزج العذرةَ بالبول، وأخذ كاغداً وقَصَّه على قدر الجرح المذكور وطلاه بالنجس وجعله على الجرح، فلمّا رأى أنها امتنعت استلَّ عليها السيف الذي هو بإزائه، وجعل الكاغد المذكور على الجرح، وكان يقول في تخليطه للعذرة بالبول: خُرْؤُنا هو دواؤنا، إلا أنه بكلام العامة. ولما جعل الكاغد على الجرح أوصاها أن لا تنزعه. قال لي ولدُها: فلم تمكثْ إلا أياماً قلائل حتى بَرِئَتْ، وسقط الكاغد ولم يبق بها ألم ولا للجرح أثر.

وكانت له خلوة بالزاوية[3] التي دُفِن بها الجدُّ تحت الأسطوان المواجه للداخل لصحن الزاوية العلوي.

فإنْ قلتَ: هذا الذي ذكرتَه من حال هذا الرجل مخالفٌ للشرع وما خالف الشرعَ يجب التبري منه ومرتكبه هو إلى الجناية أقربُ من الولاية، فكيف يصحّ / اعتقاد الولاية فيه وخصوصاً ما جُبِل عليه من اللفظ القبيح واستعمال ما لا يحل ممّا

170 / 171 /

(1) الشخص الذي جَرتْ له القصة امرأة وليس رجلاً، كما سيذكر، وكان الأوضح أن يقول حينئذ: (مَنْ جرت لها. . .).
(2) أي هذا هو قاموس ألفاظه.
(3) عن هذه الزاوية أنظر ما سبق، وكذلك عن الجد المذكور.

يؤثر عنه قولاً وفعلاً؟ قلتُ: هذا الرجل ومَنْ كان على شاكلته يُعتذَر لهم بأنّهم بحالة وَجْدٍ لا يملكون أنفسَهم فيها، فلهم حكم المجانين في تلك الحالة بسقوط اعتبار أفعالهم وعدم جَرْيِ الأحكام عليهم إنْ تحقق وجود تلك الحالة منهم، إلا أنهم يلزمهم استدراك الفائت كالسكران لتسبُّبهم في الأصل، وينتفي جواز الاقتداء بهم، كما وقع للثَّوْرِيِّ[1] في تواجده حيث قام للسيف إيثاراً، وإلا كان إعانة على قتل نفسه، وكحالة أبي جَمْرة[2] في بقائه في البئر حتى خرج بمهلكه، وكحالة الشَّبْلي[3] في حلق لحيته وإلقائه المال في البحر عندما استشعر من نفسه البخلَ، إلى غير ذلك ممّا لا يوافق الشرع من ظواهر أعمالهم التي حملهم عليها غالبٌ كالوجد، فلهم فيها حكم المجانين، ومن ذلك الرقص ونحوه.

قال الزروق في كتاب (تأسيس القواعد والأصول) وبالجملة فلا عتب على معذورلم يقصد المخالفَة بوجه لا يمكنه غير ما فعل لعدم ضبط حركاته، وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ للمجنونة: «إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنّة أو دعوتُ / الله فشفاك»، فرضيت على أن لها الجنّة. قال الزروق فهذا خير من التعصب بالنكير وعكسه، وهو أقرب للحقّ إذ لا عصمة، والله أعلم. انتهى. فإن قلتَ: هلاّ تأوّلتَ عليه أنه من باب التستر، وأنه يعامل نفسه بتلك الصفات لكي يدفع عن نفسه الشهرة وحسنَ الثناء حتى لا يُعْرَف، وكثيراً ما يفعل الصالحون أموراً تكون سبب تغطيتهم عن عيون الخلق وسِتْراً لهم من تطاول الناس بالأحداق إليهم، وذلك لأن معرفة الناس تجرّ إلى ما لا ينبغي، إلاّ مَنْ حفظه الله.

/ 172

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم تسليماً أنه قال: «خُصّ بالبلاء مَنْ عرفه الناس». قلتُ: القاعدة المقرّرة أنه لا يباح ممنوع لدفع مكروه. فمن أجل هذا

---

(1) سفيان بن سعيد الثوري. من كبار المحدّثين. ولد ونشأ في الكوفة. وله (الجامع الكبير) و (الجامع الصغير) في الحديث. توفي سنة 161. أنظر الأعلام 158/3.

(2) الظاهر أن المقصود به محمد بن أحمد بن مالك ابن أبي جمرة الأندلسي. وقد تقلد القضاء ثم امتنع عنه فامتحن من أجل ذلك. توفي بمرسية سنة 599. الأعلام 6 / 213.

(3) يبدو أن المقصود به دلف بن جحدر، وهو من النساك بعد أن تولى الولاية والحجابة. ثم ترك ذلك واعتكف للعبادة. هناك اختلاف في اسمه ونسبه. وقد توفي سنة 334. الأعلام 3 / 20.

لا يجوز لأحد أن يُخْمِل[1] وصفَه بمحرم، متفق عليه. وأنت خبير بما نُقل عن الجلّيس من تلك المآثر قولاً وفعلاً هي من وادي المحرم لا من واد[2] المكروهات، وما تستّر مَنْ تستّرَ من الصالحين إلا بغير المحرمات المتفق عليها. نعم، في المختلف فيه مَنْدُوحة إن خفّ الخلاف فيه وتعذر التستّر بالمكروه بعد تعذر التستر بالمباح المستبشع.

/ 173 فإن قلت: قد قالوا إن مَنْ غصّ بلقمة لا يجد لها مساغاً إلّا جرعة / خمر إنه يسيغها بتلك الجرعة، فهذا هنا كالغاصّ، فاستعماله تلك المحرمات وإن كانتْ متفقاً عليها لضرورة طلب الخمول والتستر من الخلق لِما يَنْشأ عن المعرفة والظهور من المفاسد المهلكة، قلت: القياس غير صحيح، لأن الغاص إذا لم يسغ تلك اللقمة تفوت الحياة[3] التي ينتفي بها وجوده فيكون قد أعان على قتل نفسه وتعطيل حياته، وحفظُ النفوس من الواجبات، بخلاف هذا فإنما يفوته به الكمال لا غير، على أن مقصد القوم بذلك الفرارُ من نفوسهم لا التستر من الخلق، لأنّ التستر منهم تعظيم لهم، فعاد الأمر عوداً على بدئه، وليس من شأن الصوفي تعظيمُ الخلق بوجه ولا بحال. قاله الزروق في كتاب (تأسيس القواعد) وهو حسن، فافهم.

53 ـ [التعريف بالشيخ أحمد بن بوزيد، رحمه الله ونفع به آمين]

أحمد بن بوزيد وجماعة ريغة:

ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول: وأمّا الشيخ أحمد بن بوزيد فهو رجل ذو همة، وكان في الأصل متلصصاً فيما يقال. ويذكر أن سبب توبته أنه قدم ذات مرّة من جبل أوراس في معظم الثلوج والقر والأمطار، فوجد الشيخ الجليس برحبة البلد راكباً على حصانه أو غيره، فلما رآه واجهه وألزمه المشيَ معه واتّباعه، فلم يمكن أبو العباس أحمد بن بوزيد إلّا اتّباعه، فيقال إنه أتى إلى محل عظيم الثلج / كثيره / 174 فأضجعه فيه وغسله بالثلج غسلَ الميت أو نحوه حتى لم يبق منه محلاً، ثم لمّا فرغ

(1) من الخمول والتغطية الصوفية.

(2) كذا، كلمة وادي مرة بالياء ومرة بدونها.

(3) في الأصل (الحيات).

من ذلك قال له: قم الآن. فكان ذلك سبب رجوعه لله، وكأنّ ذلك الفعل منه له تطهيرٌ لدنس الأوصاف التي كان متصفاً بها.

ولأبي العباس أحمد بن بوزيد مآثر تُؤْثَر عنه تَتَبُّعُها يُخرج عن المقصود، وأكثرها بل جلّها إنما تُتلقى من أجلاف البوادي والنساء، لأن الغالب عليه البدو وسكناه في الحاضرة[1] قليل. وذَكر لي بعضُ أصحابنا عنه أنه أتى[2] به والده مع أخيه ووالدتهما من بلد نقاوس، كانوا بها فارّين في فتنة الترك الواقعة بالبلد[3] عام خمسة وسبعين وتسعمائة[4]، فلما أن كانوا بالطريق خرج عليهم متلصصة ريغة[5]، فسلبوهم فأخذوا جميع ما كان معهم فقدموا جبل أوراس الذي به سكنى ابن أبي زيد المذكور فاتصل خبرهم به فأتاهم وحملهم إليه، وبعد يوم أو يومين أو نحوهما قصد بوالد الحاكي الحكاية، المتلصصةَ بقصد رد ما أخذوا لهم فوصلوا إليهم وخاطبهم، فلم يلتفتوا لقوله وردوه كما جاءهم خائباً، فبقي في الخلوة التي له نحواً من سبعة أيام.

ثم إنه خرج منها[6] وحمل الرجل[7] وأولادَه وزوجَه قاصداً بهم إلى قسنطينة، فلما كان في أثناء الطريق ببيداء من الأرض أجرى / فَرَسَه مرّة وثانية إجراء مَنْ يحارب غيرَه وأسقط رداءه على منكبيه وعمامتُه سقطتْ على رقبته، وهو في أشد حال من العنا وهو إذ ذاك بحال جذب وَرَد عليه، ثم التفت إلى صاحبٍ له أتى[8] معه فقال له: إنّ فلاناً قُتِل وفلاناً قُتل وفلاناً ماتت فرسُه حتّى عدَّد جماعةً من القوم الذين ردوه خائباً ودخل الخلوة بسببهم. ثم إنه أتى بهم إلى البلدة. قال الحاكي وبقينا نحواً من سبعة أيام لا نسمع خبراً عن أولئك القوم، وبعده أتى الناس فتحدثوا بموت كل مَنْ

175 /

(1) يقصد بالحاضرة مدينة قسنطينة في أغلب الظن. وكلمة (البدو) قبلها تعني سكنى البادية.
(2) في الأصل (أتا). والمعنى أن صاحب المؤلف هو الذي خرج به والده من قسنطينة إلى نقاوس ثم رجع مع والده وأخيه وأمه إلى قسنطينة إلخ.
(3) هي الفتنة التي أشار إليها المؤلف في أول الكتاب عندما تحدث عن جده للأب عبد الكريم الفكون، أنظر ص 47.
(4) 975 / 1567.
(5) ريغة عرش موقعه غرب بلدية عين ولمان، ومنه بطن أولاد إبراهيم وهم قوم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ـ من إفادة الأستاذ علي أمقران السحنوني ـ.
(6) أي من الخلوة.
(7) هو والد صاحب المؤلف.
(8) في الأصل (أتا)، وكذلك ما بعدها.

قال وإهلاكهم، وذلك بسبب غزوة غزاها عليهم العباسي[1]، والله أعلم بحقيقة الأمر.

والغالب على هذا الرجل الجذب، وكان أمياً إنما يقرأ بعض شيء من القرآن أو كله، لا أدري حقيقته إلا ما أسمع عنه من أحواله فهي مرضية، ولي فيه محبّة لمجانبته البدعةَ فيما يُؤْثر من فعله، وله تلاميذ[2].

54 ـ [التعريف بسيدي سليمان المجدوب وسيدي محمد الزعلاني، رحمه الله آمين]

سليمان المجدوب ومحمد الزعلاني:

منهم رجل يقال له سليمان المجدوب أدركته في آخر عمره، رجل مسن معه نية وهو أمي أيضاً، وله عَقِبٌ كل منهم يدَّعي دعوته. ومن تلامذته أيضاً رجل يقال له محمد الزّعلاني أدركتُه وهو أمي في غاية الجهالة إلّا أنه معه تغفل ونية.

/ 176 ومفسدة هذين الرجلين / أكثر من نيتهما لاستعمالهما الحضرة ومخالطة النسوان وتصدّيهما لإعطاء العهد وقبول ما يأتيهم من أيدي اللصوص وتناول مال الظلمة ومستغرقي[3] الذمم. وأعظمها عندي مفسدة مخالطة النساء، واجتماعهم على الحضرة المعروفة فيما بينهم، وزئيرهم بها زئير الأسود، وقطعهم بها كلمات الكلمة العليا، وغير ذلك من تُرهاتهم ومناقصهم التي جاء الشرع بذمها والتنفير منها. وكثيراً ما يتعاطون أخذَ أموال المسلمين المسمى عندهم (بالوعدة) ولا يبالون من أي وجه أخذوه ولا من أي يد تناولوه، وقد تقدم الوارد عن سيد البشر ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ: «مَنْ لم يبال من أين مطعمه ومشربه لم يبال الله من أي أبواب جهنّم يدخله». أسألُ الله السلامة، والنجاة[4] من أهوال يوم القيامة، وأطلبُه جِوار مَنْ ظللته الغمامة، في الدنيا[5] وفي دار السلام والكرامة.

---

(1) لم يشرح المؤلف من هو (العباسي)؟ والغالب أنه لا يعني به شخصاً بعينه، ولكن واحداً ممن سماهم من قبل (العبابسة) ووصفهم بأنهم متلصصة أصحاب خيام ومنهم أمراء إلخ.

(2) في الأصل (تلامذ).

(3) في الأصل (مستغرقين) وقد ذكرها صحيحة بعد عدة سطور.

(4) في الأصل (النجات).

(5) عبارة (في الدنيا) مكررة بالأصل.

عودة إلى علي بن حمود:

ولنصرف الوجهة إلى صاحب الترجمة وهو علي بن حمود[1]، كان مع لين جانبه وتواضعه وإظهار الخشوع والتمسكنة والذلة والتباكي بين يدي الحضار، فيه خصالُ[2] مَنْ تقدم من استعمال الحضرة، بل هي رأس مالهـم وعليها يذبّون[3] وإليها يلجأون. وكان يتناول أموال مستغرقي الذمم من أولاد عيسى / وريغة وغيرهم ممن (يشن)[4] الغارات على المسلمين ويسفك دماء المؤمنين وينتهب[5] المال منهم، ومع ذلك يُظهِرون الورَعَ عن أكل أطعمتهم في بيوتهم، وقد قدّمنا طرفاً من ذلك في ترجمة غيره ممن تقدم. وحج آخر أمره، وتاب إلى الله من أخذ أموال من ذكرناه، ثم إنه رجع إلى فعله الأوّل، وكل ما قُرِّرَ في أصحابه فهو فيه إلّا ما تقدّم من وصف التواضع وما بعده، فهم غيره في ذلك لما فيهم من التَّجَبُّرِ والكِبْر، وهي خصلة ذميمة تقود صاحبها إلى الكفر والعياذ بالله.

/ 177

وتوفي أبو الحسن علي بن حمود في طاعون[6] سنة أحد وثلاثين وألف[7]، ودُفِن خارج البلد، منقطعاً عن مقابر أهل البلد، في الطريق المسلوك عليها لمحل العيدين الواقعة بمحل يقال له الملعب، كان الأجناد يلعبون به في الأعياد والولائم.

55 - [التعريف بالشيخ طراد، رحمه الله آمين]

الشيخ طراد نواحي عنابة وتونس:

ومن هذه الطائفة رجل يقال له طراد، وهو من ناحية بلد العناب فيما بينها وبين باجة، وهو على طريق تونس في مقربة من خمير والسبعة، وأصله لص من اللصوص، وكان كبير المتلصصة، ثم إنه زعم أنه تاب وإلى الله أناب، فصار من أهل الصفوة

---

(1) استطرد المؤلف كثيراً قبل أن يعود إلى الشيخ علي بن حمود الذي سبقت إليه الإشارة، انظر ص.

(2) في الأصل (خصال).

(3) في الأصل (يدبون).

(4) ما بين القوسين زائدة منا بدل كلمة (فشين) التي كانت بالأصل.

(5) في الأصل (ينتهبوا).

(6) في الأصل (طاعة).

(7) 1031 / 1621.

والولاية، وهو باعتبار ظاهر الشرع من أهل الطرد والجناية، والبعد عن الله والغواية، كان لصَّ الظاهر صار لصَّ الباطن / والظاهر، رُمْحه الظاهر لم يزل بيده للحرابة والفساد، وسبحته هي ما يذبح بها العباد، ويضلهم بها عن طريق الرشاد، ويقطعهم عن باب الملك الجواد، ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾، قد أفشى هذا الرجل بدعتَه وأشهر طريقته فلا ترى في تلك الناحية وما حوتْ وإليه انتهتْ إلا مُشيداً بذكره، ومعتكفاً على نهيه وأمره ﴿ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾.

178 /

ولهذا الرجل حروب ووقائع مع شطر قبيلته إذ لم تدخل تحت طاعته، ويشن الغارات عليها ويأخذ أموالهم[1] ويستحلها بأن يجعلها من متَموّلاته وسائر بضاعاته ويحسب بل يقطع أنه من أولياء الله، بلى يا عدوّ الله إنك من أعداء الله ! حاشى حضرة الملك الكبير أن يدخلها الحمير، وحاشى بساط العز والجلالة أن يطأه أولو[2] الجهالة والضلالة، ألا إنهم ملعبة الشيطان وضحكة له ولجميع ما له من الأعوان، وقبائحه المذمومة استفاضت، وترهاته عمّت وفاضت، فلقد حُكِي أنه يأخذ المحصنات ولا يبالي بعدة ذوات العِدَدِ[3]، وهذا أمر عظيم تجب محاربته ومقاتلته فضلاً / عن بغضه إلا أن يتوب.

179 /

ولقد حُكِي لي أنه يصعد على ربوة ويقول: من يتوب! من يتوب! من يأخذ العهد؟ ويتملح ويفتخر بأنه قطب الولاية وأنه بلغ من القرب والعناية، لا إلى غاية ولا إلى نهاية، ويجعل كلاماً من فكره حسبما كان منه قبل التوبة لأنه فصيح القوم على حسب فصاحتهم المألوفة في نسج الكلام الذي يُجْعَل عندهم في امتداح الكرام أو الغناء في الولائم، فصار ينسج على منواله ويجعله سلماً للدخول في حضرته بل للوقوع في حسرته، يوم انفراده بعمله وغربته، ويطرزه بالكلمة العليا[4]، وصار

(1) كذا، يخالف النص بين الضمائر: تارة بضمير القبيلة وتارة بضمير أهلها. والحديث في الواقع عن شطر منها فقط.

(2) في الأصل (أولوا).

(3) جمع عدة.

(4) أي اسم الجلالة.

الآخذون[1] عنه والشاربون منه ينقلونه ويجعلونه بالمحلّ الأعلى والمقام الأجلى[2] هو عندهم مفتاح باب الوصول، ونهاية بلوغ المأمول، وهل هو إلاّ فضول من رجل جهول مطرود مخذول، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ولقد انتَدَبَ له أهلَ بلد العنّاب، فصاروا كلهم من تلامذته أو جلهم، وخصوصاً رؤساءهم، حتى كادوا أن يقطعوا بعصمته، ولا أحد صاعد على مرتبه ومنصته، فأدخَلَ خطيبَ جامعِها[3] وفقيهَ[4] بلدها في حضرته فضلاً عمّن سواهم. وكان يقول: غرست عتقتين[5] ببلد العناب / عبد الكافي ومحمد ساسي، أولهما هو الذي عَنيتُ بالخطيب، والثاني هو الذي عنيت بالفقيه. وشاعت بدعته وظهرت في أفقه، وتوارثوها كابراً عن كابر، ولقنها ذكور الأكابر النساءَ والأصاغر. / 180

وعكف على أتباعه أجلاف البوادي، وامتلأ بأكاذيبهم حافتا الوادي، وأكثر من مآثره التي هي في طي الخرافات الحاضرُ والبادي، وكثر اهتمامي به، وخفت على المسلمين الهلاكَ ببدعته، وبقيت مدة متحيِّر البال، ذا شغب على عامة الأمة من استمالته إياهم إلى مهاوي الضلال، حتى أُريتُ في النوم عاقبة أمره، فرأيتُ كأن قمراً في تمامه في أفق السماء إلا أنه ليس خالص الضياء لا نور فيه يستضاء به، وهو في دارته كليلة تمامه مَشُوباً حمرة وسواداً وخضرة فالقَدْرُ والدارة دارة البدر ليلة التمام، والصفة في ضوئه مخالفة له إذ لا نور له ولا ضياء سوى ما ذكرناه من تخليط وسطه بما ذكرناه من آثار طرق الحمرة والسواد والخضرة، فبينما أنا وغيري أتراءى[6] له وهو صاعد في كبد السماء إلى أن سقط وتلاشى، فأنطقني الله أن قلت للجمع: قد ذهب عدو الله وسقطت بدعته[7]، أو كلاماً هذا معناه، نسيت لفظه الآن.

(1) في الأصل (الآخذين . . . والشاربين).
(2) في الأصل (الأجلا).
(3) جامع عنابة الذي يعنيه المؤلف هو المعروف بجامع سيدي بو مروان، والخطيب الذي يعنيه هو الشيخ عبد الكافي أنظر ما يأتي.
(4) سيذكر المؤلف أن هذا (الفقيه) هو محمد ساسي البوني.
(5) كذا (عتقتين) ولعل المقصود (عَذْقَتَين) أي نخلتين.
(6) في الأصل (أتراءا) أي ارنو.
(7) كثيراً ما فسر المؤلف آراء في الناس وحتى في نفسه عن طريق المنامات التي هي في ذاتها عنصر أساسي من عناصر التصوف عندئذ.

/ 181 وأُلْهِمتُ / أنه طراد المذكور، وأعلَمتُ الجمع به، فانتبهت وبي من السرور بقرب حسم مادة البدعة وقمع جانبها، وأخبرتُ بعضَ أصحابنا ممّن له فينا حب لله أن هَلاَكَ هذا الرجل عنَ قريب، فما كان إلاّ مدة حتى أهلكه الله، وخلّف ولده بعده، تولى رئاسته لكن لم يأت مثل أبيه ولا هو في المنزلة التي كانت له بين أولئك القوم[1]. واعتقاد الناس في ولده التلصصُ ومشيخةُ الرئاسة أكثر، وآل أمره إلى أن يخدم الأمراء ويعطيهم الجبايةَ والخراجَ على الإعانة على الفريق الآخر الذي هو عدوٌّ له ولأبيه قبله، ومن ظهرت حاله بهذه المثابة بَعُدَتْ[2] إذايته ومضرته لقلوب العباد، ولم يبق له إلا الضرر الظاهر، والله متولي السرائر.

56 ـ [أبو عبد الله محمد ساسي، رحمه الله آمين]

محمد ساسي البوني وحمَّام أهل الصفا:

وأما تلميذه أبو عبد الله محمد ساسي[3]، تصدى للإقراء بجامع جمعته، بَلَد بُونَة، وهو الشيخ الصالح سيدي بومروان[4]، وصار عندهم رئيس الباطن والظاهر وممن يَظنّ فيه أهلُ بلده وأجلاف باديتهم وناحية شيخه[5] المذكور، أنه وارث شيخه وخليفته. وصار يحمل الأركاب معه إلى زيارة قبر شيخه، وأبو محمد عبد الكافي[6] معين له ومؤازر، وكأنه بين يديه ميت بين يدي الغاسل.

/ 182 وترامى به الحال / أعني أبا عبد الله محمد ساسي، إلى أن ادعى مقام الأكابر

---

(1) لعله يقصد عالمي عنابة اللذين أشار إليهما.

(2) يريد المؤلف أن يقول: ما دام هذا الرجل قد ظهر عليه الاتصال بالأمراء والاستعانة بهم فقد انكشف حاله للناس فلم يعودوا يعتقدون فيه العقائد العمياء فتنتفي إذايته عن قلوبهم. واسم ولد الشيخ طراد هو أحمد زروق. انظر عنه (المؤنس)، ص 123.

(3) تناولنا حياة وعلاقات الشيخ محمد ساسي البوني وأسرته في كتبنا (تجارب في الأدب والرحلة)، 1984، و (تاريخ الجزائر الثقافي) الجزء الثاني، الطبعة الثانية، ص 64-69.

(4) هو أبو عبد الملك مروان بن علي البوني. من مؤلفاته شرح على الموطأ لمالك بن أنس. توفي ببونة (عنابة)، سنة 439 ـ من إفادة الشيخ التليلي.

(5) يعني به الشيخ طراد.

(6) هو الذي أشار إليه المؤلف من قبل بأنه كان خطيب الجامع المذكور. أما محمد ساسي فقد وصفه هناك بالفقيه.

من الأولياء، فيذكر في شعره الخان[1] والدنان، ويزعم أنه شرب من كأس الصفوة، وجلس على بساط القرب، وحصلت له ترقيات، وغير ذلك من قصائده التي تكاد الجبال أن تدكّ[2] لسماعها دكّاً، ولقد جاء شيئاً إداً، فلم يستحِ من المولى جلّ جلاله في دعواه الكاذبة وتُرّهاته الباطلة التي لا دليل يدل عليها ولا وازع ورع يكف عن محارم الله يهدي إليها، ولم يستحِ من العباد في قصائده التي تَمُجُّ سماعَها الآذانُ، ولا تصدر من أصاغر الولدان، لكن (إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت).

ومع هذا لا يقدر أحد أن يرد قوله ولا يعارض كلامه، بل هو مسموع القول عند الخاصّة والعامّة، وله يوم الختم[3] محفل من ذكور وإناث، وإنشاد أشعار بالجامع الأعظم، ورقص وغناء ما يقضي بعظيم جرأته وجرأة أهل ناديه وجمعه، ولولا حِلْم المولى لعاجلَهم بحجارة من السماء أو خسفت به الأرض إلى ما تحت البَهَموت، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

ومن أشنع ما حُكِيَ عنه أنه قال: كنت صاحبَ الخَضِر واليوم أنا سيده. قال هذا الكلام في جملة كلام غَنى[4] به. فانظر هذه الكلمة الشنيعة التي توجب هَدْر دمه، إذا قيل بنبوءة / الخَضِر، وإن رُوعِي جانب الخلاف في ولايته[5] لا أقل[6] من أدبه الشنيع. ولقد حُكي لي أنه يزعم في قصائده أنه عُرِجَ به إلى السماء وكُشِف له عن أحوال الملكوت، فهذا ـ والعياذ بالله ـ كفر صريح، (ومضاهاة لنبيه)[7] ﷺ. فانظر هذا القول واعتبر حال قائله، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً وظُلْمة الجهل والدعوى أضلته، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. 183 /

وممّا يؤثر عليه أنه جعل مستحمّاً بداره، ويقال إنه سماه بحمّام أهل الصفا.

---

(1) كذا (الخان)، ولعل المقصود (الحان) أي الخمر.

(2) في الأصل غير واضحة وكأنها (تكدن).

(3) لا ندري ما المقصود بتعبير المؤلف (يوم الختم) هل هو ختم البخاري على عادة أهل الجزائر عندئذ (وقد نعت محمد ساسي بأنه الفقيه)، أو ختم أذكار وأشعار صوفية، كما يقتضي السياق.

(4) في الأصل (غنّا).

(5) لعل المعنى يقتضي الخلاف (في نبوءته).

(6) المعنى (لا أقل من سوء أدبه الشنيع).

(7) العبارة ما بين القوسين مضافة لتصحيح في الهامش (علة ومضاهاة لنبيه) كتوضيح لكلمة غير واضحة في الأصل، تظهر كأنها (ومصالتا).

ويذكر أن أهل بلده جعلوا على أولادهم وظيفاً[1]، وذلك أنه من يوم الجمعة إلى الجمعة الأخرى، وأما جبايا البوادي له والوَعْدات من الصغيرة إلى الكبيرة، وزكوات أهل وطنه، وخصوصاً الأندلس الساكنين ببلده، فهي أعظم من أن تُعَد، على ما ذكره لي غيرُ واحد، وهو في عدم مبالاة[2] ما يدخل يده واكتنازه كحال من سبق من المدّعين.

علي خنجل المغربي وليالي الطرب الصوفي:

وحَكَى لي عنه غيرُ واحد أنه حضر ببلده وقَدِم عليه بِدْعِيٌّ يقال (له)[3] علي خنجل[4] من المغرب، من نواحي فاس أو مراكش. فزعم أنه شيخ المشائخ ومعه تلميذه قاصداً المشرق، جاء للبلد[5] ونزل عنده، وكان سفره في البحر، فاجتمع له أهل البلدة شريفهم ومشروفهم، وكيف لا ورئيسهم المعتقدون فيه القُطْبَانِية / 184 / والصلاح هَرَعَ إليه، فهل يسع أحداً أن يتخلف عليه؟ فذَكَر لي الحاكي أنه جُعِلَتْ له[6] ليالي من آلات وتصفيق وشطح وإنشاد، وما مثلهم إلاّ كنادي جماعة الشُّرْب في زَعْقاتهم وآلات طربهم ولهوهم الذي يجعلونه باباً لدخول الحضرة.

وحُكِي لي أنه حضره يوم الوداع، وقد خرج قاصداً ركوب السفينة بالبحر، فرفعه محمد ساسي على كتفيه، وخرج جميع أهل البلدة (وتزاحمت)[7] السطوح، واختلط النساء بالرجال، ومحمّد ساسي يغنّي[8] بإنشاده والجمع يرد عليه، وعلي خنجل[9] يزجل بزجوله، وكل يصفق ويشطح، ويصيح ومما عنده يطفح، وعين المولى ناظرة وحِلْمه يسع الخلائق. ولو عوجلوا بالعقوبة لكانوا أهلاً لها، لكن قد

---

(1) أي رسماً أو راتباً أسبوعياً. والكلمة في الأصل مكتوبة (وضيفاً).
(2) في الأصل (مبالات).
(3) ما بين القوسين زيادة منا.
(4) في الأصل كانت (جنجل) وصححت في الهامش (خنجل)، ولا نعرف ترجمة لهذا الرجل.
(5) أي عنابة.
(6) أي لعلي خنجل.
(7) في الأصل كأنها (وتراعمت) فغيرناها (وتزاحمت). وكلمة (السطوح) مكتوبة في الأصل (السطوع).
(8) في الأصل (يعني).
(9) في الأصل كتبت هكذا (جنجل) وكذلك ما بعدها.

انتقم الله من علي خنجل قريباً لما بلغ مصر، وافتضح وانكشف أمره وهُتِك ستره وقَلاَهُ الخلق ورموه بمقْلة البِعاد، وكان عاقبته خسراناً، ثم إنه مات غريقاً. ولا أدري عاقبة من بقي[1] إن لم يعاجل التوبة، ويسرع بالأوبة.

57 ـ [التعريف بعبد الملك السناني، رحمه الله، آمين]

عبد الملك السناني وثورة خالد بن نصر:

ومن المدّعين رجل يقال له عبد الملك السِّناني، كان من أجناد بلد قسنطينة وحشمها[2] فأُبْعِد بالمنزل عنها، وجَمَعَ عليه من أهل قرابته وانتصب للشيخوخة، وصار في ناحية شرقها[3]، وتحت كنف / باغيها وقائمها[4] المسمّى بخالد بن نصر، 185 / فصارت الأركاب تأتي إليه والوفودُ تفد عليه، وما منهم إلاّ من يحمل شاة أو بقرة أو غير ذلك من الأمتعة، ويجمع ذلك في خزانته، ويذكر للعامّة أنه ينفقه على الفقراء، والحضرة هي رأس ماله ورأس (مال)[5] أمثاله. ويُذْكَر لي أنه ما من بيت إلا وفيه حضرة وجَمْعٌ يجتمعون على مقتضى عوائدهم الفاسدة، وهو في بدعته ودعواه مثل إخوانه المدّعين، وأقرب ما لهذه الطائفة أنهم الدجالون الذين يتقدمون بين يدي الساعة حسبما ورد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يظهر دجالون كذابون» أو كما قال.

وله تلامذة وأجلاف من بواديهم سعاة[6] يسعون أقطارَ البلاد، يذكرون لمن يلقونه مآثر وكرامات له ولأمثاله من أصحابهم، ويستجلبون بها جمعَ الأموال وقلوب الأغنياء. ولهذا الرجل كغيره من دعوى الشيخوخة وإعطاء العهد لمن يأتيه، وربما يقصده لمحلّه، ما لغيره ممّن كان على شاكلته، ومع هذا فله أَنَفة وصولة وسوء خلق إلا مع القليل.

(1) كان محمد ساسي حياً سنة 1051.
(2) في الأصل (وجشمها).
(3) أي استوطن هذا الرجل الناحية الشرقية من قسنطينة.
(4) لم يذكر المؤلف بلداً معيناً لثورة خالد بن نصر، سوى أنه من ناحية شرق قسنطينة.
(5) ما بين القوسين زيادة منا.
(6) في الأصل (سعات).

58 ـ [التعريف بعلي العابد الشابي]

علي العابد الشابي:

ومنهم رجل يقال له علي العابد نشأ في الشابية[1] وله بهم نسبة، وأظهر أمره ما بين قسنطينة / وبلد العُنّاب عند قوم يقال لهم جندل من رعايا قسنطينة، وأشهر بدعةً عظيمة، وفَتَن كثيراً من العامّة والبوادي، ودخل بلدَ العناب، وأخذ على يديه جمع كثير، وصار بينه وبين محمد ساسي شحناء، وبين التلامذة لهما ما بين رئيسيهما وأشد، وأقبل الناس نحوه، ونسبوا إليه من بدعته أن فرسه الذي يسير عليه مأمور، ويقول لهم: أنا أتبع الفرس فإنها مأمورة، وجعلت المزائر لموضع فرسه[2]. وبَنى بقرب بلد العناب لذلك مزارةً، وصار الأجلاف يتبركون بذلك، وهذه من أعظم المفاسد، وضَاهَى[3] بواقِعِه ناقةَ سيد الأولين والآخرين في قوله عند حلوله المدينة: (دعوها إنها مأمورة).

186 /

فانظر إلى قول هذا الرجل الذي كاد يقارب[4] الكفر أو هو بعينه إن اعتقده، وأي زندقة أعظم من هذه وأقبلت إليه البوادي من كل فج، وكَبُر أمره وانتشر صيته، حتى إنه ربما كاد أن يطفىء صيتَ أحمد بو عكاز[5] بمغرب المدينة[6] وصيتَ محمد ساسي ببلد العناب، ويدّعِي الدعاوى الفاسدة، وهو في غاية الجهالة، أميٌّ لا يقرأ، وجلمود صخر لا يفهم، حتى قصمه الله ولم تطل مدتُه، ولو أراد الله إضلال الخلق / الذي هو معهم لأطال مدته بينهم، لكن من رحمته عاجله بالعقوبة، وادّعى فيه أهله

187 /

---

(1) الشابية طريقة صوفية وسياسية ظهرت في القرن العاشر. ومن زعمائها الشيخ عرفة بن نعمون الشابي. وهو الذي خرج عن طاعة الحفصيين في سوسة والقيروان. وقد انتشرت في الشرق الجزائري أيضاً. ويظهر من تعبير المؤلف (وله بهم نسبة) أن علي العابد لم يكن من الشابية في الأصل.

(2) انتشرت هذه الفكرة حتى بلغت بلدتنا قمار، وما زلت أذكر أننا في الطفولة كان الناس ينعتون لنا حُفَراً في الأرض على أنها مواضع أقدام فرس الشابي، وهم يتبركون بها ويحافظون عليها.

(3) في الأصل (وضاها) أي شبه.

(4) في الأصل (يقاوم).

(5) سبق ذكره، أنظر ص.

(6) أي قسنطينة.

وأتباعه أنه الفاطميُّ[1] أو وزيرُه أو نحو ذلك من خُرافاته وترهاته[2]، وبعد مماته يكذبون كذبات ويتقولون تقولات لا يليق ذكرها، عافانا الله ممّا ابتلاهم، وهو على طريقة إخوانه المتقدمي[3] الذكر في جمْع حُطام الدنيا من حلّه وغير حله واستعمال الحضرة وإعطاء العهد وإدعاء أنّ الآثار بإرادته والكون على شهوته، فما أطمس بصائر هؤلاء القوم وما أغبى[4] أفكارهم! لكن من يضلل الله فما له من هاد.

ولما مات حُمِل بعد دفنه إلى بلد العنّاب، وكان له مشهد عظيم بها، ودفن بجامع يقال لصاحبه سيدي علي يسلخ، وأقبلت عليه الوعائد والعطايا، وكاد أن يكون قبره وثَناً يُعْبد، ولم يبق عليه في غالب الأمر من أهل البلد رجالاً ونساء إلّا من هو منتمي إلى رئيسها[5] المذكور لما بينهما من المنافسة في حال الحياة[6]، والله أعلم بما يقال، ولا حول ولا قوة إلّا بالله. وخلفه بعد موته ابنُ عمّه في تلك الطريقة الفاسدة والتجارة الكاسدة، فاتبع آثاره وآثار غُبارِه، إلّا أنه أقل صيتاً وأضعف في الجَمْع نِحيتاً، هذا مبدأه وانظر ما / يصير إليه منتهاه. 188

59 ـ [التعريف بسي أحمد بن سليمان المجدوب]

أحمد بن سليمان المجدوب:

ومنهم رجل يقال له أحمد بن سليمان، وهو ولد سليمان الملقب بينهم بالمجدوب، وهو المذكور في تلامذة أبي العباس أحمد بن بوزيد[7]، نشأ هذا الرجل، أعني أحمد المذكور، في البدعة وتذرع منها بأقوال واهية وأباطيل كاذبة بعد أن صادته يدُ الزمان، ورماه الدهر بمنجنيق الفاقة والقلة، فتعاطى تلك البدعةَ لأنها

---

(1) قد يفهم من هذه النسبة أنه كان شريفاً من نسل فاطمة الزهراء، أو أنه اختفى ولم يمت كما يدعي الفاطميون لأيمتهم.

(2) في الأصل (تراهته).

(3) في الأصل (المتقدمين).

(4) في الأصل (أغبا).

(5) يبدو أن معنى هذه الجملة: أن كل أهل عنابة كانوا مع الشابي وكادوا يعبدون قبره إلا أنصار محمد ساسي الذي كان ينافسه أثناء الحياة. وإن كان تعبير المؤلف هنا غامضاً نوعاً ما.

(6) في الأصل (الحيات).

(7) أنظر عنهما معاً، ص.

جالبة للدنيا ومثيرة لرياح الإقْبال على أهلها من جهلة العامّة وغوغاء الناس وقبائل البوادي والأعراب، فبتلك الصفة يرتفعون، وإليها عند الحاجة يلجأون، فما أسهل الولاية التي هي، والعياذ بالله، جناية وأي جناية عند هؤلاء القوم! وما هي إلا اجتماع أجلاف وأخلاط من نساء ورجال، واستعمال الحضرة وشطح ومصارعة وكذبات في نوم أو يقظة، فلا تمرّ الجمعة إلا وصاحب هذا الفعل قد رمقْته العيون، وتوسمت فيه الظنون، وارتفع إلى رتبة الفنون، فإذا هي جنون وأي جنون! ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾[1].

/ 189 وفي هذا الرجل من الأوصاف المتقدمة فيمن ذكرناه من أهل طريقته / ما فيهم. وقد اتفق لي معه يوماً أن اجتمع بي في ثالث يوم النحر وأنا أعظه وأنهاه عن تلك الطريقة، وأبَيِّنُ له عُوَارها، وأوضح له ما فيها من المعايب والقبائح، وهو يتلكأ[2] ويناضل[3] تكلمات[4] تشمئز[5] منها النفوس، أن انْجَرَّ الأمر إلى أن أخبرني أنه في هذا اليومِ صائم، فقلت: يا لله وللعجب! الوليُّ يجهل تحريم صيام هذا اليوم؟ فقلت له مبادراً: أفطر فإن هذا يوم حرّم الله صيامه، فأراد أن يفصح ويتدارك فاستعجم وافتضح[6] فقال: إن هذا يوم رابع، قال اخْبَرَني سيدي فلان أن هلال الشهر رأوه بكذا مما يجعل ذلك اليومَ الرابع، فقلت له: واليوم الرابع لا يصومه متطوع ويصومه مَن نَذَره أو من كان في صيام متتابع قبل ذلك. فافتضح أمره وألزمته الفِطْر، فأفطر بين يدي.

عودة أخرى إلى علي بن حمود:

ومثل هذه الواقعة جرتْ لي مع أبي الحسن علي بن حمود المتقدم، إلاّ أنه أتاني صبيحة يوم النحر، فأمرتُ أن يُؤْتَى بطعام من الدار ليأكله مع مَنْ حضر، فتعلل لي بأنه صائم في هذا اليوم، فقلت في نفسي: عذرٌ أقبح من ذنب، فأنكرت عليه

---

(1) سورة (المجادلة)، الآية (19).
(2) في الأصل (يتلكى).
(3) في الأصل (يناظل).
(4) كذا، ولعلها بكلمات.
(5) في الأصل (تشمأز).
(6) في الأصل (افتصح).

وزجرته عن فعله فاستحيا وخجل، وحق له ذلك، وأفطر وأمرته بالتوبة / والإقلاع، 190 /
وأن لا يعود إلى مثل ذلك وأعلمته بتحريم صيامه.

فانظر ـ رحمك الله ـ جهلَ هذه الطائفة لما عُلِمَ مِن الدين ضرورةً أو قارب ذلك، وهل يصح في ذهن موفق ومن أصلح الله بصيرته أن يعتقد في هؤلاء أن يكونوا من أهل الولاية وأن لهم عند الله العناية؟ والآيُ مصرِّحة والسنّة موضحة أن طريقتهم خارجة عن قانون الشرع ونكباء[1] عن منهجه القويم.

عن محمد بن الحاج صاحب المدخل:

ولله در سيدي محمد بن الحاج[2] في مدخله حيث قال: العجب ممّن يدعي المشيخة منهم والهداية لطريق القوم، كيف يعطي الإجازات للفقراء من تحت يده والمشيخةَ، ولو سألته عن فرائض الوضوء أو سُنَنِه أو فضائله وكذلك في الغسل أو في التيمم أو في الصلاة، جهلَ ذلك غالباً. وقد قال بعض العلماء: إذا صلّى المكلف وهو لا يعرف المفروض من المسنون وأتى بالصلاة فلا تصح صلاته وإن أتى بذلك، وكذلك لو سألته عن مفْسدة الصلاة لما علمها، وكذلك لو سألته عن السهو إذا طرأ عليه في صلاته ما حكمه ما علمه، فإذا كان هذا حاله في أمر وضوئه وصلاته اللذين بهما قِوام دينه وصلاحه فما بالك بغيرهما؟ قال: وقد / تقدم أن من لم يأْتَمِنه الله 191 / عزّ وجلّ على أدب من آداب الشريعة فبعيد أن يُؤْتمن[3] على سر من أسرار الله تعالى. قال: فإذا كان هذا حال الشيخ في جهله بمبادىء أمر دينه فكيف بمن يصحبه؟ فكيف بمن يُجيزُه؟ ثم قال: والعجب من ادعائهم المشيخةَ وهم لا يعرفون مباديء أمر دينهم كما تقدم، فكيف بالانتماء إلى المشيخة؟

وقد قال أهل التحقيق من أهل الطريق: إنّ الفقير لا يكون فقيراً حتى يكون قلبه كأنه في كفه، يعني من قوة معاينته له ونظره إليه فتعرف الزيادة فيه من النقص بديهة. هذا حال الفقير المنفرد بنفسه دون أن يصل إلى حال اقتداء الغير به. وأما الشيخ

---

(1) أي منحرفة عنه. ولعل الأولى التعبير بـ (ناكبة) بدل (نكباء).

(2) صاحب كتاب المدخل في 4 أجزاء، طـ 2، بيروت، دار الفكر العربي، 1972. والمؤلف هو محمد بن محمد المعروف بابن الحاج العبدري الفاسي، توفي سنة 737، عن 80 سنة. ـ من إفادة الشيخ التليلي ـ.

(3) في الأصل (يأتمن).

فلا بد له من زيادة على ذلك، وهو أن تكون قلوب أصحابه كلها في كفه وكذلك أحوالهم في تصرفاتهم وخواطرهم، فيعلم ما يزيد فيها وما ينقص منها فيربّيهم على ما يتحقق من حال كل واحد، ويُنْبئهم على ذلك من حيث لا يشعر أحد من جلسائه بل الشخص نفسه قد لا يشعر بذلك في بعض الأحيان، ثم قال: فإن كان الشيخ عاجزاً عن هذه المرتبة، أعني أنه لا يعرف ما زاد في حال أصحابه وما نقص في غيبته، فلا يدعي المشيخة والهداية، بل إخوان مجتمعون يتذاكرون في / مسائل الدين ومناقب أهل الأحوال السنية، فلعلّ بركة ذلك وبركة اجتماعهم تعود عليهم دون أن يدّعي أحد منهم حالاً أو مقالاً. هذا حال القوم مع وجود الإخلاص منهم والصدق والتصديق والركون إلى مولاهم في دقّ الأمور وجِلّهَا[1] والتزام الوقوف ببابه، ومع هذه المقامات العلية والأحوال السنية لا يدّعون لأنفسهم حالاً ولا مقالاً، بل يقول أكثرهم إلى الآن: ما أحسن أن أتوب! قال قائلهم[2] في ذلك:

192 /

يظنّون بي خيراً وما بِيَ من خير	ولكنني عبدٌ ظلومٌ كما تَـدْري
سترتُ عيوبي كلَّهم عن عيونهم	وألبستني ثوباً جميلاً من الستر
فصاروا يحبوني ولست أنا الذي	أحبّي ولكن شبَّهوني بِـالْغَيْـرِ
فلا تفضحني في القيامة بينهم	ولا تخزني يا ربِ في موقف الحشر

60 - [التعريف بمحمد البلدي]

محمد البلدي والدخول على النساء:

ومنهم رجل يقال له محمد البلدي، كان هذا الرجل في ابتدائه يطلب قراءة القرآن، وكان له اجتماع معنا بالمكتب يأتي بلوحة إلى المعلم ليصحّحه عليه، أعرف لوحه إذ ذاك في الصافات، وكانت له والدة وهو معها عاق، وبلغني أنه ضربها وجرحها بالسكين، وبعد مدة صار كأنه لا عقل له ولا ميز، وربّما اعترته وسوسة أو جنون يحمله

---

(1) أي ما دق من الأمور وما جلّ منها.

(2) لم يذكر محمد بن الحاج، صاحب كتاب المدخل، اسم قائل هذه الأبيات. والبيت الثالث منها يقرأ هنا هكذا:

(فصاروا يحبوني ولست أنا الذي أحبّوا ولكن شبّهوني بالغير)

أنظر المدخل لابن الحاج، طـ. بيروت 1972، ج 3 / 212. (من إفادة الشيخ التليلي).

على استعمال المياه والإكثار من صبها على بدنه وثيابه، وكان للناس به اعتقاد / 193 / وحسن ظن.

ولمّا اشتهر أمره صار الناس يُدخلونه دورَهم لا يحجبون منه نساءهم، وممّن فعل ذلك الوالد ـ غفر الله له ـ وأنا لا أرضى ذلك، وفي قلبي من ذلك ما يعلمه الله، وكنت أحجب منه الزوجة ولا أبيح له النظر، وهذه هي الطريق المستقيم والخير كله في الاتّباع[1]. وهذا الرجل يفطر في رمضان ولا يصومه بل ولا يصلي، وإذا قيل له صم يا فلان، يقول: وأين الصوم؟ وأين شروطه؟ فيتخذ ذلك الناس والجهلة قسطاساً[2] وحكمةً نطق بها، ولم يعلموا أن مرتكب ذلك بعيد من الحضرة الإلهية وخارجٌ من دائرة أهل الولاية والقرب، ما تقرب إلى الله متقرب بمثل أدائه فرائضه. فإن زعموا أنه من أهل الجذب وأنه غير مخاطب، فيقال لهم ما تعنون بالجذب: أجذب أهل الولاية أم جذب من سُلِب العقل والدراية؟ أمّا الأول فهو مقام عال ومرتبة رفيعة يتحاشى صاحبها عن ترك المندوبات فضلاً عن الواجبات والوقوع في المحرمات، وكيف لا وقد جذبته من أوصاف النفس يد العناية وطهرته من أدناسها، وأبعدته من أيناسها وإحساسها؟.

وقد اختلف في السالك المجذوب والمجذوب السالك / أيهما يُقَدَّم على / 194 / الآخر في استحقاق الشيخوخة؟ فقال ابن عبّاد في رسائله الكبرى[3]: الذي يظهر لي صحة ما قاله السهروردي ـ رحمه الله تعالى ـ لأن المجذوب السالك أرجح تربية من السالك المجذوب، فيصل به المريد في أقرب مدة، لأن سلوكه كان على بينة وبعد تقدم مشاهدة اهـ. فإذا كان مَنْ فيه صفة الجذب بالمعنى المذكور أقربَ للتربية وأرجحَ لمرتبة المشيخة، فكيف يعتقد فيه ارتكاب المحرمات وترك الواجبات؟ وهل معتقد هذا إلّا أعمى البصيرة وخبيث السريرة يُدْخِل في حضرة أولياء الله تعالى جماعةَ العاصين ويحكم على جانب الربوبية بأنهم عنده من المقربين. فما أشنعها من مصيبة

(1) بتشديد التاء.
(2) لقد أضيف حرف الطاء فيما بعد، بحيث كانت الكلمة هكذا: (قساساً).
(3) سبقت إليه الإشارة، أنظر ص.

في الدين، وما أعظمها بين العالمين! وقد قال تعالى في قريب من هذا: ﴿ ستُكْتَب شهادتهم ويسألون ﴾[1].

وأما الثاني وهو سلب العقل والدراية فلا يصح في عقل عاقل أن يدّعي الولاية فيمن سُلِب عقلُه وصار بمثل البهيمة لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وقد قال تعالى فيمن سُلب التوفيق، وحاد عن سواء الطريق: ﴿ إنْ همْ إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾[2]. وقد عُلِم أن العقل جعله الله تعالى مناطَ التكليف وأنه لا يُسْكِنُه إلاّ من أحب، وقد امتنّ به على الإنسان / فكيف يكون أصلُ صفوته ووده مسلوباً منه. فانظر إلى سخافة عقول هؤلاء وقلة تمييزهم في نسبتهم مَنْ كان كالأنعام أو أضل وكالخَشاش، أولياء مقربون. وقد أخبر الله تعالى ﴿ إن شرَّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾[3]. فهل ترى من أخبر الله عنهم بصفة الشرّ أن يكونوا أهلَ الحضرة والحظوة[4]؟ وهل معتقد هذا إلا جاهل غبي أو معاند شقي؟ عافانا الله ممّا ابتلاهم وعافانا ممّا به أدهاهم.

195 /

ولما مات هذا الرجل كان له مشهد عظيم بين أهل البلدة شريفهم ومشروفهم، واختلطت النساء مع الرجال فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الشيخ مخلوف ذو التركة العظيمة:

ومنهم رجل يقال له مخلوف وكان في ابتدائه ينتسب إلى الطلب ويقري الصغار القرآن، وقرأ علي مراراً النحو، وحضر لمجلسي في إقرائه وإقراء غيره كثيراً، وكان يحضر مجلس الشيخ التواتي ـ رحمه الله ـ، ثم إنه اتصف بصفة من ذكرناه، فكان يأخذ الوعدة ويهوم على الأسواق ويجعل له من يحمل معه ما يتقاضاه (والوعدة)[5] من الجزارين وبيّاع الفواكه وغيرهم من الباعة، ويمر على الرجل أو الجماعة فيقول لهم: أنا معكم وأنا هنيتكم. واشتهرت / بدعته في البلد ونواحيه كثيراً

196 /

(1) سورة (الزخرف) الآية (19).
(2) سورة (الفرقان) الآية (44).
(3) سورة (الأنفال)، الآية (22).
(4) في الأصل (الحضوة).
(5) تبدو هذه الكلمة (والوعدة) زائدة في النص، ومع ذلك تركناها على حالها.

فلا تسمع إلاّ ذِكْرَه، قَسَماً به أو نداء بجاهه، ويأتيه أهل البوادي بالوعائد، كل على قدره من الخروف إلى الكبش ومن الدراهم إلى الريال ومن القمح إلى السمن، وأمّا أهل أسواق البلد فلا تسأل! قد شاركوه فيما أفادوه، وترى كل واحد يجعل له فيما يبيعه نصيباً، ويأتيه نساء المسلمين فواحدة يكتب لها، وواحدة يدعو لها، وجعل تلامذة نساء ورجالاً، ويحمله الناس إلى ديارهم فيعطونه ما أراد، ويتبركون بآثاره، وهو من الدعوى على صفة مَنْ ذكر إلا أنه (لا)[1] يخفيها فيما بين جهلة الناس وغوغائهم، وأما مع أهل الطلب والعلم فلا يذكرها فتراه أروغ من ثعلب.

نَصَبَ للدنيا وحطامِها شباكَ[2] الحيل، ولا يبالي بما يدخله منها ولا من أي وجه له حصل، فجمع بسبب ذلك أموالاً عظاماً، ومع هذا كثير الشحاتة[3] والطلب والتسول، في قالب التطفل والتقلل. ولما مات وُجِدَتْ عنده أموال مختلفة السِّكَكِ، فأوصى منها للطلبة ببعض وورِثَه دارُ الإمارة، ويقال إن ماله أكثر ممّا ظهر، واتهمت زوجه بإخفائه وغيرِها[4]، وتقول الناس فيه / بعد موته لِمَا ظهر من عَنَاه[5] وكثرة تسوله في حياته وحرصه على جمع الدنيا: ويا ليته تخلص من زكاته إن لو كان حلالاً له وطيباً كسبه. وانطلقت الألسنُ فيه، فكل على منهج يرى[6] فيه رأيه، فبعضهم يقول إنّ المال أصله ودائع مات أصحابها ومسكها، وبعضهم يقول إنه من جَمْعه لما ذكر من الحطام، لكنه أكثر (ببادي)[7] الرأي من أن يتفق جمعه ممّا ذكر مع اختلاف سِكَكِه وتعدد أمراء ضربه، والله أعلم بحقيقة أمره. / 197

وفيه من أوصاف مَنْ ذكرناه إلاّ الحضرة فإني الآن لا أدخل تحت عهدتها، فلا أدري أكان ممّن يصنعها أم لا؟ فلم أثق بذلك. وأمّا الدّعوى وادّعاءُ المشيخة وإعطاء العهد واستعمال التلامذة ومخالطة النسوان وجمع الدنيا من حلّها ومن غير حلّها وغير

---

(1) ما بين القوسين زيادة منا، لأن المعنى يقتضي ذلك.
(2) في الأصل (سباك).
(3) في الأصل (السحاتة).
(4) المعنى: واتهم غيرها أيضاً بإخفائه.
(5) كلمة تعني الأملاك والأموال.
(6) في الأصل (يرا).
(7) كلمة غير واضحة في الأصل فنقلناها كما بَدَتْ لنا دون التوصل إلى معناها.

ذلك من أوصاف أصحابه المذكورين، فهو معهم في ذلك شريك، وهم في ذلك أسوة. والله ولي التوفيق.

61 - [التعريف بعبد الله بوكلب]

عبد الله بوكلب وتعلّقه بامرأة:

ومنهم رجل يقال له عبد الله بوكلب، لُقِّبَ بذلك لكلبٍ كان يتبعه ويألَفُه، وكان في ابتدائه يألف البراري ومعه انقباض، وربّما يضرب الناس بعصاً[1] بيده دائماً، ويفر الناس منه، وكان الجهلة يعتقدون فيه أنه صاحب الوقت وأنه صاحب / 198 / البلد وأن الأولياء أرسلوه إليه، إلى غير ذلك من تُرَّهات المبطلين ودعاوى الكاذبين، فاشتهر أمره بين الناس ويقصده النساءُ أكثر من الرجال، ويأوي إلى بيت من أحبّ، ويرى صاحبُ البيتِ أن إتيانه من النِّعم الضافية[2] عليه، فما زال على ذلك مدة من السنين. وكل من يقف عليه، مِنْ بايع أو فكّاه أو قَصَّاب أو تَمَّار أو غيرِهم، يضع يده على ما يشتهي ويرفعه له من غير ابتياع ولا هبة ولا عطية، ويأوي به إلى ما أراد من المساكن ويطبخه ويأكله، وهو عليه كالفهد أو الأسد، ومن أراد مِنْ أرباب السعي[3] معارضته أو دفعه يضربه ضرباً عنيفاً، وربّما أدى إلى جراحاته أو هشم عظامه، ولا يبالي عبادَ اللَّهِ بما يضربهم وفي أي مكان يضربهم.

وأما استعماله لأداء الفَرْض فلا تراه[4] أبداً مصلياً ولا متوضياً ولا يفرق بين معروف ومنكر، كل ذلك عنده في باب واحد إلا ما يهجم عليه من أموال المسلمين، فينتهبه لهم ولا يبالي فقيراً كان أو غنياً يتيماً كان أو لا، أترى هذا يُعَدُّ من الأولياء ويُقاس بما يُقاس به أهلُ الله وخاصتُه من الأصفياء وقد مزج دمَه ولحمَه بغُصوبات المسلمين ولوّث نفسه بأوزار العدا[5] عليهم واستئصال أموالهم؟ وهَبْ / 199 / أن البعض يرى ذلك مِنّة ونعمة فالمحتاج لما رفعه له ما يفعل معه فيه بين يدي الله؟ ولو لم يكن

---

(1) في الأصل (بعصى).
(2) في الأصل (الظافية).
(3) كذا (السعي) ولعلها (السلع) أولى.
(4) كانت (تراهم) وصححت (تراه).
(5) كذا (العدا) وهي (الاعتداء).

فيه إلا منقضة[1] إخْلاق الوجه وبذلِه للناس لكان كافياً، ومنصب الولاية يُنَزَّه عن ذلك، وكيف وهو مجانب للفرائض التي افترضها الله تعالى عليه، فإن زعموا أنه لا عقل له، قلنا هو أبعد عن جانب الولاية إذ لا وازع عنده يهديه لبساط أهل العناية، وقد تقدم الكلام على مثله.

وقد فضحته شواهد الامتحان أن تعلّق بامرأة وتعلقتْ به، وكان يحميها حمايةَ الفحل في حال هيجانه، ويخلو[2] بها ليلاً ونهاراً، وحين تُسْأَل المرأة فتذكر أشياءَ ما يوجب الحدَّ عليها شرعاً[3] وعليه لو أقرّ به، وتقول: إن الأولياء أعطوني له أو أذِنوا له أو نحو هذا من تُرَّهات أهل البدع، إلى أن ظهر بها حَمْل، وهو عليها مسترسل كذلك في الخلوة بها والمبيت معها، وهي تلهج بنسبته إليه ونسبة ما يوجب الحدّ الشرعي كما ذكر، وفشا[4] أمـره وظهره[5]، فسقط من عند قوم هداهم الله للصواب، ولم يزل آخرون على اعتقادهم قائلين: إن الأولياء أمروه أو أعطوه المرأة. فانظر إلى هذا الخطر العظيم، والأمر / الفادح الجسيم، في نسبته أولياء الله وأهل صفوته إلى القبائح والخبائث. تكاد العقوبةُ تعاجل لولا أنّ الله حليم يؤخر الجميع ليوم تضيق فيه المسالك. ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[6].

200 /

62 ـ [التعريف بأبي مدين]

أبو مدين:

ومنهم رجل يقال له أبو مدين، كان والده سقاء، يبيع الماء من الوادي لأهل البلد على عادة السقائين، وهو مع والده تارة يصعد معه ويهبط للوادي ومرة وحده، وكان كثرة إذايته للخلق بأظفاره ينْهَشُهم ويخْدشهم بها وهو مصاب بالجنون، والعياذ بالله، لا يفقه معروفاً ولا ينكر منكراً ولا يحدّث أحداً إلاّ مَن يقرب منه أو يناديه، يضربه أو يخدشه كما ذكر، وهذا حاله في البداءة لا يُعرف إلا بِداء الجنون، ويطرد

(1) كذا (منقضة) والمعنى (مفسدة).
(2) في الأصل (يخلوا).
(3) في الأصل (شرعي).
(4) في الأصل (فشى).
(5) كذا (ظهره)، ولا ندري المقصود منها بالضبط.
(6) سورة (فصلت)، الآية (46).

الناس وتفر منه الأصاغر والأكابر خوفاً من ضربه أو رميه بالحجارة. فلما شبّ وَسَمَهُ أهلُه وأقاربه بأنه من الصالحين، فخرج عليه هذا الوصف، فصار أبوه وأهله يظهرونه للناس طمعاً في جلب الدنيا من أجله. ولمّا مات دُفن خارج قسنطينة بمحل يقال له آكدال، وبنوا عليه مسجداً ويقال له جامع سيدي مدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

63 - [التعريف ببلقاسم الحيدوسي]

بلقاسم الحيدوسي ودخول البيوت:

ومنهم رجل يقال له بلقاسم الحيدوسي، اشتهر بعد موت مخلوف المذكور، وأراد / الجَرْي على طريقه واتّباع سننه، فَمَسَك مِنْ عُراه ببعض وتفلّت منه بعض، فتراه يهوم بين الطرقات ويتخلل الجماعات ويترصد لما ينال في الأسواق. وولع به النساء وصار يدخل الدور، ويجتمع بنساء المسلمين غيباً وحضور[1]، وهي بلية ما أفظعها[2]، ومصيبةً في حق الزائر والمزور ما أشنعها[3]، ويتكلم بكلام سخيف لا يُرْضَى، وهَجْرِ قول لا ينال به من المولى الرِّضَى، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون على عقول سخيفة تتوسم في مثل هؤلاء الولاية، وتنسبهم إلى أهل[4] العناية. وهذا الرجل أجهل من جاهل وأغبى من غبي، لا يفرق بين الخالق والمخلوق، ولا يميز بين الرازق والمرزوق، ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾. وقد استفاض عليه تركُ الصلاة فلا تراه أبداً مصلياً ولا داخل مسجد، فاستبدل من ذلك دخول الديار، وتعوَّض من الجماعات جماعاتِ النساء كباراً وصغاراً.

/ 201

وقد يهجس في النفس أنّ ذكر هؤلاء في الأوراق والاعتناء بهم في الكتب تنويه بذكرهم وترفيع لقدرهم، وإهمالُهم أولى، وعدم التعرض لذكرهم أحق وأجلى، إلّا أن النصح العام هو المُلْجِىء لذكرهم والغيرةَ على حِمَى الله ورسوله / وبساط أوليائه وأصفيائه أن يدعي جلوس مثل هؤلاء عليه، هو الموجب للتعرض لهم، ولي في هذا[5] سَلَفٌ من خير سلف، لقد أوضحتْ علماءُ الدين وأئمةُ المسلمين نقلةُ حديث

/ 202

(1) صحيحها (حضوراً)، ولكن المؤلف أسقط الألف للسجع.
(2) في الأصل (افضعها).
(3) في الأصل (أسنعها).
(4) كلمة (أهل) مضافة في الهامش.
(5) يقصد المؤلف أن له سلفاً في نصح المسلمين، وهم علماء الدين وأيمة الحديث إلخ.

سيد المرسلين، وكشفوا عن رُواته وبينوا من يصح للنقل عنه ومن لا يصح[1]. . .

* * *

المؤلف يصف مبتدعة زمانه:

. . . / لا يقدرون[2] على إنكاره وإن أنكروه فقد باهتوا، إلا أن يتوبوا، ولو لم يكن من استعمالهم الجوارح في المعاصي إلا استعمالهم الحضرة وصراخهم وزعيقهم وتغييرهم اسم الله تعالى، لكان كافياً. أحْرَى ما يُعْهَد منهم مِنْ غير ذلك قولاً وفعلاً ممّا لا يتمارى فيه اثنان. / 207

وأما تصنّعهم في طاعة الله تعالى فلا يكاد يخفى على أحد، فتراهم يُظهرون التنسكَ في عبادتهم والإخفاء في أصواتهم في الملأ والجلا، ويتزينون بأمثال وحكايات يتعاهدونها بينهم إعانةً على مرغوبهم، فإذا صادفهم المبيت عند أحد يضعون طعامَ الشعير أو الخبز الكسير ويُظهرون أن ذلك أكلُهم، وأنهم من الزهد والصوم والصلاة بمكان، وربما دخلوا في الصلاة أو الحضرة عند رؤية الناس حتى يشار إليهم بالأصابع وتتعلق النفوس بهم ويرونهم أنهم أصحاب جد واجتهاد وعبادة بليغة، فإذا ما خَلَوا صَبُوا أو قصَّروا عن بعض ما رِيءَ منهم أو جله.

وأما الطمع في خلق[3] فهو كُندرتهم[4] التي عليها يبيتون، ومأواهم الذي إليه يأوون، وكل ما أظهروه من حالهم وأيدوه من أقوالهم وأفعالهم إنما هو حُبالات وفُخوخ ينصبون بها إلى جمْع الدنيا والتملق لأهلها، وهذا / من وصفهم بادٍ للأبصار، لا يلوون عليه ليلاً ولا نهار، حتى إنهم يترصدون للظلمة في كل مرصد ويجعلون لأنفسهم ترجماناً ﴿ يَعِدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾[5]، فإنْ وافق / 208

(1) من كلمة (يصح) انقطاع في النسخة التي لدينا، يستمر حوالي خمس صفحات حسب الترقيم الموجود (من صفحة 202 التي تحتوي على خمسة أسطر فقط إلى صفحة 206 التي هي مفقودة أيضاً، ويتصل النص بعد ذلك ابتداء من صفحة 207). وهذا النقص موجود في نسخة الشيخين المهدي البو عبدلي وعبد المجيد بن حبة. وهكذا فإن بداية الصفحة 207 هو (لا يقدرون على إنكاره وإن أنكروه فقد باهتوا الخ).

(2) من هذه العبارة (لا يقدرون) يستأنف النص بعد الانقطاع الذي أشرنا إليه، وليس هناك اتصال في المعنى أيضاً.

(3) كذا (في خلق) والمعنى غير واضح.

(4) الكندرة (بضم الكاف) ما غلظ وارتفع من الأرض ـ انظر لسان العرب والقاموس مادة (كندر) ـ من إفادة الشيخ التليلي.

(5) سورة (النساء) الآية (120).

القَدَرُ بعد عِدَّتِهم[1] فيشتهر أمرُهم، وينادي مناديهم ألّا إن الشيخ فلاناً فعل كذا، فيشيع خبره في البوادي والحواضر، ولدى الغائب والحاضر، ولا يزال ذلك الظالم يرشيه بالرشى الأول، وربما زاده زيادة ظاهرة ويجعلها عليه فرضاً لازماً، وربما ألزمها لمن بعده، وإذا قصروا معهم في ذلك يأتونهم إلى منازلهم ويتملقون إليهم ويطلبونهم في صدقاتهم وما كانوا يناولونه لهم، فإن أبطأوا عليهم في ذلك خوفوهم وأرعبوهم، ولا يزالون في طلب الدنيا منهم والتذلل لهم حتى يكرموهم بجائزة قلّت أو كثرت فينصرفون وقد نالوا منالهم، ومن الله عقوبتهم ووبالهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد تقدم في ترجمة كل واحد منهم[2] ما أغْنى عن إعادته هنا فانظره ترى مصداق ما ذكره الشيخ القطب[3] فيهم وبُعْدهم من حضرة الأخيار، واستنشاقهم خَبَث رائحة الأشرار، فإنها لا تعمى الأبصار، فإن قالوا قد ظهرت على بعضنا كرامات وربما يدّعونها، وظهرت لهم / بركات، وربما أوعدوا مَنْ أغضبهم فصدقوا ووعَدوا مَن تبرك بهم فما أخلفوا، وربما تكون لهم إشارات، وهل يكون مثل هذا إلا لأهل الاستقامة؟ قلنا لهم كراماتكم مقصورة على جماعة اللصوص المحاربين الذين لا يعدمون بلاء لأنهم دائماً متعرضون لأسباب الفتن والحرابة، ومَنْ هذا شأنه دائماً إذا لقي حرباً أو حضر عدواً لا ينقلب في الغالب إلا عن نقص وبلاء إما في نفسه أو في فرسه أو في غيرها من ماله، وهلاّ نَفَذَت[4] كرامتكم لمن كان جليس داره أو بلده لا يدخل حرباً ولا يحضر وقيعة؟ فما باله لا يناله من دعائكم ولا من توعّدكم ما يكره؟ وأما أولئك الأقوام الذين هم مثابرون لقرع الرماح وحضور نار الحرب فلا بدّ لهم من النكبة والضرر. ولقد قال القائل:

وَمَنْ ظَنَّ مِمَّن يُلاقي الحروبَ ... بِأَنْ لا يُصاب فقد ظَنَّ عجزا[5]

20٥ /

(1) من الوعد.

(2) لا ندري كم فاتنا من هؤلاء نتيجة انقطاع النص. وقد عرفنا أن آخر من ترجم له هو بلقاسم الحيدوسي دون أن يتمه.

(3) يبدو أن المؤلف كان ينقل عن أحد كبار المتصوفة في شأن أدعياء الولاية. ولا ندري من هو هذا القطب الذي يشير إليه. ولعله الشيخ أحمد زروق الذي تقدم ذكره والنقل عنه.

(4) في الأصل (نقدت).

(5) سبق أن أشرنا أن هذا البيت قالته الخنساء.

وقد قدّمنا الكلام على هذا.

ثم لو قدرنا أنّ ما ادعيتموه من الكرامة عامّة الموقع فلا نسلم أنها كرامة بل إهانة واستدراج، لأنها ظهرت على يد مبتدع وقام بها غيرُ متبع، والكرامة إنما تظهر على يد متبع لسنة سيدنا ومولانا محمد ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ فتكون دالة على صحّة استقامته وإخلاصه/ولا يخفى عليك بعدما سطرناه من ابتداعهم ما خاضوا فيه من أقوالهم 210 / وأفعالهم وما اتصفوا به عملاً وقولاً في خروجهم على طريق الاستقامة، واستحقاقهم على ذلك الملامة، فما جرى على أيديهم والحالةُ ما ذُكر، مكرٌ من الله واستدراجٌ وفتنةٌ لمن علم شقْوته وأراد ضلالته. قال تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾[1]. والعاقل لا يغتر بما يوافق القَدَر من أقوالهم ولا ما يظهر عليهم من أفعالهم أنْ لو كان ظهر، ولو رُدُّوا[2] يطيرون في الهواء أو يمشون على الماء. ورحم الله أبا يزيد البسطامي (إذ قال:)[3] إذا رأيتم مَن يطير في الهواء فلا يغرنّكم بفعله حتى ترونه واقفاً عند الأمر والنهي. وقد تقدم شيء من هذا في تراجم بعض من قدمناه.

وقد تقرر من حال إبليس ـ لعنه الله ـ أنه يطير في الهواء ويغوص ويخترق الأرضين السفلى، وقد عُلم من صفة الأعور الدجال ادعاء الربوبية ونسبة الألوهية إلى نفسه، وقد سُخّرت له الجمادات[4] وأجيبت له الأموات، وقد ألْقى السَّامِرِيُّ الحلي في النار فأخرج عِجْلاً جَسَداً له خُوار، وقد علم من إمْهَالِ الله لفرعون على عتوّه وتمرده وطغيانه وكفره وقوله أنا ربكم الأعلى ما هو معلوم، وقصة تسخير / النيل له 211 / مقررة في الكتب، وكذا حال النّمرود بن كنعان ـ لعنه الله ـ وصنْعه في رمْيه بالنشاب إلى السماء ورجوعها له بالدم وزعْمه أنه قتل إلَهَ السماء مما طغى به لسانه، ومع هذا فإمهال الله لهم معلوم حتى أخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون﴾[5].

---

(1) سورة (الأعراف) الآية (182 و 183)، وكذلك سورة (القلم) الآية (45).

(2) (ردوا) للمجهول، أي أصبحوا.

(3) ما بين القوسين مضاف من عندنا. والبسطامي هو: أبو يزيد عبد الرحمن، متصوف، وأتباعه يعرفون بالبسطامية، توفي سنة 261. صاحب أخبار كثيرة. ـ من إفادة الشيخ التليلي ـ.

(4) في الأصل (الجمادة).

(5) سورة (الأعراف) الآية (99).

وقد يُلبّس مُلَبّس كذاب على العوام والجهال بخديم من الجان يكون عنده مطيعاً ولأمره سميعاً، فيُظهر لهم أشياء من جَلْب وأضرار، وإحضار طعام وماء في البراري والقفار، فيعتقد الجاهل أنه من الكرامات ومن جملة البركات التي تنسب لأولياء الله وصلحاء عباد الله، وليس منها في وِرْد ولا صَدْر، وهذه[1] غرّت مَنْ كان قبلنا من الأعصار، فما زالت دعواها في عَقِب فاعلها حتى ظهر منهم العتوّ والاستكبار، وصار العقب عند الخاصّة والعامة في عصرنا ممّن لا يُلحق لهم شأوٌ ولا يقاسون بقياس غيرهم. إذا قالوا أولاد فلان جرى من تفضيلهم على جميع الأمة، علمائها وصلحائها بل وأولاد سيد المرسلين، فيجعلون لهم من الرفقة والافتخار. ما لم يجعلوا[2] معشاره لأولاد النبي المختار، والكفر أقرب لهؤلاء من الإيمان، والطَّرْدُ أولى بهم والخذلان/ ، عافانا الله وإياكم[3] ممّا ابتلاهم، والفخر كل الفخر لأولاد سيدنا رسول الله ﷺ حتى إنهم ربّما يُنْسَبُون إليه وافتخارهم بجدهم الأقرب وانتماؤهم إليه[4]، ونسوا مَنْ أَخْرَجَ الله به الخلقَ من العمى وجاء بالخير والهدى.

/ 212

فهذه فتنة ومصيبة لا أعرفها إلا في هذه البلدة الظالم أهلها[5]. ولقد ذَكَر من أثق به أنه اجتمع مع بعض جبابرة العقب المذكور ممن نشأ في حجر الظلم والفجور، أراح الله منه العباد، وطهّر منه عاجلاً البلاد، إنه قال: نحن بنو فلان ليسوا من الناس وليس مثلنا أحد، أو كلاماً هذا معناه.

ولنرجع إلى المراد فما كان من أمر هؤلاء الذين يجري ما قدمناه على أيديهم بسبب طاعة الجان هُمْ إلى الكفر أقرب وإلى ساحته أظهر، لأن الغالب على هؤلاء عبادة الجن إلى أن يكفروا بالله ورسوله بأن يَشرُط عليه الجنيُ أن يُسْجَد له من دون الله أو يترك الصلاة أربعين يوماً أو غير ذلك على ما ذكره العلماء في شأنهم، فيلتزم الآخذُ

---

(1) أي هذه التصرفات المشار إليها.

(2) في الأصل (لم يجعلون).

(3) في الأصل (وإياهم).

(4) يبدو أن المؤلف يريد أن يقول أن أهل عصره كانوا يفتخرون بأجدادهم الأقربين حتى ولو كان بعضهم ينسبون أنفسهم للرسول ﷺ - الأشراف - .

(5) يشير إلى قسنطينة وأهلها، ولكنه هنا لم يفصح على هذا العقب، ولعله ذكره في موضع النقص المشار إليه.

شروطه، قال صاحب كتاب (الرد على المبتدعة)[1] وهذا كله لغرض من أغراض الدنيا الفانية، فباع به نصيبه من الدار الباقية. انتهى.

علي بن مخلوف وعيسى الويشاوي:

فإن قالوا: ما تنكرون على مَنْ خدم الجان؟ وهل يخدم إلا أولياء / الرحمان؟ 213 / هذا أبو الحسن علي بن مخلوف قد اشتهر أمره عندكم في الولاية والصلاح وعرف به أكابر العلماء وهو في خدمة الجان له واستغاثة الناس منهم إلى اليوم بضريحه مشهور، وقد استفاض أنه كان ممن يقرىء أولادهم وينتفعون به. وقد استفاض عن أبي مهدي عيسى الويشاوي المدفون بجبل وِشاوة على بلد العنّاب مثل ذلك، واستفاض صلاحه وولايته بين أهلها وغيرهم، قلنا هذا كلام رجل مجنون أو صاحب هوى مخذول، فنحن لا ننكر أن أولياء الله تعالى تنقاد إليهم الجن وغيرهم، ومن خاف الله خافه كل شيء، إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض، أرأيت من كان ولياً لله متبعاً لحدوده يتعاصى عليه في الكائنات شيء إذا قصده بهمته الخالصة لله والكلام في غيرهم ممن يطلب على طاعة الجن أوْ يتملق إلى غير الله في استخدامهم.

وأمّا السادة المذكورون[2] فبغيتهم وطلبهم مولاهم وهو لذتهم ومناهم، فباعوا النفوس في رضاه وبذلوها في طاعته لم يريدوا بذلك دنياً ولا عرضاً سوى[3] خدمة مولاهم، فسخر لهم مولاهم كل شيء، ومع ذلك فهم عنه معرضون ولا / يلتفتون، 214 وإذا ظهر لهم شيء استعاذوا بالله منه ونفوسهم أبيّة منه خائفة وجِلَة من إظهاره على أيديهم. نعم هو فيما بينهم نقص من مراتبهم، وَمَنْ تشوف إليه كان تشوفه هفوة فاستغاث إلى الله منها، والكُمَّلُ منهم - رضوان الله عليهم - همتهم في حب مولاهم كما ذكرنا، لا يلوون إلى الكرامات طرفة عين ولا أقل من ذلك.

---

(1) الظاهر أن المقصود به كتاب (الحوادث والبدع) للطرطوشي (محمد بن الوليد بن محمد) المتوفى سنة 520. ولهذا الكتاب أسماء أخرى مثل (بدع الأمور ومحدثاتها) و (البدع والمحدثات). - من إفادة الشيخ التليلي -.

(2) يبدو أن المؤلف يشير بذلك إلى علي بن مخلوف وعيسى الويشاوي. فهو إذن يقر بما نسب إليهما.

(3) في الأصل (سواه).

ولقد وقع في فكري حين تفاوضت مع بعض المذاكرين في أهل الكرامات الظاهرة عليهم وعلى غيرهم من أكابر الأولياء، أن مَثَلَ الفريقين كزقّ عسل مملوءاً، فبعضهم يقع له رشْحٌ، وبعضهم حفظ زقّه من الرشح، فما رشح هو ظهور الكرامة على من ظهرت عليه. أترى من رشح من زقه، ولو قلّ الرشحان، يكون في ملئه مثل من كان زقّه مملوءاً لا رشح فيه. فافهم ذلك وتنبّه له!

ولنرجع إلى المطلوب فنقول: السادة المذكورون خدمتهم الجن عرضاً لا طلباً، ومَنْ تكلمنا عليهم طالبون على استخدامهم، فأفعالهم كانت لأجل ذلك ونحوه من الأغراض، فكانت ولاية المبتدعة لهم، والله يتولى الصالحين، ودليل ذلك تمدّح هذا الفريق لهم وإظهار الانفعالات للعامّة والجهال في معرض الغضب على من غضبوا عليه والانتصار لأنفسهم بذلك وإخافة الخلق بذلك، فكان فعلهم دليلاً / على شأنهم، ومن تولاه الله بولايته لا يلتفت إلى الأكوان ولا تأثيرها، ويَرى المُكوِّنَ[1] لا الْكَوْنَ. / 215

عن إبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض:

ولقد قال إبراهيم بن أدهم[2] ـ رضي الله عنه ـ لرجل في الطوّاف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقاب. أولها: تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة، والثاني: تغلق باب العز وتفتح باب الذل، والثالث: تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهل، والرابع: تغلق باب النوم وتفتح باب السهر، والخامس: تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، والسادس: تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت.

وكان إبراهيم بن أدهم ـ رضي الله عنه ـ يحفظ كَرْماً فمر به جندي فقال: أعطنا من هذا العنب، فقال: ما أمر به صاحبه، فأخذ يضربه بسوطه فطأطأ رأسه وقال: إضربْ رأساً طال ما عصى الله تعالى، فأعجز الرجل ومضى. أترى إبراهيم في فعله المذكور جارياً على الجادة والطريق المستقيم أم القومَ المذكورين الذين إذا تُعِرِّض

---

(1) المكون: بكسر الواو مع الشدة.

(2) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي المتوفى سنة 161، وهو من مشاهير الزهاد. كان أبوه غنياً، ومن ذلك لم يبال بالمال وتفرغ للجهاد والعبادة. الأعلام 1 /24.

لجانبهم أو أوذوا، يتوعّدون الناس ببركتهم ويخيفونهم بجاههم ومنزلتهم؟ ﴿ستكتب شهادتهم ويُسئلـون، أم اتخذ عند الرحمان عهداً كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مَدّاً﴾[1].

216 / فإن قالوا: ما سطَّرتَ من أمر هؤلاء لا نقول به ولا نوافق ونحن موافقون على أن من كان هذا حاله فلا ننازع في أنه ليس من أهل الحضرة والعناية، وإنما كلامنا فيمن ظهرت غارة الله له حين تنتهك حرمته فيوعد الظالمَ فينا له ما أوعده به ولا يطلب جنياً ولا يستغيث به، قلنا هذا الذي وصفتم ومن إليه أشرتم قد خالف طريق أهل الله والصفوة من خلقه، وقد أسمعناك قصة ابن أدهم مع الجندي. ولو تتبعنا أمثالها منهم لما وسعنا الأمر، فأهل الله يرون البلاء مِنّة والمصيبات قُرْبة وإتحافاً، لا يغتاظون ولا يغيظون وتلك حقيقة الاتّباع.

ولله در الفضيل[2] حيث قال: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضتْ علي لا أحاسب عليها، أكنت[3] أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه، نعم قد تقع من الله غارات لِأَحْبَابِـهِ لكن لا سبب لهم فيها من دعاء أو نحوه لما فيه من الانتصار للنفس التي طلّقوها بتاتاً لا رجعة لهم فيها، اللهم إلاّ إذا رأوا انتهاك الحرمات فربّما ألجأهم الحال إلى ذلك بوارد أو خواطر فيكون قيامهم للّه لا لهم ولا لغيرهم، وهذا كله مع الاحتفاظ على الاتّباع والوقوف مع قسطاس الشرع في كل الأحوال (ويلق)[4] منها ما ظهر على / أولئك الأقوام من الانفعالات التي أجراها اللّه 217 / على ألسنتهم وأقوالهم من غير طلبها، فانظر إلى آثارهم وسيرتهم وما هم عليه من المخالفات التي بعضها كاف في باب الطرد والبعد من حضرة الولاية ترى وتتحقق إنْ كنتَ موفقاً أن ذلك مكر واستدراج، وما حل بهم عقوبة، كما هو سيرة الله فيمن خالف

---

(1) سورة (الزخرف) الآية 19، بالنسبة لـ: (ستكتب شهادتهم ويسئلون). وباقي الآية من سورة (مريم) الآية (79).

(2) هو الفضيل بن عياض ابن مسعود التميمي، من الصالحين، توفي بالكوفة سنة 187. وممن أخذوا عنه الإمام الشافعي. ـ من إفادة الشيخ التليلي ـ.

(3) كذا (أكنت)، ولعل صوابها (بل كنت).

(4) بياض بالأصل قدره كلمة، وفي الهامش مكتوبة هكذا (ويلق). ولم نفهم معناها.

أمره ونهيه، وقد قدّمنا بعض شيء (من)[1] ذلك، وبذلك تعلم أن ما نزل بهم من الوبال والأضرار عقوبة لهم وزجر لا يرفع لهم بها وزن ولا ينالهم منها أجر ما داموا على بدعتهم ومتصفين بسيرتهم، وعمل قليل في سنّة خير من عمل كثير في بدعة، وقد تقدم ذكره.

عن بشر الحافي وأحمد زروق:

وقال بشْر الحافي[2]: رأيتُ النبي ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ في المنام فقال لي: يا بشر تدري لمَ رفعك الله من بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: باتّباعك لسنتي وخدمتك للصالحين ونصيحتك لإخوانك ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي هو الذي بلّغك منازل الأبرار.

فإن قالوا قد تكلّفتَ شططاً، وهل ما فعل القوم مِنْ إيعاد الظلمة بالنكبات ومَنْ أذاهم بالعقوبات إلاّ ترفع لنسبة الله بحيث إنهم يحارمون[3] النسبة المذكورة وذلك من تعظيم جناب الله ومن التسبب فيه؟ قلنا / هذا من الاستظهار بالدعوى، أعني دعواهم الولاية من التعزر[4] بطريقتهم بل وهو من الأكل بالدين، والخروج عن سنة سيد المرسلين، وطريقة أصحابه المتقين، إذ أُوذي أبو بكر، وطُعن عمر، وحُصر عثمان، وشُجّ[5] علي، فما سُمع من أحد منهم التهديدُ بما ينال الفاعل ولا التخويف بما يحل به، بل وكلوا الأمرَ إلى الله وإلى ظاهر الشرع فيما يجري عليه، فأين هؤلاء السادة من أولئك الأقوام الأخساء؟.

218 /

ولقد أحسن فيهم الزروق في كتابه المذكور[6]. قال فتجدُ أحدَهم يهدد من يسيء إليه ويعِدُ مَن يحسن له من غير تعريج على حسن الظن بالله بل بالتالي عليه إمّا جهلاً منه ورؤيةً لاستحقاقه ما يدّعيه، وهي خديعة شيطانية أو اغترار ببعض البوارق

---

(1) ما بين القوسين زيادة منا.

(2) هو بشر بن الحارث بن علي المروزي المعروف بالحافي، من الصالحين الزاهدين. توفي في بغداد سنة 227 ـ من إفادة الشيخ التليلي ـ.

(3) لم نستطع أن نفهم هذه الكلمة (يحارمون)، ولعل في كتابتها تصحيفاً من الناسخ، أو لعلها من الحرمة.

(4) ولعلها (التعزز).

(5) في الأصل (سج).

(6) هو كتاب (تأسيس القواعد والأصول) وقد سبقت إليه الإشارة.

النفسانية والطوالع القلبية، ويدعوه لذلك استعجال العز والغنى[1] بالطريق وحب الاستتباع حتى لقد سمعتُ عن بعض الناس أنه يقول، و (هو)[2] يشير إلى نفسه: كل شيخ لا يتكفل بمريده في المواقف الثلاثة، أعني عند الخاتمة وعند السؤال وعند الصراط، فهو غاشٍ، وهذه مصيبة كبيرة لأن عاقبته في هذه الثلاثة مجهولة، وكذا عواقب جميع الخلق في الآخرة (يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً إلاّ من رحم الله)[3]. ودعاء الرسول / ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ (سلّم سلّم) فمن أين يكون لغيرهم ما ليس لهم؟ أعاذنا الله من الفضيحة والكذب على الله بغير حق. وهذه مصيبة وغلطة وقعت لصاحب هذه الحالة من جهله وحسن ظنه بنفسه وحب الرياسة، فإن أضاف إلى ذلك الأكل بالدين وصحبة الظلمة وإيثار الأغنياء على الفقراء والمعتقدين له على غيرهم، إلى أن قال: فقد باء بالخسران واستحق وجود اللوم، فإن شر الناس الذي يأكل بدينه. / 219

قال العلماء: وهو[4] الذي يستظهر بصفة ليست فيه فيأكل بذلك. قالوا ولا يجوز أن يأكل[5] مالاً باسم الصوفية إلا من لا يصر على كبيرة وإلا أكل حراماً، ولا يسكن الزوايا إلا ذلك، فصار الأمر على خلاف ذلك في جميع الوجوه من تعامي الكل عن الكل خوف الفضيحة، فيرحم الله القائل[6]:

فسد الزمانُ فأين أينَ المهربُ ... وفشا الحرامُ فأيُّ كسبٍ أطلب
وتعامت العلماءُ عن شُبهاتها ... فلمثل ذا فليَعْجَبِ المتعجِّب
مَنْ ذا نشاورُ في مراتب ديننا ... وَمُزِلُّنا في ذا الزمان مُؤدِّبُ

قال وقد جاء في الحديث (بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء منه) الحديث. والغرباء هم المذكورون في حديث الطائفة التي لا تزال ظاهرة على الحق لا يضرها مَنْ خالفها، وهي الجماعة / في حديث حذيفة والفرقة الناجية، / 220

(1) في الأصل (الغنا).
(2) ما بين القوسين زيادة منا.
(3) سورة (الدخان)، الآية (41). أما ﴿ إلاّ من رحم الله ﴾ فمن آية (42).
(4) أي الذي يأكل بدينه.
(5) في الأصل (يكون) فغيرناها (يأكل) لأن السياق يقتضي ذلك.
(6) لا نعرف الآن من قائل هذه الأبيات.

أعني تُبّاع السلف ـ رضي الله عنهم وألحقنا بهم بمنّه وكرمه ـ انتهى.

قلت: وهذا في زمنه[1] ـ رحمه الله ـ فكيف بمن ذكرناه من أهل هذا الزمان الذي انعدم خيره وعظم شره، فترى الصالح عندهم مَنْ تكالب على الدنيا وأكبّ على حرامها واغتبط فيه ونافس فيه وتملق لأهل الدنيا، ونصب لاستجلاب فائدها[2] شباكَ الحيل من دعوى الولاية والتعزز بها والتهديد بجاهه وماله من البركة واستعمال الحضرات وإطعام الطعام والاجتماع على ذلك وادعاء الشيخوخة واستخدام التلامذة وإشهار ذكره والإعلان بخبره والنداء باسمه ومآثره، وأعظمُ من ذلك اتخاذ الزئير والصراخ واضطراب الجوارح كلها عند الدخول في تلك الحضرة ذريعة وسلّماً لارتقاء المناصب الدنيوية والأكل بالجاه والدين والتعالي عن عباد الله المسلمين، حتى إن من لم يكن فيه هذا الوصف لا يُبَالى[3] به من بينهم ولا يُلْتَفَتُ إليه.

عن الشاطبي عن مالك:

ولقد (قال أبو إسحاق الشاطبي في فتواه)[4]: سئل مالك عن قوم يقال لهم الصوفية يأكلون كثيراً ثم يأخذون في القصائد ثم يقومون فيرقصون، فقال مالك: أصبيان هم؟ قال: لا، أمجانين هم؟ قال: لا، قوم مشائخ عقلاء[5]، فقال مالك ـ رضي الله عنه ـ: ما سمعت أن أحداً من أهل الإسلام / يفعل هذا إلاّ[6] أن يكون مجنوناً أو صبياً، ثم قال: ولو فعلوه على جهة اللعب كما يفعله الصبي لكان أخف عليهم مع ما فيه من إسقاط الحشمة وإذهاب المروءة وتَرْك هَدْيِ أهل الإسلام وأرباب العقول. لكنه يفعلونه على جهة التقرب إلى الله تعالى والتعبد به، وأنَّ فعْلَهُ أَفْضَلُ مِنْ تَرِكهِ، وهذا أدهى وأمرّ حيث يعتقدون اللهو واللعب عبادةً، وذلك من أعظم البدع المحرمات المُوقِعة في الضلالة المؤدية إلى النار، والعياذ بالله.

/ 221

(1) الإشارة إلى أحمد زروق.
(2) كذا (فائدها)، ولعلها (فوائدها).
(3) يبالى، بفتح اللام.
(4) ما بين القوسين زيادة في هامش المتن.
(5) في الأصل (عقلا).
(6) في الأصل (ولا أن).

مقالة الطرطوشي:

وقال الإمامُ الطرطوشي حين وُصِف له حالهم، قال: هو مذهب جهالة وبطالة وبدعة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنّة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ فإن قالوا: أليس الشرع نَهَى عن الغيبة وحرَّمها فلمَ تفكّتهم في أعراضنا وجعلتم الغيبة دَيْدَنَنَا[1]، والتحدث بنا مسكناً ووطناً؟ قلنا: لا غيبة فيكم إذا ذُكِرتم من أجل بدعتكم وزيغكم، بل الخائض فيكم مأجور أحياءً وأمواتاً، وحديث «لا تسبوا الأموات فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا» مخصوص بغير من اشتهرت بدعته وبدت في طريق السنّة مخالفته كما نصّ عليه العلماء، ومن جدّ وجد، وما أباح الشرع ذلك من التعرض لكم إلا / ليقع 222 / الحذر منكم ومن مذهبكم وطريقتكم الفاسدة، وكل من أظهر البدعة وأعلنها وجاهَرَ بها فشأنه كذلك. فقد قال عليه الصلاة والسلام «لا غيبة في فاسق».

وذكرتُ في كتاب الرد على أهل البدع[2] حديثاً عن النبي ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ قال فيه: «إذا ذكر الفاجر بما فيه ليحذر الناسُ منه فليس ذلك بغيبة وإنما الغيبة إذا ذكر شيئاً من أبدانهم وأمّا في بدعتهم فلا»، انتهى. قلتُ وقد حذر الشارع صلى الله عليه وسلّم تسليماً من مخالطتهم[3] وصحبتهم والجلوسِ معهم. وذكر العلماء أن فاعل ذلك آثم. فقد رُوي عنه صلى الله عليه وسلّم تسليماً أنه قال: «ومن صافح مبتدعاً فقد نقض الإسلام عروة عروة». وقد تقدم مثل ذلك. وقال الفضيل بن عياض: من جالس مبتدعاً أورثه الله العمى، يعني عمى القلب عن الطاعة والهدى، وقال بعضهم: لا تُمَكِّنْ زَائِغَ القلب من دينك. والعلة في التنفير منهم عدم الأمن على من خالطهم أن يسْرِي سمّ بدعته في قلبه فيهلك مع الهالكين. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «المرء على دين خليله»، وقال صلى الله عليه وسلّم تسليماً: «اختبروا الناس بإخوانهم»، وقال صلى الله عليه وسلّم تسليماً: «جليس القوم منهم».

/ فإن قال قائل وزعم زاعم أنه حصل له من المعرفة بطريقهم وبدعتهم ما لا يغتر 223 /

---

(1) كذا (ديدننا)، ولكن (ديدنا) أفضل، وقد تكون خطأ من الناسخ.

(2) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب وصاحبه. والكتاب يذكر أحياناً بعنوان (الرد على المبتدعة).

(3) بعد هذه الكلمة وجدنا كلمة (وبدعتهم) وعليها علامة الشطب، فحذفناها من النص لأن المعنى لا يقتضيها.

به ولا تميل نفسه إلى هواهم ولا ترتَعُ بساحة ضلالتهم، فما المانع من مجالستهم وأخذ أموالهم والأكل من طعامهم وأي دَرَك في ذلك خصوصاً مع استسخاري بهم؟ قلنا هذا رجل غرّه سراب الطمع فحَسِبَه ماءً فوقع في مهواة[1] لا قعر لها، أهلكته شهواته مع الهالكين وخسر مع الخاسرين. ألم يسمع قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾[2] وقد قال صلى الله عليه وسلّم تسليماً: «إذا ظهرت البدعة وسكتَ العالمُ فعليه لعنة الله». وأي ذنب أعظم من المداهنة على عرض الدنيا وكذلك الجاه الذي يناله منهم؟ فقد باء بخزي عظيم وهو من اشترى ﴿ الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[3].

ولقد أفتى بعض العلماء الفاسيين ـ رضي الله عنهم ـ بأنّ من جلس معهم أو مشى معهم أو تعلّم منهم أو أكل معهم أو حضر في مجلسهم فقد نقض الإسلام عروة عروة، قال: وكان أهل السنة وأهل الشرع وأهل الورع إذا نظروا إليهم يثِبُون منهم كوثْب البعير إذا انحلّ عقاله، فإن قالوا / : للقوم نية خالصة في عبادتهم وأفعالهم مع أنهم يحبون النبي ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ ويصلّون عليه ويرجون منه الشفاعة، والأعمال بالنيات «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم»[4]، هذا مع ما لهم من الحبّ في النبي ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ والمرء مع من أحبّ. قلنا: هذا زعم لم يصحبه عمل ولا يتبعه إلّا مَنْ طُرِدَ وخُذِلَ، أمّا ما زعموا من نية التقرب، فقد كان هذا لِمَنْ قبلهم ممّن أخبر الله عنهم ﴿مَا نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[5]، أرأيت نيةَ تقرّبهم بعبادتهم لمن عبدوه نافعةً لهم؟ بل هي موبقة ومحبطة لأفعالهم، والنية التي تنفع في العبادة نية امتثال الشرع والتقرب إنما يصح ويرجى نفعه تقرب ما وضعه الشارع طريقاً إلى العبادة، وطريقة القوم خارجة عن

(1) في الأصل (مهوات).
(2) سورة (آل عمران) الآية (187).
(3) سورة (البقرة) الآية 16.
(4) الحديث هكذا: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأقوالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم). ـ من إفادة الشيخ التليلي ـ.
(5) سورة (الزمر) الآية (3).

مِهْيَع الشرع وطريقه، فلا يَرفع لهم بها وزناً ولا تنفعهم بنافعة ما داموا على بدعتهم وضلالتهم. وقد تقدم كثير من هذا فراجعه.

وأما دعوى محبتهم لسيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ فهي دعوى خالية عن دليل لأن من أحب شخصاً أحب ما يحبّ وكره ما يكره، كذا جاء في الخبر عنه ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ فما أكذب قوماً يدّعون محبّته وهم يعطون الأُذُنَ الصماء/لمن أمرهم باتّباع سنته صلى الله عليه وسلّم تسليماً، وربّما يصرحون بالمخالفة ولا يلوون على الأوامر ولا ينتهون بالنواهي. ولله درّ الحسن[1] ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: لا يغرنك قول من يقول المرء مع من أحبّ فإنك لن تلحق الأبرار إلا بعلم واتّباع سنتهم، فإن اليهود أحبوا موسى ـ عليه السلام ـ وليسوا معه إذ لم يتّبعوه، وأهل البدع يحبون أنبياءهم وليسوا معهم بل كذبوا في محبتهم، ولقد أحسن من قال: 225 /

مَنْ يدّعي حبَّ النبيّ ولم يكن ... بطريقه متمسّكاً فهو كاذب

وقد قدّمنا حديث من أحبّ شخصاً أحب ما يحب وكره ما يكره. وأمّا صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلّم تسليماً فهي مقبولة قطعاً بالنسبة إلى سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ من البر والفاجر، وأما بالنسبة إليهم فهي كسائر الأعمال، وقد قدمنا أن الأعمال لا تقبل منهم ما داموا على بدعتهم.

وأمّا رجاء الشفاعةِ فقد سبق في الحديث الشريف أنهم ليسوا من أهل الشفاعة إلا أن يتوبوا، وقد تقدم بسط ذلك وتقريره فراجعْه. فإن قالوا: أوضحْ لنا من العلامات ما نستدل به على أهل البدع من غيرهم، قلنا أمرهم أوضح من أن يوضح، وقد / قدمنا أن معيار الشرع في أهل الخير الاتّباع للسنة والوقوف على حدود الشرع ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة[3] الدنيا وفي الآخرة﴾. فإذا رأيتَ المرء مواظباً[4] على الطاعات مجتنباً للنواهي رافعاً همته عن المتشابه، لسانُه رطب بذكر الله متبعاً للمندوبات بعد إحكام الواجبات، ومتجافياً عن المكروهات بعد الفرار من 226 /

---

(1) لعله يقصد الحسن بن يسار البصري، إمام أهل البصرة. وهو من مواليد المدينة ومن كبار العلماء والنساك. توفي بالبصرة سنة 115، الأعلام 2 / 242.

(2) في الأصل (الحيات).

(3) سورة (يونس) الآية (64).

(4) في الأصل (مواضباً).

المنهيات، عارفاً بالله وبأحكام ما كلفه به، فاقصده بالأخوة واغتنم منه صالح الدعاء، ولا عليك بعد ذلك منه ظهرتْ عليه كرامة أم لا، كان رفيع القدر أو خامله، فإن أولياء الله متفاوتو[1] الحال في الدنيا، وأما مَن كان على خلاف ذلك كله أو بعضه فيجب هجرانه لله، خصوصاً الطائفة أهل الحضرة المخالطين للظلمة الآخذين منهم الخيلَ والبغال والمتاع والأموال، أهل الغرائر لباساً في الابتداء والإطعام في الانتهاء، الذين يدّعون الشيخوخة لأعوانهم ويزعمون أنهم يُتَوِّبُونَ الناس ويدلونهم على الله ويعطون العهد لأتباعهم ويهددون بجانبهم ويعدون ويوعدون: ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾[2].

وقد ذكر صاحب كتاب الرد عليهم[3] أنه جاء في بعض الأخبار عن ابن عبّاس عن/النبي صلى الله عليه وسلّم تسليماً أنه قال: «سيأتي أقوام يستبدعون البدائع ويحلقون رؤوسهم ويسمون أنفسهم مرابطين يلبسون الدفافيس، ويجعلون في أعناقهم القناديس، ويلبسون التلاليس، ويأكلون أموال الناس بالبدائع، ويجعلون لهم[4] البنادير، ويشطحون ويرقصون، فإذا رأيتهم على تلك الحالة لا تخالطهم لقول الله عزّ وجلّ ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ﴾[5] وقوم يستبدعون العباءات والتسابيح، ويجعلون شيخهم أعلى[6] الأشياخ ويجعلون صديقهم في شيخهم ويتركون فيما[7]، فإذا التقوا كلُّ واحد يقول: شيخي أفضل من شيخك، والله تعالى يقول: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[8] إلى أن قال: فإذا رأيتم كل واحد منهم يقول: شيخي تنزلوا[9] منزلة ﴿ الأخِلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاّ

(1) في الأصل (متفاوتوا).
(2) سورة (المجادلة) الآية (19).
(3) الإشارة إلى الطرطوشي الذي سبق ذكره.
(4) بعد هذه الكلمة (لهم) حرف (في) مشطوباً عليه، فكانت (في البنادير إلخ). والمعنى مستقيم بدونه.
(5) سورة (الأعراف) الآية (51).
(6) كانت في الأصل (على) بدون ألف.
(7) كلمة غير مفهومة المعنى وهي (فيما) بالنص.
(8) سورة (الحجرات) الآية (13).
(9) كذا (تنزلوا) ولعل صوابها (فلا تنزلوا)، أو نحو ذلك.

المتقين ﴾[1] ، انتهى، قلت، والعهدة في هذا الحديث على صاحبه، وإن كان معناه صحيحاً كتاباً وسنّة.

عن الغزالي:

ولله در أبي حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ حيث قال: متصوفة أهل الزمان، إلا مَن عصمه الله تعالى، اغتروا بالزي والمنطق والهيأة من السماع والرقص والطهارة والجلوس على السجادات / مع إطْرَاقِ الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر ومن تنفّس الصعداء وخَفْتِ[2] الصَوت في الحديث إلى غير ذلك، فظنوا لذلك أنهم منهم، فلم يُتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفيّة (و)[3] الجليّة، وكل ذلك من أوائل منازل المتصوفة، ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يُعدّوا أنفسهم من الصوفية، كيف ولم يحوموا قط حولها؟ بل يتكالبون على الحرام والشهوات وأموال السلاطين، ويتنافسون في الفلس والرغيف والجُبّة ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض، وليسوا من الرجال في شيء بل هم أعجز من العجائز في المعارك، فإذا كُشِف عنهم الغطاء فوافضيحتاه على رؤوس الأشهاد! / 228

قال ومنهم طائفة ادعت عِلْمَ المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال ولا تَعرِف هذه الأمورَ إلا بالأسامي والألفاظ، إلا أنه[4] يُتَلقَّف من الطائفة كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك علمٌ أعلى من علوم الأوّلين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين بعين الإزراء، حتّى إن الفلاح يترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياماً، ويتلقف منهم هذه الكلمات ( )[5]، فهو يرددها / كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار ويستحقر بذلك جميع العبّاد[6] والعلماء، فيقول في العبّاد: إنهم أجراء يتعبون، وفي العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون، / 229

(1) سورة (الزخرف) الآية (67).
(2) في الأصل (خفة).
(3) ما بين القوسين إضافة منا.
(4) (إلا أنه) مكررة في المتن. وعائد الضمير غير مذكور.
(5) كلمة غير واضحة، كأنها (المريضة) ولعل حذفها أولى، لأن المعنى يستقيم بدونها.
(6) بتشديد الباء.

ويدّعي لنفسه أنه هو الواصل إلى الحق وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى[1] الجاهلين، انتهى.

وهذا في زمنه[2] فكيف بزمننا الصعب[3]؟ نسأل الله السلامة. فإن قالوا طريق الطائفة قد بالغتَ في ردها وإنكارها، وهدمتَ بمعاول الكتاب والسنة وإجماع الأمّة أساسها، فبيّن لنا الطريق إلى الله وعرّفنا وجهتها بما يكون للناظر عوناً وسلّماً يرتقي به إلى دائرة الكمال، وما التوفيق إلّا من الله الكبير المتعال، قلنا: قد قدّمنا في طي كلامنا غير مرة الطريق الموصلة إلى الله وأوضحنا منارها.

رسالة الزروق إلى الموعفاوي وابن سعيد:

والآن رأينا أن نذكر رسالة كتبها الزروق لبعض إخوانه، جامعة مانعة مختصرة قريبة المرام سهلة المرتقى، فخذها من لفظه ـ رحمه الله ـ تبركاً وتيمناً، وإن كان غيره قد تصدّى لذلك، فرسالته أوضح وأوجز، والكل على هدى وإلى صوب واحد يدْعُون، ومن بحر السنة يشربون ويسعون ﴿ أولئك حزب الله / ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[4]. / 230

قال ـ رحمه الله وغفر له ونفعنا به وبأمثاله ـ بعد البسملة والتصلية، الحمد لله ولا قوة إلّا بالله، من عُبيد الله المفتقر إلى رحمته أحمد بن محمد المعروف بزروق، أصلح الله حاله؛ إلى السادة الفقراء والأحباب في الله سيدي عبد الله الموعفاوي، كان الله له في الدنيا والآخرة وحبيبِه في الله تعالى الفقير عبد الملك بن سعيد، نوّر الله قلبه وأسعده بمرضاته وكفاه شر نفسه، ثم سائر الإخوان ممن أراد الدخول في دائرة الأصحاب، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد، فقد بلغنا منكم كتاب يتضمن كمال الوداد وحسن الظن وجميل الاعتقاد، وأخبرتم فيه بأشواقكم إلينا وإنعطافكم بكُنْه الهمّة علينا، فأسأل الله أن يبلغ نياتكم وينفعنا بمصالح مقصودكم،

(1) في الأصل (الحمقا).
(2) أي زمن الغزالي، والكلام هنا للمؤلف.
(3) كلمة (الصعب) أضيفت في الهامش مكان بياض موجود بالأصل قدر كلمة.
(4) سورة (المجادلة) الآية (22).

وإلا فنحن عصاة[1] مذنبون، نطلب عفو الله بكل حال، ونتمسك بأذيال السادة من أهل الكمال.

ويا أخي طلبت مني إدخال فلان وفلان في الدائرة، وليس ذلك لي ولا باختيار نفسي العاصية الجائرة، ولكن قل لهم يقول لكم عليكم باللِّجاء إلى الله في مقصودكم، ودعوا الحول والقوة وراء ظهوركم، فلا ملجأ من الله إلا إليه، ولا عاصم من أمره إلا من رحم / وتعطف عليه، وأوصيكم بخمس خصال إن لزمتموها وصلتم واتصلتم، وإن أهملتم تُركتم وانقطعتم. / 231

أولها: لزوم الخمس صلوات في الجماعة فإنها العصمة من كلّ آفة.

الثانية: مجانبة أهل العناد والظَّلَمَة وغيرهم من غير منازعة لما هم فيه إلا بشفاعة أو إرشاد بصحبة رفق.

الثالثة: إذا كانت لكم حاجة لأحد من الخلق أو لَه عندكم حاجة فقدموا الدعاء في قضائها لتكونوا بالله لا بأنفسكم.

الرابعة: القيام بحقوق الخلق بالرحمة للصغير والحرمة للكبير والشفقة على العاصي والتواضع للمطيع والإحسان لمن أساء[2] إليكم والدعاء بالصلاح من غير حقد عليه ولا ذلة لأحد.

الخامسة: الرفق بالنفس من غير تفريط ولا إفراط، فلا يزيد في الضحى على ست ركعات فأقل، وقبل الظهر أربعاً وبعدها ركعتان، وقبل العصر أربعاً، وبعد المغرب ركعتان، ومن الليل عشر ركعات والشفع والوتر، كل ذلك بغير قراءة مخصوصة ولا صفة معلومة، فإن ذلك بدعة. وما ذكرت لكم هي طريقتي والسنّة التي كان عليها صلى الله عليه وسلّم تسليماً يعمل بها حتى لقي الله عزّ وجلّ، والزيادة لا أحبها والنقص لا أريده، وعليكم بصوم الاثنين والخميس/لا أكثر فإن لم تقدروا فثلاثة أيام من كل شهر وبالجملة فخير الأمور الوسط، وهو ما ذكرت لكم، وعمل قليل في سنّةٍ خيرٌ من عمل كثير في بدعة، والفقير مثل النحلة ترعى من كل نوار ولا تبيت / 232

(1) في الأصل (عصات).
(2) في الأصل (أسا).

إلا في جحرها، وهو شيخه وإلا فلا يَنْتفع بعسله.

والذي أنهاكم عنه خمس خصال.

أولها: كثرة التخليط في العبادات وغيرها.

الثانية: سوء الظن بعباد الله.

الثالثة: الاغترار بظواهر الخلق.

الرابعة: الانتصار للنفس.

الخامسة: تتبع الفضائل بدخول ما لا يعني كالتوجه للجهاد بغير إذن جماعة المسلمين أو سلطانهم فإنه سلّم الفتنة، وقلَّ ما اشتغل به أحد فأنجح، والدخول بينه وبين مخالفيه بوجه لا يرتضيه، وحسن الظن بالناس، وكن في عين الحذر منهم، فلا تأمن لأحدٍ بأهلك ولا مالك ولا دينك إلا مَنْ جرّبته ألف مرة أنه يخاف الله ويتقيه، واعمل ما بيدك كأنك خازن له تأكل منه بالمعروف وتطعم عباد الله من غير سرف ولا إقتار، ومن خلط في طريقته لم ينتفع بنفسه، ومن كثَّر عدد الأذكار والعبادات غير ما صحّ في السنّة بَعُدَ عليه الفتحُ، لأنه كمن يريد حفر بئر يريد ماءها فيحفر في كل موضع شبراً، ومن تعلّقت همته (   )[1] لم يحصل منهم بطائل لأنه / إسقاط لحرمتهم. وإياكم والوسواس فإنه بدعة وضلال، وأسأل الله[2] منه العافية. / 233

وإياكم ثمّ إياكم ومخالطة الفقراء والطلبة، ومن الاشتغال بالكُنوز والكيمياء وغيرهما، فإن ذلك كله مُبْعد عن الله جالب للفقر بعيد عن الحق، وعليكم بالأُلفة وإكرام الأصحاب، وهم ثلاثة: صاحب لدنياك فلا تراعِ فيه إلا حسن خلقه، وصاحب لآخرتك فلا تراعِ فيه إلا الله واقبلْه كيف كان، وصاحب للتأنس فلا تراعِ فيه إلا السلامة من شرّه. وإياكُمْ وخلطة فقراء هذا الزمان فإنهم جذام، إلاّ من قلّ وسلَّم لهم ما هم فيه وعظّم الفقهاء، لأنهم حملة الشريعة، ولا تخالطهم لأن نفوسهم غالبة عليهم، وأكرم أهل الدنيا تنتفع بهم ولا ترفعهم على الفقراء فتسقط من عَيْنِ الله

---

(1) ما بين القوسين بياض بالأصل قدره كلمة. وفي الهامش تصحيح له بكلمة لم نستطع قراءتها.

(2) كذا (وأسأل) والصحيح (اسألوا) مع السياق، ولكن التعبير سيتغير في المتن على النحو الأول.

وتُزدَرى[1] عندهم، والجأ في أمرك كله إلى الله تجد الإجابة كأنها طوع يدك، وقل في جوف الليل بصوت ممدود: يا غني! مَن للفقير سواك؟ يا عزيز! من للذليل سواك؟ يا قادر! من للعاجز سواك؟ يا قوي! من للضعيف سواك؟ فكرر ذلك تجد العجب في أمرك، ولازم في كل يوم أن تقول: يا عزيز يا جبّار يا متكبّر يا ودود يا نصير، مائةً وخمسة وعشرين / مرة، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله بعددها مثلها، ترى 234 / العجب من نفوذ الكلمة وظهور الأمر وذلة نفسك لك، إلى غير ذلك.

وهذا خاص بك يا عبد الملك[2] وأنا أكتب لكم الوظائف[3] التي استعملتها، فإن تيسر لكم فقدّموا بها زواياكم فإنها مأخوذة كلها من أحاديث رسول الله ﷺ تسليماً إنتهى.

قلت: لله دره ما أعلمه بالطريقة وما أتبعه بالسنّة! وهذه الوصية الجامعة جمعت لِمَباني الطريقة والحقيقة، فهي قائمة مقام الشيخ لمن تلقاها[4] وعضّ عليها بالنواجذ، والعدول عنها إتعاب للنفس وتسوّر على الشيء من غير بابه، وعلى الله قصد السبيل.

---

(1) في الأصل (وتزدرا).
(2) أي عبد الملك بن سعيد الذي سبق ذكره في أول الرسالة.
(3) في الأصل (الوضائف).
(4) في الهامش صححت كلمة (تلقاها) بـ (تلقفها).



خاتمة الكتاب

في ذكر من أردنا ذكره من الأصحاب والأحباب

64 - [التعريف بالشيخ بلغيث رحمه الله ونفع به، آمين]

الشيخ بلغيث القشاش:

فنبدأ بالشيخ الصالح الفقيه بلغيث[1]، كذا يكتبه بخطه في مراسلاته لي، وهو - رحمه الله - كان بتونس في ابتداء أمره يطلب العلم فنال منه ما صار به من أهل الفقه والمعرفة، وأخذه في أوّل حاله عارضٌ أظهر منه اتخاذَ السماع واستعماله بيده، ويقال إن أهل بلده، أعني خاصتهم، حسدوه ورمقوه بالعين البغضاء، وتعاطوا جانبه بالهضم والسعاية للوالي إلى أن فرّ منهم وخرج، وأخذ على يد الجديدي[2] أو غيره / فيما يقال، فلم يدخل إلى بلدهم إلا على الحالة التي ذكرناه آنفاً[3]، ويقال إنه وصل إلى مصر ورجع من هناك ولم يحج، وكان يُعتَقد فيه عدم الفطنة في أحوال الدنيا.

235 /

فلما رجع إلى مدينة تونس استعمل نفسه في بيته واحتجب واتخذ طريقة القوم

(1) بالإضافة إلى ما ذكره عنه المؤلف، انظر عن أبي الغيث القشاش مصادر التراجم التونسية، خصوصاً (الحلل السندسية) للوزير السراج، ج 2 / قسم 1، ص 153. وقد ذكر ابن أبي دينار في (المؤنس) ص 207 أن أبا الغيث قد توفي في وباء سنة 1031 أو 1032 بتونس. انظر عنه كذلك المحبي (خلاصة الأثر) 237/2 (كما اختصرته ليلى الصباغ)، ط. دمشق، 1983 وفي هذا المصدر معلومات عن الشيخ الجديدي، شيخ بلغيث.

(2) إبراهيم الجديدي، تذكره بعض المصادر أنه كان قد لعب دوراً إنسانياً عند احتلال تونس من قبل النصارى (المؤنس)، ص 175، 177. ويذكره صاحب (عنوان الأريب) محمد النيفر، ج 142/1 أنه اشترك في وفد تونس لعقد صلح قصر جابر سنة 1047 وهو الصلح الذي سيشير إليه المؤلف بعد. ولعل الاسمين مختلفان. وعبارة المؤلف (وأخذ على يد الجديدي...) غير واضحة المعنى، ولا نعتقد أن معناهما أخذ العلم عنه.

(3) لعله يقصد بها حالة الصلاح.

من الجمع والذكر وإعداد الأطعمة والتلامذة حتى ظهر أمره، ولولا ما فيه من العلم والمعرفة اللذين هما زمام الطريقة لكان فيه بعض شيء[1]، إلا أنه استفاض عنه أنه لا يأخذ ما يُعْطَى له لنفسه بل يجمعه ويصرفه للفقراء كان قليلاً أو كثيراً[2]، والله أعلم بصحته، وكان آخر أمره أغلق بابه ولم يخرج لا لجمعة ولا غيرها، وبقي مدة من السنين على هذا الأمر بسبب مَنْ أكثر عليه في الإذاية والإضرار حتى انتقم الله منه، ثم بعد ذلك خرج وحضر لتزويج ابنته من حفيد أبي بكر، كان خطيب[3] الجامع الأعظم بالمدينة المذكورة، وبقي يسيراً وتوفي رحمه الله[4].

وكان يُنقل عنه بذلُ المال للأسرى وبناء ما وهى من المساجد، وأحدَثَ زوايا بأماكن شتّى وجعل خارج سماطها ما يأتي له من العِدَاتِ والصدقات على يد وكلائه، حتى إنه يُنْسب إلى استخدام الجان وجلب المال، والله أعلم بحقيقة أمره. ولنا / به صحبة عن بعد الدار تضمنها الرسائل[5] من الجانبين. ورأيته في النوم مراراً، وأرجو[6] من الله النفع بها يوم القيامة.

236 /

65 ـ [التعريف بسيدي الموهوب بن محمد بن علي رحمه الله]

محمد بن علي الزواوي: وتفكير المؤلف في الهجرة إلى الحجاز:

ومنهم صاحبنا وحبيبنا لله تعالى أبو عبد الله محمد المدعو الموهوب بن الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن علي، كان والده من أهل الخير وتوسم الصلاح، عارفاً بدينه حافظاً على آدابه، إليه تهرع قبيلتُه ومَن يليها، وشاع خبره في جبل زواوة، ومرّ ببلدنا حين انصرافه للحج، وكنت صغير السن فتبركت به، وأتى[7] إلى دارنا واجتمع

(1) أي لألحقه المؤلف بمن كان يتحدث عنهم من أدعياء الولاية والصلاح.

(2) لعل ما يؤيد هذا هو ما أشار إليه صاحب (الحلل السندسية) من أن العسكر بتونس طلبوا من الشيخ أبي الغيث أموالاً إلخ. انظر الوزير السراج المصدر السابق.

(3) يشير إلى محمد تاج العارفين العثماني الذي سيحدث عنه وعن مراسلته معه. انظر أيضاً كتابنا (شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون)، ط. بيروت. 1986. والجامع الأعظم هو جامع الزيتونة.

(4) توفي بطاعون سنة 1031 على أغلب الظن.

(5) تظهر في النص كأنها (الوسائل)، وقد ثبتناها (الرسائل) بالراء، لأن المؤلف سبق أن ذكر (مراسلاته لي).

(6) في الأصل (أرجوا).

(7) في الأصل (أتا).

بالوالد وجالسته معه، إلا أنني بإزاء ولده صاحبنا سيدي الموهوب المذكور.

وكنت إذ ذاك مشغوفاً بالنّقلة لأرض الحجاز، طالباً على الوالد ذلك، فاستشاره الوالد أو خاطبته أنا في ذلك، الشك مني، فسمعته ذكر حديثاً عن سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ أن المؤمن آخر الزمان يموت بين الطرق، أو كما قال، إلا أن هذا معناه وإن لم أتحقق الآن لفظه، قال وذلك أنه يفر من وطنه لِمَا يناله منه من المناكر والظلم ونحوهما إلى وطن آخر يسمع عنه أنه أَسَدُّ وأَصْلَحُ، فينتقل إليه فيجده أفسدَ من وطنه الذي ارتحل عنه وأكثَر ظلماً ومنكراً، فيندم على ارتحاله منه ويظنه أنه فاق على الحالة التي تركه، فيرتحل إليه/فيجده أسوأ حالاً من المكان الذي جاء منه، ولا يزال كذلك بين الطرقات حتى يأتيه الموت وهو على ذلك. وتوفي[1] ـ رحمه الله ـ بعد قدومه من الحج لمدة أعوام. 237 /

محمد الموهوب ولصوص زواوة:

واستقلَّ ولدُه حبيبنا لله المخلص فيه سيدي محمد الموهوب، فقام بسيرته بل أشد، واتّبع سنّته وطريقته في إطعام الطعام والإحسان إلى عباد الله والأخذ بأيديهم وتحصيل النفع لهم. وطريقتُهم المألوفة أنهم يترددون مع القوافل والسفّار المجتازين ببلادهم لكي يأمنوا من مكر أهل ذلك الوطن، إذْ هُمْ لصوص الغالب عليهم استلاب القوافل والسفّار واستئصال أخذهم إلا أن يكون معهم مِنْ أولادِهِ أحد، وربّما اضطره الأمر إلى الوقوف بنفسه في الأمر المهم من كثير أموال أو عظيم قفل[2] لا بدّ فيه من وجاهته. وهذه سيرته وسيرة والده قبلُ، حتى إنه يقال إن لوالده بغلة معروفة وكتاباً معروفاً وشَمْلة معروفة فيُلْجِئون الناس إلى واحد منها إذا تعجزوا أو غابوا كلهم، فيقوم ذلك مقام أحدهم في الأمن لحامله أو راكبه أو نحوه، ونشأ له ولد سماه أحمد، قام على طريقة والده المذكور واستعمل الاحتجاب والخلوة وأثنى الناس عليه خيراً.

وكان / والده[3] أبو عبد الله الموهوب المذكور قَدِم[4] أيام الشيخ التواتي بقصد 238 /

(1) يعني محمد بن علي الزواوي ولا نعرف تاريخ وفاته بالضبط.
(2) أي القوافل وكثرة المسافرين.
(3) والد أحمد الموهوب الأخير الذي اتخذ الاحتجاب.
(4) يعني إلى قسنطينة.

القراءة عليه في النحو، ونزل عندي بزاوية الأسلاف المدفون بها الجدّ عبد الكريم المذكور في فهرسته[1]، وصادفَ صاحبَنا ابنَ[2] راشد قارئاً للمرادي على الشيخ المذكور كما ذكرناه قبل، فبدأ سيدي الموهوب في المكودي وقرأ أياماً إلاَّ وَوَالِدُه[3] أرسل إليه، فترك القراءَة وسارع في طاعة والده، وانصرف، وحج ثانية بعد وفاة[4] والده. أتاني زائراً حين قدومه على البلد المذكور ـ نفعه الله ونفع به ـ فللّه ما أكثر تواضعه وألين طبيعته وأحسن أخلاقه! ولا زال يتردد إليّ بالرسائل واستجلاب المودة والإخاء وطلب صالح الدعاء، عامله الله بنيته وجازاه أحسن جزاء يوم العَرْض والجزاء.

66 ـ [التعريف بسيدي محمد الهاروني، رحمه الله]

محمد وارث الهاروني:

ومنهم صاحبنا أبو عبد الله محمد وارث الهاروني، أصله من الغرب من زاوية أولاد هارون[5] بمتيجة، وطن من عمالة الجزائر قاعدة إمارة المغرب. قدم علي في حدود الاثنين والعشرين بعد الألف[6]، ووجدني في حال بناء دار سكناي التي جدَّدت بناءها قِبْلِيَّ الدَّارِ العليا التي في قِبْلي الجامع الأعظم الأقدم / بالبلد المذكور[7]، وقد كان عَزَمَ على المشرق[8]، ثم إنه لحقه والده، وكان حياً إذ ذاك، وردّه من نواحي تونس. 239 /

عمر الشريف وعلي بن مبارك:

ووالدُه من أصحاب الشيخ المتبرك به عمر الشريف، كان بالقرب من الجزائر، ولنا معه مراسلات. وأخبرني بعض الأصحاب أنه كثيراً ما كان يدعو لنا بالدعاء

---

(1) أي في ترجمته. وقد سبقت، أنظر ص.
(2) كذا (ابن)، ولكن في الهامش صححت على أنها (أبا راشد)، بينما تحدث عنه المؤلف سابقاً وسماه ابن راشد.
(3) في الأصل (وولده)، كما تدل العبارة التالية، وعبارة (إلاَّ ووالده..) أي وفجأة بعث إليه إلخ..
(4) في الأصل (وفات).
(5) في الأصل (هرون).
(6) 1022 / 1613 م.
(7) يقصد قسنطينة.
(8) أي التوجه نحو المشرق للحج أو للعلم أو هما معاً.

الصالح ـ رحمه الله وغفر له ـ. وأخبرني صاحبنا أبو عبد الله محمد وارث المذكور أنه[1] بحالة مُرضية وهَدْي حَسَن وطريقة مثلى، مجانباً للدعوى والابتداع، متبعاً في طريقته الشرع، قائماً بخدمة الطلبة والإحسان إليهم، وتلك عبادته[2]، مواظباً[3] على الأذكار والخلوة، ليّن الجانب حسن السمت والقول والعمل، وكان قبل ظهور أبي الحسن علي بن مبارك المذكور[4]، وبعد وفاته ظهر أمره وانتشر خبره، وقد قدمنا ما بلغنا عنه، فالله أعلم بصحته.

عودة إلى الهاروني وبعض طلاب المؤلف:

ولنرجع إلى الإعْلَام بحال صاحبنا المذكور[5]، فلما أن وصل إلينا راجعاً وعدني بالرجوع لقصد القراءة، لأنه كان أيام إقامته قافلاً[6] لبلده حصلتْ له مذاكرة معي في مسائل نحوية ومشكلات عربية، فحاول عليّ الإقامة لطلب القراءة فاعتذرت له بما أنا فيه وبصدده من شغل البال ببناء مسقط الرأس للسكنى، لأني فار من سكنى الدار / العليا، لِمَا حصل لي من الضيق والتضييق من بعض الأقارب، كما أشرنا إليه في تأليفنا (محدد السنان في نحور إخوان الدخان)، فلم يزل بي حتى وعدتُه حين قدومه مرّة أخرى ـ إن شاء الله ـ يحصل من فضل الله ما يطلبه من القراءة، فبقي في غيبته ما يزيد على العامين، فلم يرعني ذات يوم وأنا جالس بعلو الدار الذي جعلته مصلّى ولمن يستضيفني، إلاّ وهو واقف بوسطه آخذاً في نزع نعاله، فتأملته متثبتاً فيه فإذا به هو صاحبنا المذكور فرحبت به وسلّم علي سلام مشتاق، فسألته عن حاله وما كان سبب مجيئه فقال لي: الوعد الذي كان بيني وبينك، فأنعمت له به.

/ 240 /

ونزل على صاحبنا وحبيبنا لله أبي العباس أحمد بن ثلجون، هو ثالث ثلاثة،

---

(1) يقصد الشيخ عمر الشريف.
(2) كذا (عبادته) ولعلها (عادته).
(3) في الأصل (مواضباً).
(4) لم يسبق للمؤلف أن تحدث فيما لدينا من نصوص عن الشيخ علي بن مبارك. فلعله تحدث عنه في الصفحات التي أشرنا إلى أنها بيضاء عندنا. وقد ظهر علي بن مبارك نواحي القليعة، وكانت لهم زاوية، وتوفي سنة.
(5) أي محمد وارث الهاروني.
(6) في الأصل (قابلاً).

أحدهم[1] الطالب النجيب أبو عبد الله محمد البهلولي، والثاني الطالب أبو القاسم بن يحيى، وكلاهما من جبل زواوة. وقصد بذلك صاحبُنا أبو العباس تخفيفَ المؤونة عليّ، عامله الله بالحسنى، فأجريتُ لهم ثلاثتهم[2] المؤونة واستفتحوا القراءة في المرادي على الألفية، ففتح الله في تلك القراءة بأبحاث ووارد أفكار ما أعجب الجميع نَظَراً واستدلالاً، فلما حصل الختم في التأليف طلبوا عليّ القراءة في غيره، / 240 / فمنعتهم، فبقوا[3] مدة وانصرفوا، ففتح الله عليهم، وصار لأبي عبد الله محمد وارث درس وأصحابٌ وتلامذة، وحق له ذلك لما له من قُوّة الفطنة والذكاء وقبول البحث ووسع العارضة وفصاحة اللسان. وكان يحضرنا عاشور المذكور[4] ولد أبي محمد موسى الفكيرين، فربما يسأل المرات فكنت لا أرد له جواباً لبلادته، وكان قبل جلوسه بدرسنا يقرأ على صاحبنا أبي محمد وارث[5] هو وجماعة أخرى، وربما كان يقرأ على أحمد الفاسي الذي ذكرناه في فهرسته، وله خلطة لا ترضى إذ ذاك.

فكان صاحبنا أبو عبد الله محمد وارث يقول له ولصحبه وجماعته: اغتنموا هذه الشمس الطالعة ببلدكم يا ميشومون[6] أو كلاماً هذا معناه، وربما قال لهم ما دامت هذه الشمس طالعة عليكمْ أنتمْ بخير، ونحو ذلك مما ينصحهم ويحثهم به على القراءة لأنهم كانوا مع جماعة حَضَرِ البلدة. نائين عني قولاً وفعلاً كما أخبرنا ببعض سيرتهم في تأليفنا (محدد[7] السنان).

وكان أبو عبد الله محمد وارث تشكّى لي من أمر عمّه ما أشغل قلبه وأذهل لبه وتعدّيه عليه وطلبه على تزويج والدته أو نحو ذلك، فقد طال عهدي بذلك. فرأى[8]

(1) في الأصل (أخوهم). ويقصد المؤلف أن الهاروني، والبهلولي وابن يحيى كانوا يقيمون عند صاحبه ابن ثلجون، أما المؤونة والقراءة فعلى المؤلف.
(2) في الأصل (ثلاثهم).
(3) (فبقوا) مكررة بالأصل.
(4) هو عاشور القسنطيني الذي سبق ذكره.
(5) يظهر أن هذا غير من يسميه أبا عبد الله محمد وارث. وقد سبق للمؤلف أن ترجم لأحمد الفاسي.
(6) تعبير دارج معناه: أيها المنحوسون!
(7) في الأصل (محدود) وهو خطأ.
(8) في الأصل (فرءا).

في بعض الأيام بيدي قصيدتنا المسماة[1] (سلاح الذليل في دفع / الباغي المستطيل) / 242 التي أولها:

بـأسمائـك اللّهم أبْدِي تـوسلا   فحقّقْ رجائي يا إلهي تَفضُّـلا

فنسخها مني وقرأها علي واعتمدها في دفع الباغي، فما كان إلا يسيراً حتى قضى الله وطره وأظهر أمره وأعلمني بسرعة الإجابة، واستنسخها المغاربة[2]، فهي شهيرة بينهم.

ورجع بعد مدة صاحبُنا أبو عبدالله محمد البهلولي بعد مدة أعوام قبل سنة الطاعون الواقع في عام أحد وثلاثين بعام قاصداً الشيخ التواتي للقراءة فقصده وبقي عنده إلى أن مات بالطاعون[3]، واجتاز هو وصاحبه أبو عبدالله محمد العربي من جبل زواوة أيضاً كان عند الشيخ المذكور، وصحبهُمَا أبو العباس أحمد بن حبيبنا لله سيدي عمّار كان خطيب الجامع الأعظم ببلد الجزائر، وكان ثلاثتهم عند الشيخ المذكور يقرأون عليه وانصرفوا إلى بلادهم. ولما رجع ثلاثتهم بعد موت الشيخ التواتي نزل ثلاثتهم عليَّ وبقوا عندي أياماً حتى صرفتهم لمكانهم.

67 - [الشيخ أبو الحسن علي بن عثمان الشريف]

ومن أصحابنا الفقيه النجيب أبو الحسن علي بن عثمان، الشريف في انتسابه، من جبل زواوة ومن قبيلة تدعى ببني بترون، قدم علينا بقصد القراءة.

مرض المؤلف المزمن:

ووجدني بحال مرض/ أعيى[4] الأطباء دواؤه وتمكّن من قلبي وأزمن[5] / 243

---

(1) في الأصل (المسمات).

(2) المغاربة هنا فيما يبدو هم سكان وسط الجزائر، كما أشار من قبل.

(3) الإشارة إلى الشيخ التواتي، ويفهم من هذا أن الشيخ التواتي عاش بعد طاعون 1031، بينما سبق له أن نص على أن الشيخ مات بالطاعون في باجة تونس سنة 1031. بالإضافة إلى ذلك أنه ذكر سابقاً أن الشيخ التواتي خرج من قسنطينة هارباً حوالي سنة 1023، وها هو يذكر الآن أن الطلبة كانوا يدرسون عليه (مدة أعوام قبل سنة الطاعون) أي سنة 1031، فهل درس هؤلاء الطلبة على الشيخ التواتي في باجة؟.

(4) في الأصل (أعيا).

(5) أصبح مزمناً.

وأنهكني، وكل يوم يَرِد عليّ نوعٌ منه تظهر لي منه حالة الموت، فلا ترى الأهلَ والأصاغر[1] إلا في بكاء ونحيب، وأيِسَ مني البعيد والقريب، ولم يبق لهم حديث إلا في تجهزي لدار الآخرة وما ينالهم بعدي، وتأسف كل محب لله، وبقيت في عنفوانه وابتدائه سنة كاملة لا أكتحل بنوم ولو سِنَة[2] حتى ساعة سهو، والعَرَق يتفصَّد مني من الجبهة كمثل الديمة الهطلاء، في اليوم الشديد البرد الكثير الثلج نازلاً ومستقراً، ومهما تحركتُ أو التفتُ يرتعد شطري الأيسر، ويغشى عليّ في اليوم مراراً، وتلوُّنه وعدم ثبات مجيئه على صفة واحدة هو الذي أوجب تقييده[3] في غير هذا.

وبقيتُ به تلك السنة على ذلك الحال والسنة الثانية كلها كانت السِّنَةُ هي نومي، وأما النوم فلا أراه[4] لا ليلاً ولا نهاراً، إلا ما ذكرنا من السّنَة هنيهة، وأقوم فزعاً من إحساسي بنفسي فاضت، فكأنّها بين عيني، وأهواله أعظم من أن يصفها اللسان، ولا أقدر على ذكر نزر من صفته. إلى السنة الثالثة أُلهمتُ مديحَ سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ فاتخذتُ قصائد في مدحه على حروف الهجاء متضمناً كل حرف من الحروف حرُوفاً تُقرأ من/أول كل بيت في الحرف وتُجمع، فيخرج منها: اللهم اشفني بجاه محمد آمين[5]. فربما وجدتُ الراحة في بعضه بجاه سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ.

244 /

فلازمت ذلك القصيد وجعلته وِرْداً ليلاً ونهاراً، ثم زدت نظماً آخر وسميته (شافية الأمراض لمن التجأ إلى الله بلا اعتراض)، وربما كانت تسميته (العُدَّة في عَقِبِ الفَرَج بعد الشدّة) مبدأه:

بِكَ الله مُبْدِي الخلقَ طرّاً توسّلي   وفي كلّ أزماتي عليكَ مُعَوّلي

---

(1) يقصد المؤلف بالأهل الزوجة، وبالأصاغر أولاده.

(2) أي ولو غفوة قصيرة وسيذكر المؤلف أن هذا المرض بدأه حوالي سنة 1025 (1616).

(3) للمؤلف ديوان شعر خصه لمدح الرسول ﷺ والتوسل به لشفائه من هذا المرض، فهل هذا هو ما يشير إليه بكلمة (تقييده) أو له تأليف خاص بهذا المرض نثراً؟ أو لعله يشير إلى ذكره في أحد كتبه الأخرى؟.

(4) تعبير (لا أراه) مكرر في الأصل.

(5) درسنا هذا الديوان في كتابنا (شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون)، أما الطريقة التي ذكرها فغير صحيحة إذ لا تتوفر على جميع الحروف التي يشير إليها، والصحيح ما ذكره أبو سالم العياشي في هذا الشأن عندما وصف الديوان (وهو معاصر له وحج معه) ومجموع الحروف كما ذكرها العياشي هو (إلهي بحق الممدوح اشفني آمين).

وتوسلت فيه بالنبي المصطفى ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ وأصحابه والتابعين والفقهاء والأولياء، وجعلت ذلك وِرْداً مع القصيد[1] المذكور الذي هو على حروف المعجم، فرأيت من الله الفرج ووقوف المرض إلى غايةٍ لا أتألم منه كثيراً لكنه بقدر ما أتحمل، وأرجو من الله الشفاء منه كله[2].

علي بن عثمان وإجازة المؤلف له:

ولنرجع إلى الكلام على صاحبنا أبي الحسن المذكور، فلما قدم ووجدني بالحالة المذكورة وذلك في ثامن وعشرين بعد الألف[3] والمرض صادفني قبله بنحو الثلاث سنين، وذلك كله بالتقريب[4]، فاعتذرت له بما أنا فيه من ضعف القوى وفساد خزانة الحفظ واضطراب القلب، حتى كأنه أرجوحة دائماً[5] لا يستقر له قرار، ولو ساعة من ليل أو نهار، وما زال على تلك الصفة / وإن ضعف اضطرابه، فبقي ملازماً / 245 لي ولمجالستي نحواً من نصف سنة أو أقل لا أدري، فلمّا رأيتُ من حرصه ما رأيت ساعفته واستعنت بالله، فقرأ عليّ المكودي، واستعان بالتقييد، وبعد ختمه قرأ عليّ المرادي وقيّد عليّ فيه كثيراً ممّا فتح الله به من الأبحاث، ولم يكن معه قبل قراءته شيء يعتد به من العربية، فلم ينفصل من عندي ـ والحمد لله ـ إلا وهو نجيب فيها، فأجزته بعد طلبه، وانصرف، وهو الآن صاحب درس عظيم، على ما بلغني، وأصحاب كثيرة، وأقبلت عليه الدنيا، وصار يطعم الطلبة من عنده ـ نفعه الله بما قرأ ـ.

68 ـ [أبو العباس أحمد بن ثلجون]

أحمد بن ثلجون:

ومن أصحابنا وأحبابنا لله أبو العباس أحمد بن ثلجون المذكور[6]، كان فطناً

---

(1) أشرنا إلى أنه ليس فقط قصيداً واحداً، ولكن مجموعة من القصائد على قوافي مختلفة، فهو ديوان في المديح النبوي. وهو يشير بـ (ذلك) إلى نظمه الذي سماه (شافية الأمراض).

(2) هذا التعبير يدل على أن المؤلف كان ما يزال يعاني من المرض، وأنه كان يكتب مذكراته هذه قريباً منه، أي حوالي 1030.

(3) 1028 هـ/1618 م. ذكر المؤلف أبا الحسن علي بن عثمان قبيل الحديث، عن مرضه، فانظره.

(4) في الأصل (بتقريب).

(5) كلمة (دائماً) مكررة بالأصل.

(6) سبق للمؤلف أن اشار إليه باختصار في عدة مناسبات.

لبيباً أريباً ذا عقل وزي حسن، ورجع رجوعاً حسناً في شَيْبَته، وقرأ القرآن على خاله، شيخِنا في حفظ القرآن، أبي القاسم بن عيسى الملقب بثلجون، ونسبته[1] من قبايل زواوة، واتصف بالنسبة إلى ثلجون قرابةِ أبي العباس لأنه تربيتُهم وصهرُهم. وكان أبو العباس يقرأ النحو قبلنا على الشيخ التواتي ويقرأ الفقه لابن الحاجب وعلم الكلام من عقائد السنوسي، عليه أيضاً. وبعد مدة اجتمعتُ به في القراءة على الشيخ المذكور، وبعد/ انفصال الشيخ[2] من قسنطينة، لازمني للقراءة عليّ في ابن الحاجب وعلم الكلام والرسالة والنحو والمرادى وغيره، وفي قراءة البخاري أيام إقرائي فيه، وكان مجالساً موانساً، نعم الجليس ونعم الأنيس، مع رزانة وعدم طيش. / 246

وكان أيام علتي المذكورة وعنفوانها[3] هو المؤانس وحْشَتي والمسهّل خَطْبي باستجلاب الأحاديث المستطرفة والأخبار المُسرة، وربما ألح عليّ في الخروج إلى المسجد الأعظم يماشيني ويسهل عليّ ألمي، ولا يزال معي كذلك إلى أن يحس بإرادتي الرجوع إلى بيتي فيشيّعني، ويتعاهدني صباحاً ومساءً بذلك أجزل الله عليه نِعَمه بين يديه.

وكان طلق اللسان فصيح الكلام يخرج الحروف من مخارجها، ذا خط حسن ورونق[4] وبهاء، وكثيراً ما يذاكرني في أحوال الموتى من حيث إنهم لا يريدون سؤالهم عن حالهم وما هم فيه. وتوفي ـ رحمه الله ـ في الطاعون شهيداً به في سنة أحد وثلاثين بعد الألف[5]. وكان ـ رحمه الله ـ لا تراه إلا سائلاً عن أمر دينه وما يحقّ عليه. وكان محافظاً على زكاته، وربّما استشارني في صرفها لمن يليق، ورأيته بعد موته في النوم، فسألته عن حاله فذكر لي خيراً، في رؤية طويلة، وتكرر سؤالي له عن أحوال البرزخ/ والملكين، ومنعني من استيفائها التطويل، وحسبنا الله ونعم الوكيل. / 247

---

(1) يشير المؤلف بكلمة (نسبته) إلى أبي القاسم ثلجون وليس إلى أبي العباس.
(2) يقصد الشيخ التواتي الذي فر إلى باجة تونس، كما عرفنا.
(3) في الأصل (غفاوانها).
(4) في الأصل (نورق).
(5) 1031 هـ/ 1621 م.

69 ـ [أبو عبدالله محمد الباقلمامي، رحمه الله ونفعنا به، آمين]

محمد البوقلمامي:

ومن أصحابنا وتلامذتنا أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن البوقلمامي، كان ذا عقل جيد وفكر رصين، بطيء الفهم ثقة فيما يفهمه، وكان صالح الحال يحب الطلبة ويواسيهم من ماله، وأبوه المذكور صاحب نية واعتقاد، وكان ملازماً للقراءة عليّ كثير السؤال واقفاً على الجدِّ والاجتهاد لا يعرف هزلاً، ناطقاً بالحق ولو على نفسه. توفي في الطاعون المذكور[1] شهيداً به ـ رحمه الله وغفر له ـ.

70 ـ [أبو عبدالله محمد بن ناجي، رحمه الله، آمين]

محمد بن ناجي:

ومن أصحابنا أبو عبدالله محمد بن ناجي، (كان)[2] ذا أدب وتواضع ولين جانب وفكر وفصاحة قلم ولسان، وربما يستعمل الشعر، ومَدَح به مراراً، وله مشاركة في علم القراءات والأوقات، وصار له درس يجتمع عليه أناس، يقرأ الرسالة وغيرها حين تركت التدريس، أعَانه الله ونفعني وإياه بما أعلم وأورثنا علم ما لم نعلم.

71 ـ [أبو عبدالله محمد بن باديس، رحمه الله، آمين]

محمد بن باديس:

ومنهم أبو عبدالله محمد بن أبي زكرياء يحيى بن باديس المذكور في فهرسته[3]، كان يقرأ معنا على الشيخ التواتي آخر أمره، وبعد ارتحاله استقل بالقراءة عليّ وهو من موثقي البلدة وممن يشار إليه[4]...

* * *

(1) أي سنة 1031 هـ/1621 م. في الهامش كتب الاسم الباقلمامي. بالألف.

(2) ما بين القوسين زيادة منا.

(3) فهرسته: ترجمته.

(4) بعد هذا انقطاع قدره ثلث سطر، يتلوه نقص ثلاث صفحات حسب ترقيم من المخطوط (من صفحة 248 إلى صفحة 250)، غير أن الكلام الذي تبدأ به صفحة 251 يدل على مواصلة الحديث عن محمد بن باديس نفسه.

/251 . . . /نَدَبْتهُ[1] غير ما مرة لِتَرْكِ الانتصاب بين الناس، فاقتصر على مَنْ يأتيه لداره، وله نية وصحبة حسنة وخلق حسن، سافر معي[2] مرة أو مرتين فلم أر منه مِنْ لين الجانب وبساطة النفس ومساعفة الأمر إلّا خيراً، وحق له ذلك، وهو من دار العلم والصلاح كما ذكرنا أسلافه، نفعني الله وإياه بالأعمال الصالحة، وجعلنا ممن تجارته يوم القيامة رابحة. وكثيراً ما يُكاتبُني بالمسائل وأجيبه عنها. وكتب لي مرة إشكال ما وقع لابن عطيّة في إعراب: ﴿ ولأتِمَّ نِعْمتي عليكم ﴾[3]، فأجبته عنه، فاتفق أن رفعه معه لمصر وعرضه على أبي العباس أحمد المقـري، يطلبه في الجواب، وما أنصف ـ وفقه الله ـ وأجاب[4] بما سنذكره بعدُ ـ إن شاء الله ـ حين التعرض لذكره في خاتمة الأحباب لله، كما تدعم[5] رسالته بذلك.

72 ـ [أبو العباس حميدة بن باديس]

حميدة بن باديس:

ومن أصحابنا وأحبابنا لله أخوه أبو العباس المدعو حميدة وهو المذكور في فهرسته، كان في ابتداء أمره مخالطاً للأمراء كاتباً بين أيديهم بالبلد المذكور، وربما كتب بين يدي بعض أمراء قاعدة الجزائر[6]. وله بها معاشرة وجوار، وكان أديباً أريباً عاقلاً ضَنِّينَ العِرْضِ مع منصبه ذلك/ لا ترى الناس إلّا مادحين فيه، يقضي حوائجهم / 252 ما استطاع ويظهر لهم من البشاشة واللين والبرور ما يتودد به لكل من قصده. وحصل بيني وبينه إذ ذاك مودّة وإخاء إلا أني أنكر عليه ما هو فيه، وأبتهل إلى الله في خلواتي وجلواتي أن يرده إلى منصب آبائه وأسلافه[7].

ولقد اتفق لي معه مرة ما صدقني الله بها أن وقع بينه وبين أبي عبدالله بن

---

(1) أي محمد بن باديس. ويبدو أن الكلام، رغم القطع الذي أشرنا إليه، متصل حول نفس الشخص.
(2) لا ندري إلى أين سافر معه. والظاهر أن المقصود السفر إلى الحجاز للحج، وقد يكون السفر محلياً فقط.
(3) سورة (البقرة)، الآية (150). وفي الأصل (ولأتم لكم).
(4) أي أحمد المقري كما سيذكره. وعبارة (وما أنصف) السابقة يشير بها في الظاهر إلى أحمد المقري، ولكن تصح أيضاً عن محمد بن باديس.
(5) كذا (تدعم) والمعنى واضح، ولكن يصح أن تكون (تزعم).
(6) أي كان أيضاً متصلاً بحكام الجزائر كاتباً لهم ومقيماً قريباً منهم بالعاصمة.
(7) يقصد به العلم، وإلا فعائلة ابن باديس قد تقلدت أمور الدولة أيضاً في الماضي.

نعمون[1] نزاع ومشاجرة بين يدي أمير البلدة الذي كان يكتب بين يديه، وكان الأمير المذكور له محبّة في أبي عبدالله المذكور لأنه كان شاهدَ بيتِ مالِه ومَجَابِيهَا على يده، مع استعماله في شهادات يستعين بها على أمور رعيته، حسبما هو معلوم فيمن يوالي الأمراء ويوادّهم ويتقرب إليهم، فقال له[2] الأمير معاتباً له على أبي عبدالله المذكور: اقصرْ يا فلان ليست منزلتك مثله، ذاك مفتيٌّ! فرفعها أبو العباس رطبة إليّ وأخبرني بها لِما كان بيني وبينه من الود لله، فشرح الله صدري إذ ذاك أن قلت: الله تتولى ـ إن شاء الله ـ خطته! فاستعظم ذلك مني لبعده إذ ذاك كلَّ البعد، فلم تمض إلاّ مدة إلاَّ وهو تولى خطابةَ جامع قصبة المدينة، وأنا لا أفْتُر عن الدعاء لله والالتجاء إليه في / نقله من عمالة الأمراء وخدمتهم. / 253

وكنت أنشأت له خطبةً من فكري استَفْتَحَ بها صلاة الجمعة الأولى، ضمنتُها التوبة وقبولها وإنعام المولى بها عن العباد، فجاءت حسنة بليغة في معناها كما هي مذكورة مع جملة الخُطَبِ التي أَلَفتُ[3] في غير هذا، وبعد زمن يسير ترقى للإفتاء فصار يفتي مع أبي عبدالله المذكور، فلم ينْشب إلا وقد استقل بالإفتاء في زمنه، وعزل أبو عبدالله المذكور، كما ذكرناه قبل في فهرسته. ولم يزل على الوداد وزيادة المحبّة لله وحمدت الله تعالى على ذلك، وأظهر لي من تنسكه إذ ذاك ومواظبته[4] على السنن والمندوبات ما سررت به من حالـه وأفعالـه.

فلمّا استقل بالإفتاء وترأس وتوفي أبو العباس الغربي المذكور[5]، صرت أخاف عليه من الوساوس الشيطانية الإنْسية والجنيّـة، وأخوف ما أخاف عليه الرجوع إلى حالته الأولى من أخذ الرشا والتعرض له، فلم يكن إلا يسير حتى عجرت[6] الآذان بذلك، وصرت أنهاه وأزجره، فيحلف لي بالأَيْمان العظام على عدم ذلك وأنهم كذبوا عليه. ويذكر لي أن الواشين أرادوا تغير خاطرك / عليّ، فصرت حيران من شأنه إذا / 254

(1) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.
(2) أي لأحمد بن باديس.
(3) فهمنا نحن من هذا التعبير أن للمؤلف مجموعاً لخطبه أو نحو ذلك من الأعمال التي ضمنها خطبه.
(4) في الأصل (مواصبته).
(5) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.
(6) كذا (عجرت) ولم نتبين معناها إن كانت صحيحة.

نظرتُ إلى كثرة النقل[1] وتعداد القائل أرجح القول عليه، وإذا نظرتُ إلى أيْمانه وما كنت أرى منه أضعفه، حتى حلّ الوباء بالبلد الواقع سنة أحد وثلاثين (وألف)[2]، فاشتهر أمره واستفاض خبره، ولما أحس باستفاضة النقل وغلبة الظن وظهر له مني الزجر، قطعني وباعدني حتى يجد سبيلاً إلى استطالته في فعله المذكور، وصار يبلغني عنه أقوال تقتضي عدم مبالاته بكلامي، وأن الأَوْلى بي السكوتُ عنه.

قضية عائلية لابن باديس مع المؤلف:

ويصرّح، على ما قيل لي، بترك المحبّة، حتى وجد سبيلاً إلى إظهار كامنه وما يودع (حَ)[3] من المباعدة والهجران، وذلك بموت زوج ابنه، وكانت أخت والدتي، وتركها وإخوتَها جدي إلى نظري، ولم تزل والدتهم في كنفي أَدُبُّ عليها بما أقدر عليه، فصاهرتْه الأمُّ بالابنة المذكورة وأخرجت لها جهازاً شاطّاً[4] على ما نابها في إرثها في والدها ومن ورثته من إخوتها، على ما ذكرت والدتها، وأودعت الوالدة في الزائد، ولا علم لي بذلك إذ ذاك، فلما استظهرتْ به زاد في البعد وأظهر الأنفة، وصار يتوعد زوج الجد والدة البنت بالخسارة من الأمراء وغير ذلك ممّا لا يليق ذكره، وربّما شافهني به، فلما رأيت/ من وصفه ومشافهته بما ذكرناه عنه وغيره ما يفضي به إلى العطب، وبها إلى خسارة المال وهتك الحرمات، ندبتُها إلى مساعفته إلى ما طلب من المال فامتنعتْ ثم أجابت وأعطته مالاً على الصلح.

/ 255

وبعد أخذه لم يزل طالباً، وربما يتفوه في المحافل ويعلن في ناديه وغيره من المجالس بأن ما رده عن طلب حقّه واستيفائه إلا فلان، يعنيني ويجعله في قالب الحياء مني لمن يعرف أنه يوادني لله وفي قالب التمنع منه بي والتعصب لمن يعلم أنه مبغض لجنابي، وجعلتُ في نحور الجميع الجبار الذي لا يُخْفَرُ من لاذ به واستجار بحماه، والنصفة بيني وبينهم بين يدي أسرع الحاسبين. ثم بعدها أظهر ما كان كامناً

---

(1) يعني نقل الأخبار.

(2) 1031 هـ/ 1621 م. وما بين القوسين زيادة منا.

(3) ما بين القوسين في الأصل رمز هو (حَ) ولم نهتد إلى معناه.

(4) أي زاد زيادة، فاحشة عما عندها.

في باطنه، ولاذ بأبي عبدالله المذكور[1] وغيره، وصاروا ينمقون مجامعهم بذِكْري، ومحافلهم بشأني وأمري، وكِلْتُهم إلى الله. وأقول ما قال نبي الله هود ـ صلى الله عليه وسلّم تسليماً ـ: ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم﴾[2].

73 ـ [أبو العباس أحمد بن الحاجة]

أحمد بن الحاجة:

ومن أصحابنا وأحبابنا للّه تعالى أبو العباس أحمد يلقب بابن الحاجة[3] (كان)[4] ذا فكر متين/ وذهن ثاقب، حسن السمت والخَلْق والخُلق ومعه نجابة ودراية، تولى النيابة عن القضاة[5] ببلد ميلة أول أمره، ثم تولى نيابة بلد قسنطينة. وكان كثيراً ما يراسلني عن بعد ويشافهني عن حضور بمسائل تعرض له أو يستشكلها[6]، ومن ذلك واقعته المذكورة مع أبي إسحاق إبراهيم الحركاتي كما ذكرناه في ترجمته، وهو حلو اللسان كثير البشاشة لا تراه في غالب أحواله إلا ضاحكاً مستبشراً، كثير السخاء والجود على قلة ذات يده، له في جنابي حبّ للّه أرجو من الله نفعه به يوم المعاد، وله يد في الذب[7] عني ووقايتي بنفسه، عامله الله بأفضل الجزاء. وكثيراً ما أنهاه عن تعرضه للخطة المذكورة فيخجل احتشاماً ويبدي ابتساماً، ويستجلب الدعاء مني في خلاصه منها، مع اعترافه أنه فيها على خطر.

/ 256

74 ـ [أبو إسحاق إبراهيم الجزيري]

إبراهيم الجزيري:

وله نظير في محبته لجانبنا، وهو من أحبابنا للّه أبو إسحاق إبراهيم الجزيري

---

(1) أي أبا عبدالله محمد بن نعمون.
(2) سورة (هود)، الآية (56).
(3) سبق للمؤلف ان ذكره باسم أحمد الحاجي، انظر ترجمة إبراهيم الحركاتي.
(4) ما بين القوسين زيادة منا.
(5) في الأصل (القضات). وقد سبق أن نبهنا إلى أن هذه الوظيفة (النيابة) تشبه وظيفة (باش عدل).
(6) في الأصل (يستسكلها).
(7) في الأصل (الذّب).

صاحب خطة الوثيقة[1] بالبلد، وقرأ في أول حاله على عمّه أبي زكرياء يحيى المذكور في فهرسته[2]، وقرأ قليلاً على الشيخ التواتي، وأنكرتُ عليه تعاطيه لبعض أمور مخزنية لا أرضاها له وليست من شأن أمثاله، وهو معترف بخطئه[3] في ارتكابه لها/ 257 / ويتعلل لي بالخوف على نفسه من الأمراء عند انسلاخه منها وإبايته عليها، ويستجلب الدعاء لخلاصه من ذلك، عامله الله بلطفه وكل أحبابنا للّه تعالى.

عودة إلى ابن الحاجة:

ولنرجع إلى صاحبنا أبي العباس المذكور، كان معنا ـ نفعه الله بنيته ـ كالولد مع الوالد في غاية البرورِ والتواضع وحب النفع لنا، وقد اتفق له حين وقع اجتماعه مع السيد أبي إسحاق إبراهيم الغرياني[4]، من بيتات القيروان وأكابرها، ولهم ولأسلافهم صيت عظيم بتلك الناحية، ولهم زاوية يُطْعَم بها الغرباء والواردون، واجتمع أيضاً بالسيد الإمام الخطيب أبي محمد تاج العارفين حفيد السيد أبي بكر الأموي[5] في نسبه، كذا رأيته بخطه في مراسلاتهم، وهم أيضاً دار علم وصلاح وجده كان خطيباً بجامع الزيتونة بتونس بعد امتحانه الواقع له.

وكان خروج المذكورين رسلاً من قبل عسكر تونس قاصدين الصلح مع عسكر الجزائر في الواقعة التي وقعت بينهما في عام سبعة وثلاثين (وألف)[6]. وكان أبو العباس صاحبنا المذكور ممن توجه مع عساكر الجزائر المحمية، فتذاكر السيدان مع حبيبنا للّه أبي العباس، شأني وما أنا عليه من طباع جبلني الله عليها هي عند صاحبنا/ 258 / المذكور حسنة، والله يعلم المفسد من المصلح، جزاه الله عليّ بنيته خيراً ووالى عليه

(1) أي وظيفة كتابة الوثائق الشرعية. ويقصد بالبلد هنا قسنطينة.
(2) لم يترجم المؤلف لمن اسمه يحيى الجزيري، وإنما ترجم لأحمد الجزيري.
(3) في الأصل (بخطائه).
(4) عن إبراهيم الغرياني انظر (عنوان الأريب) ج 140/1، تأليف محمد النيفر، ولم يذكر وفاته، ولكن ذكر له قصيداً طويلاً في البديع.
(5) تذكر مصادر أخرى أيضاً أنهم من سلالة الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، رضي الله عنه.
(6) 1037 هـ/1627 م. وما بين القوسين زيادة منا.

أجراً، وجعلني[1] له في[2] المعاد ذخراً[3]. فراسلاني برسالتين[4] من كل واحد رسالة أفصحا فيهما وأجادا اللفظ وبلاغته، وحسّنا النظم وبراعته، ونسقا فيهما من البديع الشكل إلى شكله، ولسان حالهما ينادي فأتوا بسورة من مثله، وإذ بلغ الكلام إلى هذا المقام، فذكرهما هنا مما لا يلحق فيه ملام.

رسالة تاج العارفين للمؤلف:

فنص رسالة الخطيب الإمام أبي محمد تاج العارفين[5]:

«الحمد للّه الذي أطلع شمس الطلعة الفكونية من الأفق الغربي، ويا عجباً من طلوع الشمس منه أماناً للعالم، وجمع فيها ما افترق من شتات العلوم في كل نحرير عالم، وأزاح بها سحب الإشكال، وأراح بها من سجف الجهالة المخدِّرَةِ لوجوه المعاني والأشكال، وقيد بها شوارد العلوم، وقرن بها على طريقة التحقيق بين المنطوق منها والمفهوم؛ أحمده حمدَ من رغب إليه في استصواب الصواب، وأشكره شكر من علم أن شكره سبحانه هو غاية المرغوب والثواب؛ وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، شهادة عبد محقق في إيمانه، مخلص في عرفانه وإيقانه؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذي أوتي من الكلم جوامعه، وعمر به/ من كل سبيل صوامعه وجوامعه؛ اللهم صل وسلم عليه وعلى آله أولي الجد والتحقيق، وأصحابه خير صحب وأكرم فريق، ما ذَرَّ شارق وشرق غارب، وسكب هاطل وهطل ساكب. / 259

وبعد، فسلام يسابق النسيم ويجاري برقته نفاسة التسنيم، يصافح الروض فيكتسب من نشره، ويفاوح الأزهار فلا تجد أذكى من زهره، يَسْتَرِقُ العنبر من عبيره، ويسترقّ المسكَ لفوته عنه في كثرة الشم وتكريره، كما قلت:

---

(1) (وجعلني) كتبت بدون تنقيط حرفي (النون والياء).

(2) حرف (في) مكررة بالأصل.

(3) في الأصل (دخرا).

(4) في الأصل (برسالين). وهو يقصد الغرياني وتاج العارفين.

(5) انظر ترجمته في (تراجم المؤلفين التونسيين) لمحمد محفوظ، ج 154/1. وقد حصلنا نحن على نسخة أخرى من هذه الرسالة من المكتبة الوطنية التونسية وضمناها كتابنا (شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون) ط. بيروت، دار الغرب الإسلامي 1986.

أُهــدِي إلــيـكَ سـلامـا يُـفَـاوِحُ الـنَّـدَّ نَـشْـرُه
يَـلْقـاكَ مِـنْ كـلِّ فـجٍّ إذا تـلـقّـاكَ بِـشْـرُه

أهديه إلى كذا وكذا[1] (وعدَّد من الأوصاف الجميلة ما أنا خالٍ منها ولو من[2] بعضها ولا أستحقها عِلْماً وعَمَلاً، لكن أرجو من المولى الكريم بجاه نبيه سيدي ومولاي ومخْدُومي[3] الأسمى محمد صاحب الجاه العظيم أن يجعلني كما يظن الخلق بي ولا يفضحني بينهم في الدنيا ولا في دار[4] الآخرة، إنه جواد بَرٌّ رحيم. ثم قال بعد الأوصاف المذكورة)[5]: من لنا إلى حبه ركون، سيدي عبد الكريم الفكون، كان الله له في الحركات والسكون، آمين.

الصلح بين الجزائر وتونس عام 1037:

هذا واعلم أيها الصديق الحميم، أذاقنا الله وإياكم بَرْدَ الرضى والتسليم، أنه رَقَمْته والخجل في الوجنات يبدي حُمْرته/ ، والوجل يظهر تارة صفرته[6]، في منزل به خيام المحال[7]، أسأل الله أن يجعل الإسعاد بها لا من الحال. وقد تفاءلنا[8] باسمه جابر[9]، وقَدْ طاب منه مشربه الرائق الزاهر، منزل جبر الله فيه القلوب، ويَسَّرَ فيه كل مطلوب ومرغوب، من إصلاح الله سبحانه بين عباده، ورد سيف المعاند والكائد في أغماده.

/ 200

(1) حذف المؤلف الأوصاف التي وصفه بها تاج العارفين تواضعاً منه، وقد جاء في نسخة تونس من هذه الرسالة ما يلي: «أهديه إلى السيد الفقيه، العالم العلَم النزيه، النحرير المتقن الوجيه، مَنْ لنا إلى حبّه ركون الخ.».

(2) في الأصل (ولوو من).

(3) في الأصل (مخزومي).

(4) في الأصل كانت (الدار) ثم صححت في الهامش (دار).

(5) ما بين القوسين من كلام المؤلف.

(6) في الأصل (صفرة).

(7) المحال جمع محلة وهي المعسكر أو الفرقة العسكرية.

(8) في الأصل (تفاولنا).

(9) يشير إلى أن اسم مكان الاجتماع للصلح اسمه (منزل جابر) وهو معروف في الكتب باسم (قصر جابر)، وكان ذلك سنة 1628/1037 ، نتيجة لواقعة بين الجيشين الجزائري والتونسي، وهو الصلح الذي تحددت به الحدود بين البلدين.

وموجبه أوجب الله لكم السعادة، ويَسَّرَ لكم أسباب الحسنى وزيادة، إن السيد الفقيه المشارك الوجيه سيدي أبا العباس أحمد بن الحاجة، جعل الله حسناته في أسواق القبول رائجة، هو ومن معه من السادة الفقهاء الأعيان، شنَّفوا أسماع الفقير، بما لا يسعه وقع لسان القلم وإملائه على الطرس والسطير، من محاسن أخباركم التي تراءت لنا منهم بكل وجه جميل، وكرروا علينا عائدها الذي وصلونا به في البردين[1] والمقيل. ولقد قلت في ذلك:

شغفْتُ بكم لما تَشَنَّفَ مسمعي وعشقُ الفتى بالسمع مرتبةٌ أخرى

لا جرم كاتبناكم وأيدي الأشواق تتلقف حبّات القلوب، وقد شبّ عمرها عن الطوق وكفى أن علم ذلك علام الغيوب. وأعلمكم أني لا أنساكم من الدعاء، كما أني أطلب ذلك منكم لا سيما بإصلاح/ الوعاء، فإن الدعاء بظاهر الغيب مستجاب، والتحابب في الله في هذا الزمان الصعب من العجب العجاب، ولا تنسنا من مكاتبكم مع الواردين، كما أنها ترد إليكم منّا مع الصادرين، سقاكم الله رحيق الود في كاسات الإخلاص، وأورد صحائفكم مبيِّضة الوجوه مع زمرة صحائف أهل الاختصاص، ومن معنا من الجماعة وهم: سيدي محمد العامري، وسيدي علي الشرقي، وسيدي محمد الأندلسي، وسيدي الحاج عون الله[2]، يهدون إليكم أطيب السلام، ويخصونكم بالتحية والإكرام، ويطلبون صالح دعواتكم، في خلواتكم وجلواتكم، ومَعَاده عليكم منا ورحمة الله تعالى وبركاته.

رَقَمَهُ بأنامل التقصير، العبدُ العاجز الفقير، المذنب الجاني، محمد تاج العارفين العثماني، لطف الله تعالى به بمنّه، بتاريخ أوائل شهر قعدة الحرام من عام سبعة وثلاثين وألف بقصر جابر، جبر الله صدع قلوبنا، وغفر عظيم ذنوبنا، وجعل

261 ظ

(1) يقصد بـ (البردين) التمر والماء.

(2) هؤلاء أعضاء الوفد التونسي في لقاء الصلح المذكور، وسنعرف أن إبراهيم الغرياني كان أيضاً منهم، وتذكر مصادر أخرى مثل (عنوان الأريب) ج 142/1 أن من بين أعضاء الوفد أيضاً الشيخ رمضان أفندي، وإبراهيم الجديدي. ومما يذكر أن محمد محفوظ في (تراجم المؤلفين التونسيين) 155/1 جعل إبراهيم الغرياني وإبراهيم الجديدي واحداً. أما الوفد الجزائري فلا نعرف منه سوى أحمد بن الحاجة رغم أن عبارة تاج العارفين، وهي (ومن معه من السادة الفقهاء الأعيان) توحي بوجود غيره من العلماء.

استعدادنا لمعاده، وتوفر دواعينا فيما ينجينا ويقربنا منه زلفى بمنه ورحمته، وصلى الله على مسكة الختام ولبنة التمام، سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام».

/ 262 قلتُ، وقد وقع له شَكْلُ/ جوامعه من قوله: (الذي أوتي من الكَلَم جَوَامِعُهُ) بالرفع بخطّه وكذا شكل عينَ (جوامعه) من السجعة الثانية بالرفع أيضاً، وهو لا يصح في الأولى أن يكون مرفوعاً، وحقه النصب مفعولاً ثانياً بأوتي، وعليه درك[1] بعد هذا في تخالف السجعتين، لكن العذر له قائم حالاً وصفة أشار إلى بعضه وبلغنا بعضه، على أن السجعة الأولى إذا نُصِبَت على طريقها يصح في الثانية نصبها ولا مانع، فيتم أمرُ السجع ويأتي على المراد.

رسالة إبراهيم الغرياني للمؤلف:

وكتب السيد أبو إسحاق إبراهيم المذكور ما نصه:

«الحمد للّه، وصلى الله على أكرم خلق، وعلى آله وصحبه الكرام الأجلّة.

يقول العبد الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن عبد اللطيف الغرياني، لمّا دعاني داعي الحب والتودد إلى سيدي عبد الكريم الفقون وطلَب الدعاء منه لي ولأولادي، أردت أن أكتب له هذه العجالة، وأسأل المولى أن يجود علينا نواله، وهي هذه كما ترى، وذلك بعد أن ألهمني إلى ذلك الحبيب الصديق سيدي أحمد بن الحاجة، جزاه الله عني خيراً دنيا وأخرى، لأنه محب صديق، وكان لي في غربتي رفيق، وعليّ شفيق.

/ 263 الحمد للّه الذي خلق الأرواح جنوداً مجنّدة فما تعارف/ منها إيتلف، وما تناكر منها اختلف، وجعل في الغالب أن الخلف تبع للسلف، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أولي المختلف والمؤتلف، ما نظم ناظم واستنبط[2] وألف، وبعد فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن سيدي عبد اللطيف الغرياني

---

(1) أي عليه تبعة الخطأ.

(2) في الأصل (استبط).

القيرواني، خديم الزاوية الشريفة ذات المعاني، المعمورة لبثّ العلوم والحديث وإقراء كتاب الله والسبع المثاني، إنّ أحسن الاعتقاد وطلب الوداد أغراني أن أتطفل على ساحة الشيخ الإمام الرباني، سيدي عبد الكريم الفكون الخطيب الحقاني، وأكتب له أبياتاً تكون راسخة للوداد وتبلغني بدعائه غاية المراد، بفضل الملك الجواد، وأسأله أن ينظرها بعين الرضى، وأن يُسْدلَ عليها ذيل الاغضا، لأني كتبتها وأنا مشوش البال بالسفر، وأنا عند نفسي أقصر وأصغر، وقد قدّمتها مقدمة مهملة الحروف، مصلياً ومسلماً على النبي الرؤوف، وعلى آله وأصحابه[1] ذوي الخيرات والمعروف. وكان فيها حالَ الإقامَةِ بمكان يقال له قصر جابر، حين قدومنا للصلح بين السادة الجيشين الأكابر، صحبة مولانا وسيدنا أبي العز / تاج العارفين، ذي[2] والإحسان والتمكين، في غرة قعدة الحرام، من عام سبعة وثلاثين (وألف)[3] من هجرة خير الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. / 264

وهذه المقدمة كما ترى: الحمد للّه وحده، وصلى الله على مولى اللواء والحلل، دواء أهل الهموم والعلل، موصل أصول أحكام الهدى لأهل الدول والملل، وعلى آله وأهل وده الكرام الكمل، ما هلّ صادع وصدع وهلّل، حمد الله هو أولى ما سطروصدّع المهلل، أول الحكم والمصارع، وأحلى ما مرّ ورد على المسامع، وأسعد ما رصع على أصول العلوم والمطالع، وأود ما حرر واطرد على سمع السامع، وأعلى[4] ما أهداه السعد إلى المساعد والمطاوع، وأكد ما أولاه الصلحاء لكل والع صادع، ومهما[5] كلل حلل الكلام على علا الدرر واللوامع، وهو المُوَصِّل والمُوصِلُ إلى سمو أعلى المطالع.

أحمده حمد مملوك مادح حامد طامع، وأوحده وهو الواحد الملك المالك كل مصل وراكع، وأدعه[6] ما سطر أهل الأود الهوامع، لا إله إلاّ هو وحده لا حاكم معه

(1) في الهامش تعويضها بـ (وصحبه).
(2) يبدو أن هناك كلمة ساقطة بين (ذي) و(والإحسان) مثل (ذي البر والإحسان الخ.).
(3) 1628/1037 وما بين القوسين زيادة منا.
(4) في الأصل (أعلا).
(5) في الأصل (مهمى).
(6) كذا (وادعه) ولعلها (وادعوه).

ولا وال ولا مطالع، مصل ومسلم على الرسول الطاهر المراد حامل لواء الحمد والمحامد، وأكرم كل مكرم وأحمد كل حامد، وعلى آله وأهل وده السعد الكرماء على المساعد والمساد/ أهل العطاء والإكرام للمسعد والمساعد والطرد والعدم للمعدوم والمحادد، أرسله لهم لامد[1] إلى أحلا الكؤوس وأوسع الموارد، ما كمل ورد وسعد الصاعد والوارد، وما هل مهل وساح وروى كل طالع وصاعد، الإمام العالم العلم، العدل الصالح المكرم، الأمر الممدوح المسلم، مسيل أهل الحلل والحلا، وكمال أهل الكمال والعلا، مادحكم صار مسامراً للسها، وعلى عهدكم ما كلّ ولا سها[2]. وحرم الطعام والسها، وما وصل إلى مراد وهام ووصل، وعلى كل مدحكم ما حصل، هل وعسى ولعل، ها هو مساع للطرس والمراد[3]، مول على دوام مدحكم سائلكم الامداد، والله أسأل الصلاح والسداد، وصلى الله على أكرم مرسل، ما هل هامع الدمع المرسل، وعلى آله أهل الموصول والمسلسل، ما صاح على الدوح حمام سلسل، وحلا كاس عسله المسلسل.

قصيدة الغرياني في المؤلف:

وهذه القصيدة كما ترى:

هل مَنْ يبلّغ ذات الحلي والحُلَل	سلام صبّ بُلي بالهجر والخلل
بُنَيّة بنت عشر عرف بنيتها	يُحيي النفوس ويُبْري القلبَ من علل
ليلية الشعر الهندي مفرقها	مبيضّة مثل ضوء في السماء علل[4]
وردية الخد قنوا الأنف مَنْ مزجتْ	بكأس مبسمها الراووقَ بالعسل/
دريّة الشنب الشَّهْدِي قد منعت	شربي فصرت بها كالشارب الثمل
وقد تَلأْلأ من ترتيب طرتها	صبحٌ وليل توالى البدر في أفل
تلثمت بلفاعٍ من ظفائرها	تروم لدغَ قُليبٍ بالغرام بُلِي
وقد رمتْ رميةً رامت لها كبدي	فصادفت صدفاً في نيله فللي

(1) كذا، ولم نفهم معنى هذا التعبير. وقد تكون (لأمر).
(2) في الأصل (سهى).
(3) كذا، ولعل (المداد) أولى.
(4) في الأصل (علا)، ولعل صواب الكلمة (عَلِي) من العلو، فيكون التركيب (في السماءِ عَلِي).

برنية الزِّند شدت فوق معصمها ... شباك تبر لصيد الصب كالحِبَلِ
هيفاء مغنجة نجلاء مدعجة ... حوراء مكحلة لكن بلا كحل
عـدَتْ وعادت إلى العدوان مسرعة ... ولم تَعُدْ مُعْدِماً قد حل في الوحل
رزينة الردف في تدوير سرتها ... عبيق مسك وكافور بلا زلل
وقلبها مثل صخر في قساوته ... يا ليته لَيِّناً كالخصر محتفل
وليت دهري إذا ما جئتُ آمله ... يكون لي حكَماً يقضي عليّ ولي / 267 /
تفلتت أتْلفتْ لُبِّي وما انْفَتَلَت ... يا ليتها التفتت عطفاً على وهلي
فقلتُ هلاَّ أقلتِ[1] عثرتي قُرَباً ... قالت لقد قِلْتُ عمّت وهي في شغل[2]
تفندت خيل شوقٍي ربعي[3] مهجتي ... روجت صون فؤادٍ بالغرام بُلِي
غارت جيوش النوى بالصد قاتلة ... ترمي سهاماً لعدمي من قِسِيِ المُقَلِ
فصادفت مهجتي وازداد بي ولهي ... وصرت مضنى كئيباً ضرني وحلي
فقلت يا معشر العشاق فانتَصِروا ... إني قُتلت بلا ذنب ولا زلل
فقال قائلهم إن كنت تصدق في ... ما قلت قَتْلُكَ يحلو عندنا فسلِ
فقلت يا غادة الحسن التي فتنت ... بحسنها عقل صب[4] (؟)
هل لي رجاء لوصل منك ينعشني ... وإن نَفَرْتِ فلي مولى له أملي
شيخ فقيه وليٌّ عالم علَمٌ ... به افتخاري وعهدي عنه لم يحل / 268 /
سألته ينظرنْ دهراً فهولني ... عسى بذا دائماً أبدي له كسلي
ربي ينيل مرادي إنني لهج ... في قربه ومرادي نلتقي أملي
لأنه فاضل فاق المناظِر في ... كل المكارم من جار ومرتحل
في دهرنا هو عزّ اللائذين به ... ولم يعوّل بدنياه على رجل[5]
فإن نحا[6] ببيان جل منطقه ... وإن تكلم في التوحيد قُلْ وسَلِ

---

(1) في الأصل (أقلتي).
(2) أي لقد فعلت، وقلت بكسر القاف؛ و(عمت) يريد به التعمية والإبهام.
(3) كذا وهي كلمة غير واضحة.
(4) هذا الشطر غير كامل في الأصل، ولا ندري بقيته.
(5) في الأصل (رحلي).
(6) في الأصل (نحى).

مؤرخ فاضل بالفقه متزر … محدّث بحديث صحّ في الأُصُل

وهو الذي تُبْرِىءُ الأسقامَ دَعوتُه … وينعش الروح بالآيات عن عجل

وفضله شاع بين الناس مشتهرا[1] … كالبدر يعلو لنا لكن بلا أفل

فمن يشابِهُهُ في حسن سيرته … ومن يناظره في السير كالمَثَل

/ 269 وقد سما[2] بعلوم عَزَّ مطلبها … قد نالها بالتقى كالسادة الأُوّل/

وإن مشى خلفه الأضداد هرولة … لا يدركون ولو يمشي[3] على مهل

يا هل ترى التقى من عذب مورده … شرباً يسوغ سريعاً تشتفي عللي

وإن تباعدت الأجسام يجمعها … وصلُ القلوب وهذا غاية الأمل

لقول خير الورى مهما تعارفتِ الأ … رواحُ اتصلت في سابق[4] الأزل

بالله لا تنسني فوقَ المنابر مِنْ … دعائكم إنني في غاية الوحل

لأن فضلكم قد شاع في زمن … أهواله[5] كثرت والحال يشهد لي

ثم السلام عليكم كلما طلعت … غزالةُ الصبح ترعى نرجسَ الأثل

وبعد أهدي صلاة والسلام معاً … لسيد الخلق والأملاك والرسل

والصحب والآل والأتباع ما قُرِئَتْ … هل منْ يبلّغ ذات الحلْي والحلل

هذا خاتمه[6]...

* * *

/ 273 /... ووصلي[7] لك مقيم وإن جفوتني فالجفاء من حامل لا من محمول، ومن عائل لامن مَعُول، فهذا هو الواقع في الوجود، وإن لم يظهر بعض أفراده للشهود،

---

(1) في الأصل (مستهرا).

(2) في الأصل. (سمى).

(3) في الأصل (يمسي).

(4) في الأصل (في سابع).

(5) في الأصل (اهوى له).

(6) بعد هذا انقطاع في النص قدره ثلاث صفحات، من 270 إلى 272، ولا ندري على أي مادة احتوت هذه الصفحات، هل اشتملت على بقية المراسلات، أو ضمّت غير ذلك. غير أن عبارة استئناف النص على صفحة 273 تدل على مواصلة المراسلات، إذ هي خاتمة لرسالة فيما يبدو، ولا ندري لمن هي.

(7) من هنا يستأنف المخطوط، والعبارة غير متصلة بما قبلها كما أشرنا. ولا ندري ما هي (المقالة) التي يذكرها المؤلف. وإن كانت تبدو أنها له، وأنها في موضوع عتاب، ولكن لمن وجهها؟

ولولا زعم خلوص الوداد ما أفصحت عن المراد، والله ينفعنا يوم المعاد، والصلاة والسلام الأكملان على سيد العباد.

فهذه هي المقالة التي أشرنا إلى ذكرها، ووعدنا بجلبها، فلم تمض إلّا مدة يسيرة حتى صدق الله جميع معانيها، وأوضح كل مبانيها، والحمد للّه على كل حال، وأطلبه التسديد في المقال في الحال والمآل.

75 - [أبو العباس أحمد المقَّري، رحمه الله، آمين]

أحمد المقري التلمساني:

ومن جملة مَنْ نذكره هنا، وإن نأت داره، وبعد مستقره وقراره، الحافظ النحرير أفصح زمانه، ودرة وقته وأوانه، أبو العباس أحمد المقري[1]، وأختم به إن شاء الله هذا التأليف. كان خطيباً بجامع القرويين بفاس، وأصله من مدينة تلمسان، قريب خطيب جامعها أبي عثمان سعيد المقري[2]، وارتحل إلى فاس وقطن بها وحصل له من العلم واستعان عليه بالحفظ، وبعد فساد بلد فاس بتبدل دولها بين أولاد أميرها وتداعت للخراب، ارتحل (عنها)[3]، يقال إنه عن خوف من الأمير الذي تولى إذ ذاك لكونه، فيما يقال، له خلطة بالأمراء والانتماء/ إلى بعض دون بعض، فنزل بدار / 274 الجزائر[4] على فقهائها وعلمائها، وتصدّى للتدريس بها وقرَّأ التفسير على ما قيل في أيام إقامته.

بين المقري وسعيد قدورة:

وسأله عالمُها وخطيبها حبيبنا للّه تعالى أبو عثمان سعيد بن إبراهيم الملقب بكدّورة[5]. وبيني وبينه محبّة ورسائل، نفعنا الله بما فيها، فأَرْسَلَ إليه لغزاً في (هاج

(1) درسنا حياة المقري في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) جـ 2. وهو صاحب الموسوعة المعروفة بـ (نفح الطيب)، وقد تناوله الكثيرون، وتوفي سنة 1041هـ/1631 م في حياة الفكون.

(2) درسناه في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) جـ 1.

(3) ما بين القوسين زيادة منا.

(4) أي بمدينة الجزائر.

(5) درسنا حياة سعيد قدورة (كدورة) في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) جـ 1، وقد تولى الفتوى والخطابة والتدريس، وورّث لابنائه هذه الوظائف أيضاً. وتوفي سنة 1066 هـ/1655 م.

الصنّبر) نظماً، فأجابه، على ما قيل لي، بديهةً لم يصادف المرام، فأعاد عليه السؤال، فتفطن وأبدع في المقال. وهو مشهور متداول فيما ( )[1] بينهم، وأجابه جواباً جيّداً موافقاً للسؤال قافيةً ونصه، بعد سطر افتتاحه: أَبْدْراً[2] ( ).

ثم سافر للمشرق واجتاز على تونس، وصَحِبَه منها إمام جامع الزيتونة بها أبو محمد تاج العارفين المذكور قبله، ولم يكن إذ ذاك متولياً للجامع المذكور وإنما تولاه بعد قدومه من الحج، فسافرا معاً إلى الحج في البحر، وأقام أبو العباس المقري بمصر ودرس بها بجامعها الأزهر[3]، وواله من فقهائها الشيخ أبو الحسن الأجهوري[4]، وهو صاحب الجواب الذي ذكرته عنه في تأليفنا (محدد السنان في إباحة شرب الدخان)، وأما الشيخ اللقاني فبلغني عنه أنه فئة[5] وحده عنهما، وأهل مصر ونواحيها تحت أمره فيما/ يقال، والله أعلم بصحة الأمر. / 275

وظهر للمقري صيت عظيم بمصر، وقَصَدَ أشراف دولتها بالنظم وأجازوه غير ما مرة، وكذا تجارها، وتزوج بها بنتاً من بنات السادة الوفائية[6]، وتكرر حجه وزيارته؛ وأخبرني أبو عبد الله محمد بن باديس[7] أنه لقيه حين سافر إلى الحج وحج معهم تلك السنة؛ وأخبرني عنه أنه ذو خلق حسن وله محبّة في المغاربة وكذا صاحبه الشيخ الأجهوري، وله مباسطة معهم وتواضع، وكذلك أخبرني عنه، أَعْني عن الشيخ

(1) كانت هنا كلمة (يسمع) مشطوبة لزيادتها.
(2) ترك الناسخ بياضاً قدر كلمة بعد كلمة (أبدراً) ولم يذكر نص اللغز ولا إجابة المقري عليه.
(3) بعد الأزهر كلمة (وبها) وهي زائدة فيما يبدو.
(4) علي الأجهوري من علماء المالكية في مصر، توفي سنة 1066 هـ. وله مؤلفات منها شرح على جوهرة التوحيد. وقد ناقشه المؤلف في كتابه المذكور مسألة إباحة الدخان الذي أفتى به الأجهوري، انظر دراستنا عن (محدد السنان) في كتابنا (شيخ الإسلام) المذكور.
(5) هذه كلمة غير مقروءة في النص وكأنها (فئة) أو نحوها. والشيخ إبراهيم اللقاني أيضاً من علماء المالكية في مصر، وتآليفه معروفة ومنها جوهرة التوحيد، وقد تعرض المؤلف إلى رأيه في كتابه (محدد السنان) وذكر وقوفه ضد شرب الدخان. توفي اللقاني سنة 1041 هـ.
(6) حياة المقري الخاصة مبسوطة أيضاً في كتب التراجم مثل (خلاصة الأثر) للمحبي. ويذكر المترجمون أن المقري ترك أهله وابنته بالمغرب. وكان ممزقاً بشأنهما وشأن مكتبته التي بقيت هناك. وتكشف رسالته التي بعث بها إلى محمد بن أبي بكر الدلائي قبل وفاته بشهور قلائل عن هذا التمزق. انظر هذه الرسالة في محمد حجي (الزاوية الدّلائية) الرباط 1964 ص 282 - 284.
(7) تحدث عنه المؤلف قبل هذا، انظر ص

الأجهوري، أي حبيبنا[1] للّه تعالى سيدي علي بن سيدي محمد آبهلول[2].

علي وعبد الرحمٰن آبهلول (البهلولي):

وسيدي علي هذا هو من أحبابنا للّه وكذا أخوه سيدي عبد الرحمٰن، ولنا معهم أخوة صادقة ومراسلات كثيرة. ونزل أبو الحسن علي حين سافر للحجاز عليّ بداري وكذا حين أتى مشيعاً لأخيه سيدي عبد الرحمن، ومكث عندي أياماً بعد انصراف أخيه إلى الحج.

المولى علي، من اسطانبول في قسنطينة:

واجتمع[3] بالقاضي الشهير المولى علي، وكان أتى من باب السلطنة الأحمدية، من الموالي، وله معرفة ونجابة وقوة عارضة، مشاركاً في كل العلوم وعنده كتب جمّة. ونزل عليّ بقسنطينة، وهرع إليه واليها وعسكرها وعظموه تعظيماً كبيراً، وله فيّ محبّة صادقة/، وقال لي ذات مرة: ما تركت مصاحبة صحبتي[4] وأسبابي في البحر ومررت من هنا إلا قصداً لزيارتك، عامله الله بنيته وأجزل له الأجر يوم القيامة. / 276

رثاء المؤلف لعلي البهلولي:

وتوفي أبو الحسن علي البهلولي[5]، ولم يمكث أخوه أبو زيد عبد الرحمٰن إلاّ قليلاً حتى لحقه، وكنت رثيت سيدي أبا الحسن علي البهلولي بأبيات وضمنتها كتاب التعزية لأخيه، وهي:

---

(1) في الأصل (حبا).

(2) يقطع المؤلف الحديث عن المقري ثم يعود إليه بعد استطراد مشوش. أما محمد آبهلول، والد علي وعبد الرحمن، فالظاهر أنه هو المعروف بالمجاجي (الشلف حالياً) حيث كانت له زاوية عظيمة للعلم والجهاد وافتداء الأسرى. وقرأ عليه سعيد قدورة وأحمد المانجلاتي، الخ. ومات مقتولاً حوالى سنة 1008. انظر عنه كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) الجزء الأول، ط 2، ص 198 - 199، انظر كذلك ترجمة سعيد قدورة، ص 364 - 377، خصوصاً ص 366.

(3) يعني صاحبه علي بن محمد آبهلول، أي اجتمع بالمولى علي في دار المؤلف.

(4) كان المولى علي في رفقة، وجاء لأغراض سياسية، سيذكر المؤلف بعضها، وكانت نهايته سيئة، إذ نفي من الجزائر ومات بتونس.

(5) لم يذكر متى حصلت هذه الوفاة ولا وفاة أخيه عبد الرحمٰن. ويبدو أن المؤلف قد طوى سنوات طويلة من حياة هذين الرجلين وعلاقته معهما.

أعينيَّ جـودا بـالبكـاء وانْضبـا شؤوناً بماءٍ طال ما جـاد[1] وابلُه
لخـلٍّ أكَنَّتْهُ الصَّفـاحُ وأقفـرتْ معـالمـه من بعـده ومنـازلـه
وقِـدْمـاً تـراءى[2] للعيون كـأنّـه بناديـه بَحْـرٌ إذْ يباريـه سائله
وكم من وَعيصٍ حلَّ مقفلَ غيبه ورائق بحث أبـرزتـه مقـاولـه
أبـا حسنٍ اسهـدتَ نـاظـرَ مُقلتي ونعْيُـك حقـاً أَجْـرَضَتْني بـلابله
فيـا عجباً للشمس كيف شـروقها وقد عَدِمتْ وجهـاً تبدَّت شمـائله
/ 277 ويـا عجبـاً للبـدر كيف ضيـاؤه وقد غاب في بطن الثرى مَنْ ينازله/
فيا قلب صبراً عن مُصابِك إنّمـا البقـاء لحيٍّ لا شبيـهُ يمـاثـله
[تعز فلا شيءٌ على الأرض باقيا][3] وكـل امرىء لا بـد تعفو معـاقله
سقى الله أرضاً ضُمِّنتْ جسداً له شـآبيبَ رضوان تـدوم سـوابله

ثورة أحمد بن عبد الله والدعوى أنه الفاطمي:

انتهى، وكان ـ رحمه الله ـ فطناً لقناً، صاحِبَ شعر كثير وفصاحة وفهم، وله إنشاءات شعر كثير، وله اعتقاد في أبي العباس أحمد بن عبد الله الذي قام عندهم بالمغرب[4]، ولهم فيه دعوة أنه الفاطميُّ على تُرَّهَات كثيرة نشأت فيه من المغرب، وكَتَبَ فيه تقييداً أنه هو الفاطمي، وأرسله إليّ بعد موته[5]، ويظنون أنه لم يمت وأنه غُيِّب إلى وقته المعلوم فيخرج، إلى غير ذلك من خرافات لا يليق سماعها. وقد مات في الحرب الواقع بينه وبين القائم الآخر الذي يقال له يحيى السوسي أو غيره.

وأما أخوه سيدي عبد الرحمن فأرسل إليّ بقصيدتين، إحداهما في الرد على أهل البدع، وكنت أظن أني أشرحها، ثم إنه توفي إلى عفو الله[6].

---

(1) إلى جانب كلمة (جاد) رسمت كلمة (سحّ).
(2) في الأصل (تراءا).
(3) هذه الشطرة تضمين من بيت لم يعرف قائله. والشطرة الثانية هي: (ولا وزر مما قضى الله واقياً).
(4) ذكرنا أن المؤلف يقصد بالمغرب في أغلب الأحيان وسط الجزائر وما جاورها غرباً، ويمكن تحديد المكان إذا عرفنا عن هذه الثورة وصاحبها.
(5) أي بعد موت الثائر أحمد بن عبد الله.
(6) يُفهم من ذلك أن المؤلف لم يقم بشرح القصيدة.

المولى علي أيضاً:

وأما القاضي المولى فانتقل إلى الجزائر وأقام بها، وصار له صيت عظيم، واستقل أياماً بالإمارة، وصدر الأمر/ عن نظره، وتزوج بها، ثم إنه امتُحِن ـ رحمه الله ـ ونفاه العسكر من الجزائر، وأخرجوه عن أهله وماله، ومات بتونس. / 278

عودة إلى المقري:

ولنرجع إلى أخبار أبي العباس المقري، فَذُكِر لي عنه أنه رحل إلى الشام زائراً ورجع إلى مصر، وبلغني أنه مشغوف بوطنه وأهله، لأنه ترك به زوجاً وابنة، فيقال لي إنه مهما تذكر ذلك بكى وحزن، وأخبرني أبو عبد الله محمد بن باديس المذكور أنه أعطاه سؤالاً كان سألني عنه في إعراب ابن عطية[1] ﴿ولأتمّ نعمتي﴾، وهو الذي وعدنا بذكره فيما قبل، فأجاب عنه بما سأذكره بعدَ ذِكر جوابي عن المسألة.

سؤال ابن باديس للمؤلف عن إعراب آية لابن عطية:

«ونص السؤال عنها بعد الحمد لله: سيدي، بلغكم الله الآمال، ونفعكم بصالح الأعمال، وأذهب عنكم ما تجدونه في أنفسكم من الآلام[2] وعافاكم من جميع الأسقام، المقصود منكم الإفادة فيما عرض لنا من الاشكال في مسألة، وهي ما أعربه الشيخ ابنُ عطية في قوله تعالى: ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾، ونصه: ولأتمّ: عطف على قوله لِيلاّ، وقيل هو مقطوع في موضع رفع بالابتداء والخبر مضْمَر بعد ذلك، التقدير لأتم نعمتي عليكم عرفتكم قِبْلتي ونحوه، هـذا إعرابـه؛ وتبعه عليـه صاحب الجواهر[3].

والجواب الثاني لم يظهر لنا من وجوه أما أوّلا/ فلأنه يلزم عليه زيادة اللام وليس هذا من موضع زيادتها على ما ذكره المغني[4]، وأمّا ثانياً فإنه يلزم عليه تهيئة العامل للعمل وقطعه عنه كما هو في قول القائل زيداً ضربتُ، فإنه لا يجوز رفع زيد / 279

(1) هو أبو محمد عبد الحق ابن عطية المحاربي الأندلسي، توفي سنة 481.

(2) الإشارة إلى مرض المؤلف الذي سبق وصفه والذي كان حوالى سنة 1025 هـ.

(3) صاحب (الجواهر) هو الشيخ عبد الرحمن الثعالبي صاحب (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، والثعالبي من علماء القرن التاسع (15 م)، فقد نشر (الجواهر الحسان) مرتين، آخرهما سنة 1985 بتحقيق الدكتور عمار طالبي.

(4) مغني اللبيب لابن هشام.

للعلّة المذكورة. وأما ثالثاً فإنه يلزم عليه حذف العائد من الجملة الخبرية، وهذا كما في كريم علمكم، لا يجوز إلاّ في ضرورة الشعر أو نادر كلام، وإن خُرِّجَ على مثل هذا فإنما يكون ذلك حيث لا مندوحة. وأما مع الإمكان فلا داعية إلى ارتكابه. نعم أعربه الصفاقصي[1] أنَّ لِأُتِمَّ متعلق بمحذوف تقديره عرفتكم، وهذا الإعراب مع ما أعربه به ابن عطية أولاً من أنه معطوف، لا إشكال عليهما.

ويظهر في إعرابه وجه آخر لا أدري هل تجيزه لي[2] أم لا، وهو أن يكون متعلّقاً بتهتدون، فإن اقتضاه المعنى فهو صحيح من جهة التعلق على ما يظهر لي بِفَهْمِي القَاصِر؛ جوابكم الكافي ونقلكم الوافي، والله الشافي، تُؤْجَرُونَ وترحمون، والسلام عليكم ورحمة الله.

جواب المؤلف عن سؤال ابن باديس:

ونص ما أجبت[3] عنه: «وعليكم السلام ورحمة الله. الحمد للّه، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله وآله وسلم تسليماً. / تأمّلت سؤالكم، أصلح الله بالتقوى حالي وحالكم، فاعلم أن ظاهر ما نقلتموه عن ابن عطية وتابِعه[4] مُقْتَضٍ لما فهمتموه وهو غير جار على القواعد إذ المبتدأ هو الاسم أو ما في تأويله مُعَرًّى عن العوامل اللفظية غير الزائدة الخ ما رسموه به، وهذا وإن صحت اسميته بالتأويل فهو معمول لعامل لفظي وادعاء زيادته غير صحيح، ثم تقدير الخبر عنه بما قَدَّره لا يلائم المبتدأ بعد السَّبْكِ لِنُبُوِّهِ عنه، والظن بابن عطية أنه لم يُرِدْ هذا الظاهر من الكلام، وإنما التأويل فيه أنه قصد بالابتدائية ابتداء الكلام على معنى أنه لا تعلق له بما قبله، كما هو في الإعراب الأول، وقصد بالخبر خبر الكلام في المعنى، بمعنى أن تمام فائدته هو ذاك، والتقدير فيه أن الواو للاستئناف وما بعده كلام مستأنف، وجملة عرّفتكم سماها خبراً لأنه تمت به فائدة المجرور الذي هو لِأُتِمَّ، وبفعلها يتعلق إذ لم تتضح فائدة معناه عند السبك وقَبْلَه إذن إلا بالمقدَّر.

(1) لعله يشير إلى الصفاقصي شارح الشاطبية. (من إفادة الشيخ التليلي).
(2) الخطاب من محمد بن باديس إلى المؤلف.
(3) هذا هو جواب المؤلف لمحمد بن باديس عن سؤاله.
(4) كلمة (تابِعه) يشير بها إلى الثعالبي الذي تبع ابن عطية في إعراب الآية.

ويؤيد هذا التأويل نقل مثله في إعراب الآية، ويرشد إليه سكوت الصفاقصي عن البحث معه فيه مع ما عُلِم من مناقشته لابن عطية في أقل من هذا، وحَمْل كلام الإمام[1] على ما هو جار على القواعد ولو بتأويل خفي أولى / وأحق من ظاهر ملغى 281 / اعتباره فيما بين أهله، ويعكر عليه جعله له للرفع موضعاً إلا أن يُتَأَوَّل على تقدير لو كان مبتدأ، ويحتمل في إعرابه وجهاً آخر، وهو أن يكون ولِأتِم معطوفاً على محذوف هو علة للخشية، والتقدير فاخشوني لأوفقكم وأتم عليكم نعمتي، كذا ذكره بعضهم، وفيه بحث عندي. وما ذكرتموه من تضعيف أوجه الابتداء بما حصلتم صحيح في أولها من حيثية عدم زيادة اللام غير صحيح فيما بعده، إذ لا محل لها هنا ولا تعلق لها بالمسألة في وِرْدٍ ولا صَدْرٍ إلا مع تحقق السبك بالمبتدأ، وما ظهر لكم في إعرابها يُبْطِله أَنَّ تهتدون هنا لا يصح عمله فيما قَبْلَ لَعَلَّ، والمعنى يأباه لمن تأمل وفهم.

وهذا بحسب الطاقة وملازمة المرض المانع إلا ما سبق في خزانة الحفظ، والله المسؤول في الشفاء والتوفيق، والهادي إلى سواء الطريق؛ ولا تنسوني من إخلاص الدعاء؛ وأختم كتابي بالصلاة على أفضل الرسل والأنبياء، وآله وصحبه وسلم تسليماً».

هذا آخر جوابي عن المسألة ولم أشعر به لما أنا عليه من فادح المرض، حتى لو سئلتُ عنه أو عن المسألة لما حصل لي علم بذلك، حتّى ورد عليّ أبو عبد / الله 282 / محمد بن باديس من حجّه، فذكر لي أنه حمل معه جواباً لنا أجاب عنه أبو العبّاس المقري تصحيحاً لا توضيحاً غير ما طرزه بأوصاف هي إلى التهكم عنده أقرب منها للتحقيق[2]، ونحن نوردها بلفظها لا من حيث استحسان ظهور الثناء بها بل من حيث إبانة ما له من فصاحة القلم التي حملته على ما أراده ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾[3]. والجواب الحق (يكون)[4] بإظهار العلم لا باستصناع اللفظ. فلما

---

(1) يعني به ابن عطية.

(2) فهم المؤلف أن في جواب المقري عن المسألة تهكماً به رغم أن ظاهر اللفظ الإشادة به.

(3) سورة (القصص) الآية (69).

(4) ما بين القوسين زيادة منا.

أرانيه[1] استخبرته عنه، وجهلت أنني كنت خرج من يدي فلم أشعر إلاّ وهو مُخْرِجُه من كمّه فرأيته فعلمته أنه لي بخطي ولم أشعر بالموطن ولا زمن كَتْبِه[2]. ورأيت جواب أبي العباس المقري، حفظه الله تعالى، به، ونصه:

جواب المقري عن سؤال ابن باديس:

«الحمد لله وحده، صلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، لمّا دخلتُ من أبواب، مَا بِمُحَوّله من الجواب[3]، وأمعنت النظر في وصف بانيه الرافل في أثواب حلل الصواب، ألفيته، واللّهِ، مَبْنِياً على قواعد التحرير، منمياً إلى مقاصد النحرير، دالاًّ على تبحر صاحبه في الفنون، وتصديقه في علماء قطر المغرب الظنون، فلو رآه ابن قنبر[4] والخليل، لاعْتَرَفَا بأن فيه شفاء الغليل، أو الأخفش لأبصر، ونكص عن معارضته / وأقصر، أو الجَرْمي والفرّا، لتكعكعا من مباراته وفرّا، أو الزجاج لكسر قوارير تحقيقه، أو الفارسي لترجل عن أفراس تدقيقه، أو المازني لعثر به على خبايا الكتاب ولم يكن بالملوم، وتخلص من قصة مصاب ظلوم، أو أبو علي الشلوبين لاكْتَسَى بسببه حلل الفراسة، أو ابن خروف لأطاب وما أطال في الشرح مِراسه، أو الآبدي لتأبد به ما خشي اندراسه، أو أبو موسى لوشح به الكراسة، أو ابن الضايع لوجد لقطة البضائع، أو ابن عطية لقضى من أسرار العربية أوطاره، أو ابن عصفور لفاز بالحظ الموفور الذي أعيى مطاره أو ابن الحاجب لكانت أبحاثه له شافية، أو ابن مالك لقال فيها هذه الخلاصة عن التسهيل كافية، أو ابن النّحاس لما شك أنها العسجد الذائب الخالص من كل شائب، أو أبو حيان لغرق في نهره، وأقلع عن الاعتراض في سره وجهره، أو ناظر الجيش لجعلها لدفاتره عنواناً، وألبس أجناد الحلقة العلمية منها ألواناً، أو ابن هشام لغدا برفع الخصاصة مغنياً، ولتوضيح

283 /

---

(1) أي فلما أطلعني ابن باديس عن جواب المقري.

(2) هذا كله دليل على أن المؤلف قد نسي المسألة تماماً لأنه كان عند الإجابة عنها في حالة المرض الذي وصفه. ويعني بـ (الموطن) الاجتماع مع ابن باديس.

(3) ذلك أن جواب المقري كان على نفس الورقة التي أجاب فيها المؤلف.

(4) لعله يشير بابن قنبر إلى سيبويه، أما الأسماء التي وردت بعده فلجماعة من أئمة النحاة ولا نرى داعياً للتعريف لكل منهم هنا. وذكر أسمائهم على هذا النحو هو ما وصفه المؤلف (الفكون) بالتطريز والتزويق، الذي هو أقرب إلى التهكم منه للتحقيق.

المسالك مُدْنِياً أو الدماميني لأدمن مطالعتها وارتحل إلى الغرب بدلاً عن الهند[1]، وأنشد لأخيه في حب أهل / تلك الناحية: 284 /

يقولون هذا ليس بالأمر عندنا ... ومَنْ أنتمُ حتَّى يكون لكم عِنْدُ

أو الشُّمُنِي لشمَّ عَرْفَ عَبِيرِهِ، واقتفى أثره في تعبيره، أو الجلال الأسيوطي لحلي بجواهرها الفريدة، وأنشـأ[2] في جمع الجوامع والسائر من الأشباه والنظائر كل شريدة، أو الأزهري خالد[3]، لقال هذا جامع الطارف من النحو والتالد.

وبالجملة فهو العالم الذي ورث المجد لا عن كَلاَلَة، وتحقّق الكلُّ أن بيته شهير الجلالة، بيت بني لفكون[4]، هضاب العلم والوقار والسكون، لا زال الخَلَف، منهم يحيون مآثر السلف:

ودامَ عبدُ الكريم[5] فرداً	في العلم والزهد والولاية
فهو الذي حاز خصل[6] سبق	وصار في ذا الزمان آية
واللّهُ يبقيه ذا سموٍّ	مخلّد الفضل والدراية
بجاه خير الورى المرَجَّى	من خصَّه الله بالعناية
عليه أزكى الصلاة تَتْرى[7]	لدى ابتداءٍ وفي نهاية

قال هذا وكتبه عجلاً خجلاً مرتجلاً العبدُ الفقير أحمد بن محمد المقري المالكي التلمساني المولد والمنشأ، نزيل فاس المحروسة ثم القاهرة، أخذ الله بيده؛ وهذا الجواب مني وإن كان كالصدى[8]، فلا مندوحة عنه لمن بلغ من الإنصاف / 285 / مرصداً، وحسب الواقف على جواب العالم المذكور اقتفاء أثره، والاستضاءة بنور

---

(1) إشارة إلى أن وفاة الدماميني كانت في الهند، كما ذكرنا.

(2) في الأصل (أنشى).

(3) يعني خالد الأزهري صاحب (قطر الندى).

(4) كذا في الأصل (لفكون) بدون الف.

(5) إسم المؤلف.

(6) كذا في الأصل (خصل) ولعله يقصد (قصب) أو (فضل).

(7) في الأصل (تترا).

(8) في الأصل (كالصدا).

شمسه وقمره. وقد خططت هذه الحروف عند قدومي من الحجاز الشريف مع اشتغالي بالسلام، وأجدر (أن)[1] يرتفع بها عني إن أخطأت الملام، والله يجعلنا ممن نظر إليه الواقف عليه بالعين الكليلة، وجعل بعون الله في التدبر الختم دليله، انتهى».

نقد المؤلف لطريقة المقري في الإجابة:

قلتُ هذا جوابه، وقد ضمّنه التقيّة من إبانة خطئه[2] من صوابه، وليس هذا من شأن العلماء العاملين ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[3]. ولعمري لقد خان الله ورسوله بزعمه أنه علم من الجواب أبواباً يدخل منها، فغطاها بتزويق الألفاظ وما ألجأه لهذا الأمر إلاّ الثناء الجميل وحبّ المدحة المنهي عنه من الشرع، فباع إظهار الحق على زعمه بثمن عاجل، فدخل في قوله تعالى: ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾[4]. أليس الواجب عليه تبيين ما في الجواب من الخطإ أو الصواب؟ ولا عليه ممن قال أو يقول؛ هذا وهو في فسحة من دنياه، وبينه / وبين صاحب الجواب بلاد ومهامه ومفاوز خطيرة، فكيف لو كان بقربه أو نزيله؟ وهذا الذي أورثه ما أورثه[5]، ولله عاقبة الأمور. / 28ب

وقد راجعت ما خرج من يدي من الجواب[6] بعد كتابَتِه[7] ما كَتَبَ عليه فلم أر فيه ما يخالف القواعد، بل ما تأولت به كلام ابن عطية هو الذي وقع لغيره من بعض العلماء في إعرابه، فإن كانت الأبواب من أجل التأويل المذكور فقد بينّا أنها على غير الظاهر إلا أن الظن بابن عطية لم يُرِد ظاهرها فنزهناه عن الورطة التي أحبّ هذا الشخصُ إيقاعَه بها وإن كانت هي نفس التأويل فهو قول منصوص للعلماء ودعوى

---

(1) ما بين القوسين زيادة منا.

(2) في الأصل (خطاه).

(3) سورة (العنكبوت) الآية (69).

(4) سورة (آل عمران) الآية (187).

(5) لعل المؤلف يشير إلى ما حلّ بالمقري من الخوف والغربة والحزن على أهله إلخ.
ورغم المراسلات التي كانت بينهما، وربما حج المؤلف في حياة المقري، فإنه ليس هناك ما يدل على أنهما التقيا وجهاً لوجه.

(6) أي راجع المؤلف نص جوابه الذي كان كتبه لابن باديس على سؤاله.

(7) يشير الضمير إلى أحمد المقري.

إنكاره جهل أو تجاهل وتحريف من صاحبه إلا بقول: لا لا ولا أسلم. وليس العلم هو ذاك أو سرد الروايات وحفظ الألفاظ.

وقد قدمنا ما قاله ابن العربي في ذلك من أن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما هو ما يظهر عند الحاجة إليه في الفتوى من الدراية، قال: فأما السرد للمعلومات فإنما حدث عند فساد القلوب بطلب الظهور والتعالي عن الأقران وكثرة الرياء في الأعمال، انتهى. ولله دره فلقد أوضح في المقال وأبدع، فهذه صفة الحال، لا ترى إلا من يبادر: / قال فلان قال فلان، أو يأتي بنص التأليف على ما هو عليه في الكتاب، فإن صادفَ الحكمُ الحكمَ نجا وإلّا صار أعجز من صيد في شبكة، كل ذلك من حب المدحة في الدعوى وصرف قلوب الخاصة والعامّة إليه؛ ثم هو إن سئل عن وجه الجمع بين المتشابهين أو الفرق بين المسألتين يقول: النص هكذا، ويستظهر بحفظ النصوص، وهل هذا إلّا جمود في غاية الجمود؟ / 287

ولقد حَكَى لي عن أبي العباس المذكور مَنْ أثق به أنه سأله عن قول ابن مالك والخبر الجزء المتم الفائدة[1] وفيه إن كان فيه[2]، فَصَرَفَ الوجهةَ إلى أن حدود ابن مالك كلها مدخولة أو معترضة؛ فانظر هذا الجواب من هذا الحافظ الذي أوقعه فيما هو أدهى وأمر من الحكم بكلية لا تُسَلَّم مقدماتها ولا تَصْدُق نتائجها، مع أنه كان يسلم بالجواب عن المسألة المسؤول عنها فقط إن حصل له، أو لا أدري التي هي أسلم، وقليل من الناس يرضاها. وحَكَى لي عنه أنه سأله عن قول الجزولي في دلائل الخير[3] وأسيد الناس، كيف هذا اللفظ؟ فلوى عنه، وقال هذا فيه كلام كثير، إلا أن المؤلف[4] لا يُتَعَرَّض له. فانظر، رحمك الله، بعين الإنصاف، أهذا جوابٌ / مقنع فضلاً عن صميم الحق؟ فالواجب بيان ما استغلق على السائل إن كان في حفظه وإلا دفعه إلى غيره، لكن: حبك الشيء يُعْمِي ويُصم. / 288

والرجل فرح بما أوتي من فصاحة اللسان، وصوغ الشعر، وحفظ التصانيف

(1) والشطرة الثانية هي: كالله برٌّ، والأيادي شاهدة.
(2) أي فيه اعتراضات عليه.
(3) كذا (الخير)، واسم الكتاب (دلائل الخيرات) للجزولي.
(4) يعني الجزولي.

والأقوال، وجانبته رياح التوفيق، فتغطى فكره عن اقتناص بنات التدقيق، وهل طَلَبَ المولى من العبد إلا العلمَ، والعلمُ غيرُ الحفظِ، وهو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، ثم إذا أنعم المولى على العبد بنعمة الحفظ أو فصاحة اللسان إنما تقابل بالشكر الذي هو سبب المزيد لا بالاحتقار والاستصغار لغيره، وهل ما ناله من كده أو كدّ أبيه أو جده، إنما الفضل والمنة لله لا لغيره ﴿ علمكم ما لم تكونوا تعلمون وكان فضل الله عليك عظيما ﴾[1]. فلا يرى الموفّق لنفسه فضلاً ولا شفوفاً[2] على غيره ممن لم يصل إلى درجته. هذا هو عين الصواب وطريقة العلماء العاملين أن لو كان مع ما عنده من الحفظ الفهم فيما حفظ والمعرفة بأبحاثه وتوجيهاته فما بالك بمن هو جامد في ذلك، كما قال في جوابه إنه منه كالصدى[3] صوت خال عن معنى.

/ 289 ثم أوضح دخيلاءه وأظهر ما كَمُنَ في النفس من الحسد ورفعة النفس / وترفعها أن جعل للدماميني البيت المذكور ليتوصل به إلى إذاية المجيب[4] وانتقاصه حيث ذكر لفظة عندي بأن قال:

ومَنْ أنتمُ حتى يكون لكم عِنْدُ؟

أرأيت هذا يحسن جواباً في معرض الأنظار[5]؟ وإنما يصلح في محاورة السب المنهي عنه شرعاً، وكيف يتعاطاه من تصدى لمرتبة وراثة النبوءة؟ أما يكفيه بعداً وطرداً من ساحتها أن رماها وراء ظهره واتصف بأوصاف ما نهى عنه ﷺ، فأي طريق تسلك بهذا وأي علم يؤخذ منه أو يقلد فيه أو يؤتمن على سماعه منه؟ ثم يقال له: أي شيء أوجب لك من هذه اللفظة الإنكار؟ أفهمتَ منها ما لم يأمر به الشرع من تعظيم النفس فهو تنفير منك عن القلب واتهام للمسلم بما لا يقوله ولا هو في خلده، وهو تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وما مثلك في ذلك إلّا كمن اعترض قول العلامة ابن عرفة: لا أعرفه، زعماً منه

---

(1) سورة (البقرة) الآية (239)، أما الشطر الثاني من الآية فمن سورة (النساء) الآية (113).

(2) أي زيادة.

(3) في الأصل (الصدا)، ولعل الصواب أن يقول (كصدى صوت).

(4) يعني نفسه، أي المؤلف.

(5) الأنظار أي البحث والتقصي.

أنه تعظيم منه لنفسه وأن ما لا يعرفه لا يكون معروفاً إذ لا يعلم من عدم الوجدان عدم الوجود. ولعل هذا منّي ربما يفهمه صاحب التطريز[1] أو ما كان على شاكلته أنه تعظيم ورفعة للنفس لتشبيهي / بابن عرفة، وإنما هو استظهار للواقع وتنظير للمقول لا باعتبار القائل. فإن لفظة (عندي)[2] أوقعتُها في موقعها ولا يلزمني استحضار كل الألفاظ المؤدية لمعناها حتّى أتخير منها ما يصلح عند المعترض، بل البحث إنما أعرفه لنفسي ووقع لي لا لغيري، فإن أطلقتُ البحث من غير تقييده بحيثية الإضافة إلى النفس أبهمتُ الأمر على السامع وأوهمت أنه لغيري فربّما تعطل النظر فيه ووقعت المسالمة فيه لكونه صدر من سابق حكم مضى لا يتعقب ولا يتعرض حسبما هو مذهب الجامدين من المتصدرين، فهو أعظم من أن يتعرض له كما هو طريقة هذا المطرز، فأوضحت الأمر فيه من أنه لي لا لغيري لكي ينتقد هو وغيره ممن يلهج بالرد عند العثور على ذلك، فكان الواجب عليه إذ وقف عليه أن لا يقابل بالسب والاحتقار المنهي عنهما شرعاً. / 290

وقد قال صلى الله عليه وسلّم تسليماً: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر. وقد تقدم من كلام ابن عرفة[3] فيه ما فيه مقنع بل يُبْدي فساده واختلاله ويكشف عن سوء فهمه وما هو عليه. ولعله لو فتح على نفسه هذا لوقع في مهاوي ومتالف لا يكاد ينجو منها ففرّ إلى الدعوى من غير/دليل، فلم يبق لي معه إلّا آية: و ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾. / 291

ولنكف العنان لما سيكتبه البنان إذ لو أطلقنا لسان القلم لجرى إلى هواهم وأغم. ونعوذ بالله من الحظوظ[4] النفسانية والأخلاق الشيطانية، ولولا إزالة اللبس عن العامّة ما أوضحنا ما صدر منّا ولتركناه إلى الرقيب الديان، وكما تدين تدان.

وقد آن لنا أن نتقنع بقناعه، ونوفيه الكيل من صاعه، ردّاً لما يتوهم من نقص

(1) يعني به أحمد المقري، وكذلك كلمة (المطرز) القادمة.

(2) يشير المؤلف إلى ما ورد في جوابه لابن باديس، إذ استعمل هناك عبارة (وفيه بحث عندي). وهي العبارة التي أحس أن المقري قد اعترض عليه فيها، دون أن يصرح بذلك، وإنما لجأ إلى بيت الدماميني:

يقولون هذا ليس بالأمر عندنا ومن انتم صمد يكون لكم عندُ

(3) أنظر ص 101.

(4) في الأصل (الحضوض).

الكيل، من غير جَنَفٍ منا ولا ميل، تظاهراً بآية ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[1]، وإظهاراً لنعمة المولى بقوله: ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾[2]، إذ ضربنا في قداح ميسره بسهم، وأبدينا من شُكْرِ نعمه الضافية ما أزال عنا في التقصير الوهم، وله اليد الطولى فيما أفاد وأنعم، والخير بالخير والبادي أكرم، والشرّ بالشرّ والبادي أظلم. فنقول، ومن الله أطلب التوفيق في المقول:

المؤلف يرد على المقري بالمثل:

لله الحمد والمنّة، وأصلّي على أوّل من يقرع باب الجنة، لما انفتحت لي أبواب رياض المسطور، وسرحت طرفي في منظومه والمنثور، فإذا هو بستان شهير / وروض نضير، رُصِّعتْ جدراته[3] بلآلِيء الفصاحة، ونضدت أرجاؤه بيواقيت البلاغة وبهرمان الصباحة، واكتسى من أزهار حلل المعاني ونوار أردية الاستعارات ما أورى بتوريتها خبايا طال ما نشر عليها ليل المراقبة جناحه، بانيه أحكم مبانيه ومعانيه خبرة لمغانيه، سماع أوتار أفنان بيانه يُشْغِفُ الألباب، ويحيي موات النفوس منه ريّا تلوين الخطاب، أعجوبة الدهر والأوان، وصناعة بديع الزمان[4]، لو رآه سَحْبان لسحب ذيل الطاعة والإذعان، وأُخرِس بين الأقران، ولو أبصره ابن هانيء لقابل بالبشرى والتهاني، واعترف ببلوغ الأماني، ولو ظفر به أبو نواس لكان له به في المحاضرة إيناس، ولو تعرّى للمعري، لقال هذا مقري، وفر من أثواب أدبه إلى حصن التعري، ولو عاصره الجرجاني لانجر إلى سُلّمِهِ جَرَّ جَانِي، واعترف بأن ليس له في الوجود ثاني، ولو لقيه القزويني لقال إن استخدامه إياي يغنيني عما ملكت يميني، ولو ناوأه السكاكي، لكان شعاره في معرك النزال تَراكِي تَراكِي، ولو حضره الحريري لقال إنه أميري، في نهاية تحريري، وأنشد وأفصح، وأرشد واستنصح / .

كــل يــومٍ تــتــلونْ غيــرُ هــذا بــكَ أجمــل

(1) سورة (الشورى) الآية (41).
(2) سورة (الضحى) الآية (11).
(3) كذا (جدراته) ولعلها (جدرانه).
(4) أراد المؤلف أن يتحدى المقري في حفظه وفصاحة قلمه أيضاً فاورد قائمة من أسماء البلغاء والبيانيين، مثل ما أورد المقري قائمة بأسماء النحاة واللغويين.

ولو بدا لصاحب الكشّاف، لما كان له عن اقتفائه انحراف، ومزق إهاب منتخباته مبادرةً للإسعاف، ولو تصدى لصاحب المصباح، لكان له به في الاهتداء استصباح، ولعثر به على خفايا كنز المفتاح، ولو سمع به البدر[1] نزيل الهند، لارتحل إليه من بُعْد، ولأنشد فيمن[2] أضاف إليه كلمة عِنْد:

يقولون إذْ ما قيل عندي مَن أنتُمُ ... ومَنْ أنتمُ حتى تقولوا مَن أنتمُ

وبالجملة فهو الفريدة عديمة النظير، بديعة الشكل والتصوير، التي تراءت منصتها فوق كل تحرير، بيت علمي المعقول والمنقول، ومن أجله القائل ينشد ويقول[3]:

يا نخبةَ الدهر في الدراية ... علماً تعاضده الرواية
لا زلت بحراً بكل فنّ ... يروي بك[4] الطالبون غاية
لقد تصدرتَ في المعالي ... كما تعاليتَ في العناية
مِنْ فيك تنتظم[5] اللآلىء ... بُلِّغْتَ في حسنها النهاية
رقّاك مولاك كل مرقى ... تحوي به القرب والولاية
أعجوبة لاَ لَهُ[6] نَظِير ... في الحفظ والفهم والهداية
يا أحمد المقَّري دامت ... بُشراك تصحبها الرعاية
/ بجاه خير العباد طرا ... والآل والصحب والنّقاية
صلّى الإله عليه تترى ... نُكْفَى بها الشرّ والغواية

/ 294

---

(1) هو بدر الدين الدماميني الذي قلنا إنه توفي بالهند سنة 837.

(2) أي أحمد المقري، كما سبق في جوابه.

(3) الأبيات الموالية ذكرها المؤلف في رسالة أخرى أرسلها إلى المقري بتاريخ 1038 من قسنطينة مع الحجيج، وقد أورد المقري هذه الرسالة والأبيات في الجزء الثالث من (نفح الطيب)، ص 240، ط. مصر. والظاهر أن وقت تأليف (منشور الهداية) قريب من تاريخ تلك الرسالة، أي 1038.
والغريب كيف دمج المؤلف الأبيات التي أجاب بها المقري وزناً وقافية على أبيات مثلها فيه، دمجها في هذا التأليف، مع أن المقام يختلف، فهناك كان يجيب رسالة برسالة وأبياتاً بأبيات، أما هنا فهو في مقام التهكم بصاحبه.

(4) وردت في (نفح الطيب) هكذا (به) بدل (بك).

(5) في المصدر المذكور (تستنظم).

(6) في المصدر المذكور (ما لها).

(7) في نفس المصدر (صلّى عليه الإله تترى).

لا زالت سحائب غيث علمه تتوالى، ودرر أبكار فكره تتلألأ، كتبه على دَخَنٍ[1]، عَادِمُ السَّكَنِ، المستوفز إلى مفارقة الوطن، الطالب من الواقف عليه أن ينظره بعين الرضى، وأن ينهج به منهج الطريقة البيضاء، وهذا الصادر مني وإن كان لِبَلِّ الصدى[2] وأثار من ليس له فدا، فلا غَرْوَ أن يقال فيه عَلَمُ الهُدَى[3] بإظهار كنز الصدى[2]، لمن بلغ من الإنصاف مرصدا[4].

وليكن هذا آخر ما أردناه، ومنتهى ما أوردناه، جعله الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم ومبلغاً لمرضاته في جنات النعيم[5]. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمين.

كتبه الفقير[6] لرحمة مولاه، غفر الله له ولوالديه وأشياخه وأحبّته أجمعين بمنّه وكرمه.

---

(1) الدخن هو الغش.
(2) في الأصل (الصدا).
(3) في الأصل (الهدا).
(4) نلاحظ أن المؤلف اتبع طريقة التهكم أيضاً نحو المقري، وعامله بما كان يؤاخذه هو عليه.
(5) لا ندري إن كانت هذه نهاية الكتاب (وهو الراجح) أو نهاية رد المؤلف على المقري.
(6) إذا كانت هذه هي نهاية الكتاب فنلاحظ أن الناسخ لم يذكر اسمه، ولا تاريخ كتابته.

مصادر التحقيق

كثير من المعلومات التي رجعنا إليها في التحقيق جمعت من قراءاتي لكتابي تاريخ الجزائر الثقافي. ومن الصعب حصر مصادر هذه الدراسة ما دامت قائمة على أكداس من الوثائق والمخطوطات والكتب وبعدة لغات. ولذلك رأيت أن أكتفي هنا بذكر ما يمت بصلة مباشرة إلى موضوع الفكون، محيلاً القارىء على مصادر تاريخ الجزائر الثقافي.

أولاً ـ كتب الفكون:

- فتح اللطيف في علم التصريف، نسخة الأستاذ علي أمقران السحنوني.
- فتح المولى لشرح شواهد الشريف ابن يعلى، لمحمد بن عبد الكريم الفكون (كذا) رقم 406 المكتبة الوطنية، تونس.
- محدد السنان في نحور إخوان الدخان (نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 6929).
- مراسلات الفكون مع أحمد المقري ومحمد تاج العارفين، إلخ...
- منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية (اطلعنا منه على نسختين: نسخة الشيخ المهدي البوعبدلي ونسخة الشيخ عبد المجيد بن حية).

ثانياً ـ وثائق ومخطوطات:

- أرشيف إيكس (فرنسا) F 80 - 613.
- أشعار جزائرية، مخطوط (حالياً تحت الطبع).
- أم الحواضر (قسنطينة) تأليف الشيخ المهدي شغيب.
- علاج السفينة في بحر قسنطينة، أحمد الأنبيري، مخطوط خاص.
- عمدة البيان في معرفة فروض الأعيان (شرح مختصر الأخضري لعبد اللطيف المسبح المرداسي).. المكتبة الوطنية ـ تونس، أرقام: 4178، 4224، 4269، 4537، 4542 إلخ.

- الفريدة المؤنسة، تأليف محمد الصالح العنتري، تحقيق أحمد سيساوي، جامعة قسنطينة.
- القدسية، لعبد الرحمن الأخضري، مخطوطة الشيخ محمد الطاهر التليلي القماري.
- كناش الطواحني، المكتبة الوطنية - تونس، رقم 16647.
- كناش المكتبة الوطنية - تونس، رقم 529.
- كنز الرواة، تأليف عيسى الثعالبي، تلميذ الفكون، مخطوط خاص.
- مراسلة الشيخ المهدي البوعبدلي، بتاريخ 1985/3/7.
- البوعبدلي (المهدي) مجموعة رسائل مطولة مع المحقق (سعد الله) في فترات عديدة بين 1979 - 1986.

ثالثاً - الكتب المطبوعة:

- ابن أبي دينار محمد، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس 1967.
- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان، الجزء الأول، ط. 2، 1976.
- ابن إبراهيم عباس، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام ط. المغرب.
- ابن باديس (عبد الحميد)، جريدة (السنة) س 1، عدد 4، فاتح مايو 1933 (عن الفكون).
- بريسنيه، الكريستوماتيه العربية (Chrestomathie)، الجزائر 1867.
- البوعبدلي (المهدي) وناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، جـ. 4، الجزائر 1984.
- البوعبدلي (المهدي)، مجلة (الحياة الثقافية)، تونس، عدد خاص بالجزائر 1984.
- الحفناوي (أبو القاسم)، تعريف الخلف برجال السلف (جزآن)، الجزائر، 1906 - 1907.
- خوجة (حسين)، ذيل بشائر أهل الإيمان، تحقيق الطاهر المعموري، تونس، 1975.
- ديفوكس (ألبير)، التشريفات، باريس 1852.
- ديفوكس (ألبير)، المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر، باريس، 1870.
- الزركلي (خير الدين)، الأعلام (أجزاء)، ط. بيروت، 1970.
- السراج (محمد الوزير)، الحلل السندسية (أجزاء)، تحقيق الحبيب الهيلة، تونس 1970.
- سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي (جزآن) ط. 2، 1985.
- سعد الله (أبو القاسم)، (أخبار شعبان باشا، داي الجزائر 1695) من كتاب الشهب المحرقة، لأحمد برناز ضمن كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني 1986.

- سعد الله (أبو القاسم)، القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، ط. 2، 1985.
- سعد الله (أبو القاسم)، (أربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة) في كتاب تجارب في الأدب والرحلة، 1984.
- سعد الله (أبو القاسم)، (كعبة الطائفين، لمحمد بن سليمان الصائم)، دراسة في كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط. 2، الجزء الأول، 1982.
- شيربونو، مجلة (روكاي Recueil)، سنة 1856 - 1857.
- العياشي (أبو سالم)، الرحلة، ط. المغرب 1899.
- الغبريني (أحمد)، عنوان الدراية، تحقيق عادل نويهض، بيروت 1969.
- فايسات، تاريخ قسنطينة، في مجلة (روكاي Recueil)، 1868، إلخ.
- الفراوسني (محمد الزواوي)، المرائي، مخطوط.
- القادري (عبد السلام)، نشر المثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، 1977.
- القلصادي (علي)، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، تونس، 1978.
- ابن القنفذ (أحمد)، الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس 1968.
- كامبول (جول)، حكومة الجزائر، 1918.
- الكتاني (عبد الحي)، فهرس الفهارس، ط. فاس، 1346 هـ.
- كنون (عبدالله)، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط. 2، بيروت، 1961.
- المجلة الآسيوية، سنة 1858.
- المحبي (محمد الأمين)، خلاصة الأثر (قسمان) اختصار ليلى الصباغ، دمشق 1983.
- محفوظ (محمد)، تراجم المؤلفين التونسيين، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.
- مخلوف (محمد)، شجرة النور الزكية، بيروت، ط. 2 مصورة عن ط. سنة 1349 هـ.
- ابن مريم (محمد المديوني)، البستان في ذكر العلماء والصلحاء بتلمسان، ط. 1909.
- المقري (أحمد)، نفح الطيب، جـ. 3، ط. مصر.
- المنوني (محمد)، (ملامح من تطور المغرب العربي في بدايات العصور الحديثة) ضمن أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، جـ. 2، تونس 1979.
- ميرسييه (أرنست)، (ظهور عائلة الفكون)، في مجلة روكاي سنة 1878، المجلد 19.
- النيفر (محمد)، عنوان الأريب، جزآن، ط. تونس، 1351 هـ.

- الورتلاني (الحسين)، الرحلة، ط. الجزائر، 1908.
- الوزان (الحسن «ليون الإفريقي»)، وصف إفريقية (جزآن)، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

التراجم كما وردت في المخطوط

(لاحظ أن المخطوط يستعمل تارة: (التعريف بـ. . .)، وتارة يذكر الاسم مجرداً، كما أنه يستعمل أحياناً لفظ (سيدي) وأخرى لفظ (السيد)، وثالثة بدون هذا أو ذاك، وهناك ألفاظ أخرى مثل (نفع به) التي تستعمل مع البعض فقط، إلى غير ذلك من الاستعمالات التي لها دلالاتها عند كاتبها. وقد نقلنا كل ذلك بأمانة).

الرقم	الاسم	الصفحة
15	التعريف بسيدي علي المرواني	53
16	التعريف بسيدي يحيى بن سليمان	54
17	التعريف بسيدي أبي الحسن الغربي	55
18	التعريف بسيدي قاسم العطار	56
19	التعريف بسيدي بركات بن سعيد	56
20	التعريف بسيدي حميدة بن باديس	57
21	التعريف بسيدي محمد التواتي	57
22	التعريف بسيدي سليمان القشي	60
23	التعريف بسيدي عبد العزيز النفاتي	60
24	التعريف بسيدي محمد الفاسي	61
25	التعريف بأبي زكرياء يحيى بن محمد (محجوبة)	63
26	التعريف بأبي عبدالله محمد بن قاسم الشريف	68
27	التعريف بسيدي يحيى بن باديس	68
28	التعريف بسيدي أحمد الجزيري	69
29	التعريف بسيدي محمد السوسي	72
30	التعريف بسيدي حميدة بن حسن الغربي	75
31	التعريف بسيدي عبد اللطيف بن عبد الكريم بن بركات	78
32	التعريف بسيدي أبي عبدالله (محمد) بن نعمون	80
33	التعريف بأبي عبدالله محمد المسبّح	90
34	التعريف بسيدي عبدالله العطار	90
35	التعريف بسيدي أحمد العطار	91
36	التعريف بسيدي علي بن داود الصنهاجي	92
37	التعريف بأبي عمران موسى الفكيرين	93
38	التعريف بسيدي عيسى الخلوفي	94
39	التعريف بسيدي أحمد الميلي	95
40	التعريف بالسيد علي الشريف	96
41	التعريف بالسيد أحمد الفاسي	97

الرقم	الاســـم	الصفحـــة

الفهـارس

فهرس آي الذكر الحكيم

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس القوافي الشعرية

صدر البيت	قافيته	منشده	الصفحة
سقى الله	تدوم سوابله	الفكون	226
يقولون	لكم عند	الدماميني	231
ودام عبد الكريم	والولاية	المقري	231
والخبر الجزء	والأيادي شاهدة	ابن مالك	233
كل يوم	بك أجمل	الحريري	236
يقولون إذ	من أنتم	الدماميني	237
يا نخبة الدهر	تعاضده الرواية	الفكون	237
صلى الإله	والغوابة	الفكون	237

فهرس الكتب الواردة في المخطوط

عنوان الكتاب	المؤلف	الصفحة
الرسالة	أبو زيد القيرواني	60، 82
ألفية العراقي في مصطلح الحديث		60، 93
العقيدة الصغرى	السنوسي	60، 73
قطر الندى وبل الندى	ابن هشام	60
الجرومية	زين الدين جبريل (؟)	60، 73، 106
الحوفي في علم الفرائض	ابن حوفي الأندلسي	61
دلائل الخيرات	الجزولي	68
التسهيل	ابن مالك	73
الشرح على القرطبية	أحمد زروق	73
نظم الدرر في شرح المختصر	ابن صغير الأخضري	74
كتاب الفروع	ابن الحاجب	93، 104
التوضيح	الشيخ خليل	104، 106
الآجرومية	ابن آجروم الصنهاجي	106، 107
مغني اللبيب	ابن هشام	111
الشرح الكبير على المغني	الدماميني (؟)	112
كتاب البدع	أحمد زروق	141
الرسائل الكبرى	ابن عبّاد الأندلسي	147
كتاب تأسيس القواعد	(؟)	158
كتاب الرد على المبتدعة	(؟)	183

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

ـ ب ـ

— ت —

— ث —

— ج —

— ح —

— خ —

— د —

— ر، ز —

— غ —

— ف —

— ق —

— ك، ل —

— م —

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

فهرس الأماكن والبلدان

ـ س ـ

ـ ش، ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف، ق ـ

ـ م ـ



الفهـــرس

(هذا الفهرس من وضع المحقق بعد استقراء شامل لمحتويات الكتاب. وكثيراً ما استطرد المؤلف فذكر تراجم داخل تراجم أخرى، ومع ذلك أهملها مَنْ وضع أسماء المترجم لهم في هامش المخطوط، كما أن هناك أحداثاً تاريخية، ومسائل أدبية وصوفية وغيرها تناولها المؤلف ولم تذكر في فهرس التراجم).

كتب أخرى للمحقق

في الأدب:

* النصر للجزائر (شعر)، ط 3، 1986.
* ثائر وحب (شعر)، ط 2، 1977.
* الزمن الأخضر (ديوان سعد الله)، 1985.
* سعفة خضراء (قصص) 1986.
* دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط 3، 1985.
* شاعر الجزائر: محمد العيد، ط 3، 1984.
* حكاية العشاق (تحقيق)، ط 2، 1983.
* القاضي الأديب: الشاذلي القسنطيني، ط 2، 1985.
* تجارب في الأدب والرحلة، 1984.
* أشعار جزائرية (تحقيق) تحت الطبع.

في التاريـخ:

* الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2 ط 3، 1983.
* الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، ط 3، 1986.
* محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) ط 3، 1982.
* حياة الأمير عبد القادر (ترجمة كتاب تشرشل عنه) ط 2، 1982.
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (الجزء الأول)، ط 2، 1982.
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (الجزء الثاني) ط 1، 1986.
* الجزائر وأوروبا (ترجمة كتاب جون وولف) 1986.
* تاريخ العدواني (تحقيق) في التحضير.

* تاريخ الجزائر الثقافي، جزآن، ط 2، 1985.
* شعوب وقوميات، 1985.

دراسات وأبحاث عامة:

* منطلقات فكرية، ط 2، 1982.
* رائد التجديد الإسلامي: ابن العنابي، ط 2، تحت الطبع.
* رحلة ابن حمادوش الجزائري: لسان المقال، (تحقيق) 1983.
* الطبيب الرحالة: ابن حمادوش الجزائري (دراسة)، 1982.
* شيخ الإسلام: عبد الكريم الفكون، 1986.
* منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، لعبد الكريم الفكون. 1987.
* حدثونا عن الوحدة... (تحت الطبع).
* قضايا شائكة (تحت الطبع).
* **La Montée du Nationalisme Algérien.** 2e éd. 1985.